

ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بمكتب ٱلشؤون ٱلفَنيَّة
٩ / ٢٠٠٨م

قطاع المساجد - مكتب الشؤون الفنية
الكويت - الرقعي - شارع محمد بن القاسم
بدالة : ٤٨٩٢٧٨٥ - داخلي : (٤٠٤)
فاكس : ٥٣٧٨٤٤٧
موقعنا على الإنترنت
WWW.ISLAM.GOV.KW



من صور الحياة العلمية في الكويت



الرُّشْد

تأليف فضيلة الشيخ

عبد الله محمد النوري

المتوفى سنة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

رحمه الله

اعتنى به

نور الدين بن عبد السلام مسعي



إصدار

مكتب الشؤون الفنية

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

تَصْدِير

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والتسلم على سيد الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فيسرّ مكتب الشؤون الفنيّة بقطاع المساجد بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة بدولة الكويت أن يقدم هذا الكتاب، والذي هو بعنوان: «الرشد» ليعبّر بلسان الصدق عن صورة حيّة من صور الحياة العلمية في تاريخ الكويت العلمي والدّعوي.

إنّ مكتب الشؤون الفنيّة يهدف من وراء هذا الإصدار إلى الأهداف التالية:

- التركيز على مدى عناية الوزارة بالتاريخ العلمي لعلماء الكويت وأئمّتها ودعاتها.
- إبراز الروح العلميّة والأدبيّة التي كان عليها أسلافنا من علمائنا وأئمّتنا ودعاتنا.
- صناعة القدوة بهؤلاء العظماء، ومحاولة بثّ روح الاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

إنّ هذا العمل العلمي يكتسب أهمية متميّزة باعتباره يكشف عن مرحلة من مراحل الدعوة والإرشاد في الكويت منذ عقود مضت، ويبيّن مدى اهتمام علماء الكويت بالوعظ والإرشاد إلى الحدّ الذي جعلهم يتفنّنون في طرح موضوعاتهم والاحتفاء بها إلى درجة كبيرة، ويظهر منه مدى حرص العلماء الكويتيّين على التزام الدقة، والموضوعيّة والأمانة العلميّة.

هذا الكتاب الذي هو عبارة عن سلسلة من الدروس الوعظيّة ألقاها فضيلة العلامة الشيخ عبدالله آل نوري ـ رحمه الله ـ، وقام على العناية بطباعتها مكتب الشؤون الفنيّة بقطاع المساجد بوزارة الأوقاف: يُعدُّ حلقة من سلسلة التراث العلميّ والدعويّ الذي يقدّمه مكتب الشؤون الفنيّة؛ آملا أن يكون حافزا لمواصلة العمل الجادّ لتحقيق وتوثيق ودراسة المزيد من عناصر تراثنا العلميّ المتين.

ولا يسع المكتب في خاتمة هذا التصدير إلاّ أن يشكر جزيل الشكر مجلس إدارة جمعيّة الشيخ عبدالله النُّوريّ الخيريّة على إذنها الكريم لوزارة الأوقاف بطباعة كتب الشيخ عبدالله النُّوريّ ـ رحمه الله ـ، سائلين الله تعالى أن يجعل أعمالنا كلّها خالصة لوجهه الكريم، موجبة لرضوانه العظيم.

مَكتبُ الشؤون الفَنيَّة

دَوْلَةُ ٱلكُوَيت

١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

❐ ❐ ❐

تَرجَمَةُ الشّيخ عَبدَالله مُحَمَّد آل النُّوري [1]

١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

*** مولده ونشأته:**

ولد الشيخ عبدالله بن محمد نوري بن أحمد بن محمد آل نوري في فجر يوم الثلاثاء ١٣ من ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ الموافق ١٧ من مارس سنة ١٩٠٥م، في الزبير في محلة الكوت في البيت المجاور لمسجد السيّد أحمد النّقيب، وقد سكن والده الزبير سنة ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م بعد وفاة والده، حيث عينته الحكومة مدرساً دينياً، وفي سنة ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م، تزوج والدة الشيخ عبدالله وهي نجدية الوالد، عراقية المولد والوالدة، فأنجب منها الشيخ عبدالله وأخواته، فهو موصلي الأصل، زبيري المولد، كويتي النشأة.

وربته جدته لأمه، وكانت ترعاه لأنها لم ترزق بذَكَر طول حياتها، وتولى والده تنشئته، وتعليمه مبادىء العلوم الأولى من القراءة والكتابة حتى بلغ الثامنة من عمره وفيها ختم القرآن الكريم.

---

(١) مصدر الترجمة كتاب «علماء الكويت وأعلامها» للشيخ عدنان الرومي (ص٥٧٦).

* تكوينه العلمي والشّرعيّ:

أولاً: المرحلة الأولى: تعلمه مبادىء العلوم:

بعد أن ختم القرآن مع والده، دخل المدارس التركية في أواخر حكم الأترك في العراق، وبعد الاحتلال الإنجليزي للبصرة دخل المدارس الأهلية (الكتاتيب).

وفي سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٦م تقريباً دخل المدارس التي فتحها الإنجليز لتعليم أهل البلاد، ومن جملتها مدرسة في سوق الشيوخ، وكان والده من معلميها، ومدة الدراسة في هذه المدرسة أربع سنوات، وهي تمثل الابتدائية في مستواها التعليمي، وقد كان الشيخ من المتفوقين، فكان الأول على دفعته، فرشح للدارسة في دار المعلمين في بغداد.

ثانياً: المرحلة الثانية: بداية طلبة العلم الشرعي:

وقعت له حادثة في ريعان شبابه أثرت فيه تأثيراً قوياً، دفعته إلى طلب العلم الشرعي وأخذه من أفواه العلماء، وهذه الحادثة يرويها الشيخ فيقول:

«وفي رجب سنة ١٣٤٥هـ، وكنت قد جاوزت السنة الثانية والعشرين من عمري، قال لي والدي رحمه الله: ستذهب بعد أربعة أيام إلى الهند مع فلان «رجل أعرفه من خيار الناس»، وكنت لا أجادل الوالد في قرار يقرره، ولا أرد عليه بغير كلمة «أبشر» فسكت ولم أرد عليه بالكلمة التي تعود سماعها مني، فنظر إليّ نظرة عميقة وقال: مالك؟ فقلت: له أمرك ولم أقل أبشر.

جرى هذا الحديث بعد صلاة المغرب، فقال لي: اذهب فصل إماماً بالجماعة العشاء، فأنا اليوم تعبان، وبعد الصلاة عدت، فقال لي: مالك؟ كأنك لا تريد السفر؟ قلت: نعم يا أبي... سألني اليوم سائل عن الوضوء فلم أعرف جوابه وأنا إمام وأبي من علماء المسلمين، فكيف إذا سألني غداً سائل آخر عن الصلاة أو عن الصيام؟ إني أريد أن أتعلم لأعرف كيف أجيب عن أسئلة السائلين».

وعلى إثر هذه المحاورة مع والده كانت الانطلاقة الأولى لطلب العلم، كما كانت منها نقطة البداية، فقد أحضر له والده كتباً ثلاثة:

١ ـ دليل الطالب فقه الإمام أحمد.

٢ ـ شرح قطر الندى في النحو.

٣ ـ كتاب رياض الصالحين.

وقال له «هذا كتاب «دليل الطالب» تواصل به درسك على الشيخ عبدالله خلف، وهذا «شرح القطر» تواصل به درسك ضحى كل يوم على الشيخ جمعة بن جودر... وهذا كتاب «رياض الصالحين» في الحديث نقرأ فيه أنا وأنت بعد المغرب كل يوم».

*** شيوخه:**

١ ـ والده الشيخ محمد النوري.

٢ ـ الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان.

٣ ـ الشيخ جمعة بن جودر.

٤ ـ الشيخ عبد العزيز قاسم حمادة.

٥ ـ الشيخ عبد الوهاب بن عبدالله الفارس.

٦ ـ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

* أبرز أعماله العلمية والعملية:

أولاً: في مجال التعليم والتدريس:

أ ـ التعليم والإدارة في المدارس الخاصة.

ب ـ التدريس في المعهد الديني.

ثانياً: الإمامة والخطابة:

كان الشيخ في أول أمره ينوب عن والده في إمامة المصلين في مسجد يعقوب الخالد الواقع في الحي القبلي، ولما توفي والده عام ١٣٤٥هـ الموافق ١٩٢٧م عمل مكانه إماماً وخطيباً في المسجد نفسه مدة أقصاها ثماني سنوات؛ بدأت من رمضان من سنة ١٣٤٥هـ إلى سنة ١٣٥٣هـ.

ثم عمل بعد ذلك في مسجد دسمان في الشرق إماماً، ولما سكن في ضاحية القادسية عمل إماماً وخطيباً في أحد مساجدها القريب من منزله.

ولقد استفاد الشيخ في مجال الخطابة من شيخه عبدالله الخلف ـ رحمهم الله ـ حيث كان ـ في أول أمره ـ يعرض خطبته عليه، وكان الشيخ عبدالله الخلف يشجعه ويرشده ويبدي إعجابه بها تشجيعاً منه.

ثالثاً: العمل في القضاء:

وفي أوائل ١٩٣٦م عُيِّن كاتباً في المحكمة، ثم أخذ يتدرج في هذه الوظيفة إلى أن أصبح رئيساً لكتابها في عام ١٣٦٦هـ ـ الموافق ١٩٤٦م، ثم عُيِّن سكرتيراً خاصاً لرئيسها، ثم سكرتيراً عاماً، وفي ١٥/ ٦/ ١٩٥٦ ترك العمل بالمحاكم.

رابعاً: العمل في الإذاعة:

يعتبر الشيخ أول مدير للإذاعة الكويتية منذ تأسيسها سنة ١٩٥٠م في دائرة الأمن العام، وكانت يومئذ غرفة صغيرة، وقد أدخل الشيخ فيها برامج تناسب ذلك الوقت، منها «طبيبك معك»، وبرنامج الأطفال، وبرنامج ديني«اسأل تجب» يذاع في الأسبوع مرتين، ثم ترك الإذاعة في منتصف عام ١٩٥٣، لأن شغله في المحكمة كان أولى من الإذاعة.

خامساً: العمل الحر.

سادساً: العمل في لجنة الفتوى:

بدأ عمل الشيخ في لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ نشأتها ١٩٦٥م، واستمرت هذه اللجنة فترة من الزمن تقرب من ثلاث سنوات، وبعدها حلت وفي سنة ١٩٦٩م بعد العطلة الصيفية تشكلت اللجنة من جديد فشكلت من ثلاثة أعضاء ورئيس هو الشيخ عبدالله النوري.

سابعاً: مؤلفاته وإنتاجه الفكري:

١ ـ «المرأة المسلمة في المجتمع المسلم».

٢ ـ «المحمديات».

٣ ـ «الرشد». وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

٤ ـ «شهر في الحجاز».

٥ ـ «قصة التعليم في الكويت».

٦ ـ «الأمثال الدارجة في الكويت».

٧ ـ «البهائية سراب».

٨ ـ «المنبر».

٩ ـ «مذكرات عائد من الشرق الأقصى».

١٠ ـ «سألوني في التفسير».

١١ ـ «سألوني في العبادات والعقيدة».

١٢ ـ «سألوني عن المرأة».

١٣ ـ «من غريب ما سألوني».

١٤ ـ «أحاديث».

١٥ ـ «مذكرات عن حياة الشيخ أحمد الجابر».





وبه نستعين وعليه الاتكال

الحمد لله وحدَه، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعدَه، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف: ١٠].

وبعد:

فهذه مجموعةُ دروس في الوعظ: ألقيت بعضَها في مسجد الخالد في الكويت أيامَ كنت إماماً فيه، ما بين سنتي ١٣٤٦ وسنة ١٣٥٢هـ، وألقيت الباقي في بعض مساجد الكويت أيامَ كنت مفتشاً لأوقافها سنة ١٩٥١، ١٩٥٢م.

دوّنتها هنا لتكون مرجعاً لي وقتَ الحاجة، ولتكون ذكرى لي عند مَنْ تقع في يده من بعدي، وقد اعتمدت فيها على شرح الآيات: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الآية: ٢٣] حتى الآية ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الآية: ٣٨] من سورة الإسراء، وحديث أركان الإسلام، ثم أحاديث وآيات أُخر في الأخلاق، وذكرت بعض ما يتعلق بذلك من الشؤون الدنيوية، التي لها مساسٌ في الدين، أو التي لا تنافي الدين، أو التي تفيد صاحبها إذا أُريد بها وجهُ الله.

وراجعت في جمعها الكتبَ المدرجَةَ أدناه:

القـــــرآن الكـــــريم.

تفسير القرآن الحكيم: للإمام محمد عبده

مشكاة المصابيح: للخطيب العمري

التفسير المسمّى: لباب التأويل: للعلامة الخازن

التفسير المسمّى: مدارك التنزيل: للعلامة النسفي

تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي

مختصر التبصرة: لابن الجوزي

رياض الصالحين: للنووي

مفتاح الخطابة والوعظ: لمحمد أحمد العدوي

الأخلاق والواجبات: لعبدالقادر المغربي

إصلاح الوعظ الديني: لعبدالعزيز الخولي

تفسير الجلالين: للإمام المحلّي والسيوطي

الجامع الصغير: للسيوطي

وكتب أخرى ربما رجعت إليها للحاجة.

هذا؛ وأسأل الله التوفيق والرشاد إلى إكماله على ما يرضيه، وأن ينفع به من قرأه ومن سمعه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم؛ لا رياء فيه ولا سمعة؛ إنه على ما يشاء قدير.

وصلى الله على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه، ومَنْ تبَع سنّته.

عبدالله آل نوري

❐ ❐ ❐

الإهداء

إليك يا داعيَ الله، يا من بلَّغت رسالةَ ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

إليك أيها المعلمُ الأعظم، والمرشدُ الأكبر، يا مَنْ تلوتَ على الأمّيين كتابَ ربهم، وزكيتهم بما علَّمتهم.

إليك يا خيرَ الناس للناس، ويا أبرَّ الناس بالناس، ويا أعطف الناس على الناس.

إليك يا من عفوت عند المقدرة، وشكرت على السراء، وصبرت على الضراء، وصابرت عند البأس.

إليك يا خير الناس خلقاً، وأفصحهم منطقاً، وأكرمهم محتداً، وأعظمهم تواضعاً.

إليك يا سيدي يا رسولَ الله أُقدّم كتابي هذا، أرجو ثوابه عند من أرسلَكَ رحمة للعالمين.

صلى الله وسلم وباركَ عليك، وعلى آلكَ وأصحابك، والتابعين لهم، والسائرين على منهج سنتك.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

المؤلف

شكر وتقدير

الحمد لله وحدَه، والصلاة والسلام على نبيه.

وبعد:

فقد يسّر الله لنا أخوين كريمين، كان لأولهما فضل لا ينكر؛ فالأخُ الحاج عبدالله العثمان ـ وهو أشهر من أن يعرّف ـ قد أحسنَ فطبعَ هذا الكتاب طبعته الأولى، ثم كرَّر الفضل، فتبرع من ماله بطبع هذه الطبعة، والأخُ صاحب الفضيلة الشيخ محمد أحمد الفارسي؛ إمام وخطيب مسجد الخليفة؛ بذل من وقته ومجهوده؛ فساعد بتصحيح الطبعة الأولى تمهيداً لطبعها مرة ثانية.

فشكراً للأخوين الكريمين: أخٍ بذلَ من ماله ـ أسأل الله أن يخلفَ عليه ما أنفق ـ في سبيل الأمر بالمعروف والنصيحة لله، وأخٍ بذل من وقته ومجهوده، أسأل الله أن يكتبه فيمن جاهد فيه فاهتدى لسبيله.

عبدالله آل نُوري



مقدمة

بعث الله محمداً ﷺ فرداً لا جيوشَ مجندَةً معه، ولا عُدَد منظمةً تحميه، ولا قوة تسانده، وإنما كانت معه نفسٌ طاهرة، وعزيمة ثابتة، وإيمان راسخ، ودعوة إلى الله بالمعروف.

قام هذا النبي الكريم لا حول له ولا قوة إلا الدعوة إلى الخير: ينطق بها قلبُه قبل أن ينطق بها لسانه، فأجابه نفرٌ قليل صَفَتْ نياتهم، وميزوا الخير من الشر، وعرفوا الحق الذي دعاهم إليه، فأجابوه وأعانوه، ودعوا إلى الله وإلى الحق كما دعا، وأخلصوا في الدعوة إليه، فكان الله معهم، ومكَّن لهم في الأرض كما وعدهم، وجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، وأبقى ذكرهم في الخالدين.

يعتقد كثير من الناس أن الدين الإسلامي ما قام إلا بالسيف، وهذا محض كذب وافتراءٍ على الله وعلى دين الله، والحقُّ أن الدين الإسلامي ما قام إلا بالدعوة والإرشاد، ولم يرسل الله محمداً ﷺ سَفَّاكًا، وإنما بعثه رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأمره أن يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل بالتي هي أحسن. وأما القتال، فقد شُرع لحماية الدعوة،

وتمهيد السبيل لها، ودفع شر المعارضين عنها، ولهذا كان من شروط الدعوة أن يرسل البعث أولاً يدعو الناس إلى الله ثلاثة أيام؛ فإن وجد منهم معارضة، شدّد معهم، أو مقاومةً دافع عن الدعوة بقتالهم، وإن لانوا، دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بالدعوة إليه؛ حفظاً للدين من أن تلعب به أهواء المبتدعين المفسدين؛ فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وعاب أولئك الذين أهملوا أمر هذا الركن الحافظ للدين، والجامع شمل أتباعه على الصراط المستقيم، عابهم بقوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩].

ثم بين أن إهمال الدعوة يُسبب إماتة الغيرة الدينية في النفوس؛ وكفى بها عِلَّةً في تشتيت الشمل الذي يدعو الإنسان إلى الاستعانة بعدوّه في الدين والجنسية؛ فقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[المائدة: ٨٠].

بينما نرى الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر قد ضعف شأنها، ولذلك أسباب:

أولاً: أن القلوب خلت من احترام الدين، فلم يعد له سلطان على النفوس، ولذلك دواع:

أ ـ اقتصارُ الوُعَّاظ في وعظهم على العبادات والأخلاق، وإهمالهم ما يتصل بعظمة الدين الإسلامي في نواحيه الحكومية والسياسية والنظامية والدفاعية والتربوية.

ب ـ كثير من الوعاظ يدعون الناس إلى إهمال نعيم الحياة، والتخلّي عن الدنيا، وحبس النفس على العبادات؛ وهذا خلاف ما جاء به الدين الإسلامي؛ من حيث إنه دين يُبيح ما أحلَّ الله من الدنيا؛ بينما النفوس قد جبلها الله على حب الحياة، وحب المال ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الأعراف: ٣٢].

ج ـ انتشارُ المذهبِ القائلِ بفصل الدين عن الحياة؛ بينما الدين الإسلامي قد مزج الحياة بالدين مزجاً لا يستطيع أحد فصله؛ فجعل كل شأن المسلم ديناً؛ فالمسلم في عبادة أينما كان: في مسجده، ومتجره، في بيته، ومدرسته، في مراحه، أو ميدانه؛ إذا ابتغى بعمله ذلك وجه الله، وطبق فيه أوامر الله.

د ـ إهمالُ الدروس الدينية في المدارس، واقتصارُ التعليم فيها على دروس مقتضبة في العبادات لا تطبق أبداً.

ثانياً: أَن أكثر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لا يأتمرون بما يأمرون، ولا ينتهون عما يَنْهَون؛ ومثلُ هؤلاء لا أثر لقولهم في النفوس؛ إذ إن الكلام إذا خرج من القلب، وصلَ إلى قلب السامع، بينما إذا خرج من اللسان، لا يتعدّى الآذان.

ثالثاً: تشديد بعض الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في دعوتهم؛ وذلك مما يُنَفِّر السامع، والأمرُ بمعروف يجب أن يكون بمعروف.

والله تعالى أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يدعو الناس إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن، وقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

من أمثلة دعوته ﷺ أنه دخل المسجد ذات يوم، والناسُ بين مصلٍّ وقارىء، فقال: «أَيُّها النَّاسُ! كُلُّكُم يُناجي رَبَّه، فلا يَجْهَرْ قارِيكُمْ على مُصَلِّيكم»[(١)]؛ فلم يعب جهر القارىء، وإنما حبذ عمله كما حبذ عمل المصلي، وأمر القارىء ألاَّ يشوش عليه.

إن للدعوة إلى الله أهميةً عظمى في الدين الإسلامي؛ إذ بها عَظُمَ شأنُه، وانتشر سلطانُه على قلوب مئات الملايين من البشر، وبإهمالها دُكَّ ذلك البناء الشامخ، وأصبح أنقاضاً مفكّكة، وصارت أجزاؤه نهباً مقسماً بين الكفرة الأعداء، واشتغل أهله بجمع الحطام، وغفلوا عما يمس كرامة الدين في حاله ومآله؛ فلا يهم أحدَهم إلا الساعةُ التي هو فيها، ولا يلفت نظرهَ إلا المصلحةُ الخاصة التي يدرُّ فيضُها عليه، ولو كان في ذلك هلاكُ أخيه المسلم، أو ضياع دينه، أو تشتيت شمله؛

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٠٩٢)، والحاكم (١١٦٩)، والبيهقي (٤٤٧٩)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، ولفظه عندهم: «..فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة، أو قال: في الصلاة».

مستدلين على ذلك بقول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[المائدة: ١٠٥]، وغفلوا عن قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾[المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]، وإني أرجو وأتفاءل ـ متيمناً بقول النبي ﷺ: «تَفَاءَلُوا بالخَيْرِ تَجِدُوه»[1] ـ أرجو أن يعيد الله للإسلام مجدَه، وأن تُبعث الأمة الإسلامية من حياة هي أشبه بالموت إلى حياة الجد والعمل والقوة في الدعوة؛ فأرى:

١ ـ ملوكَ المسلمين وقد وَحَّدُوا رايتهم على إمام عادل، وخليفةٍ عامل، وقام دعاتُهم في البلاد البعيدة يدعون الناس إلى الله وإلى دين الله.

٢ ـ وعلماءَ المسلمين يدعون العوام من المسلمين بإخلاص إلى العمل بدينهم؛ فيشرحون ما يجهلون من حلال وحرام في دينهم، وما وجب عليهم من عبادات، وما قنّن لهم من نظام، وما حسن لهم من أَخلاق.

٣ ـ وكُتَّابَ المسلمين وقد اعتنت صحفُهم ونشراتهم بالشؤون الإسلامية، وقضت على ما نراه الآن من مفاسد غايةُ أهلها القضاءُ على الفضيلة.

---

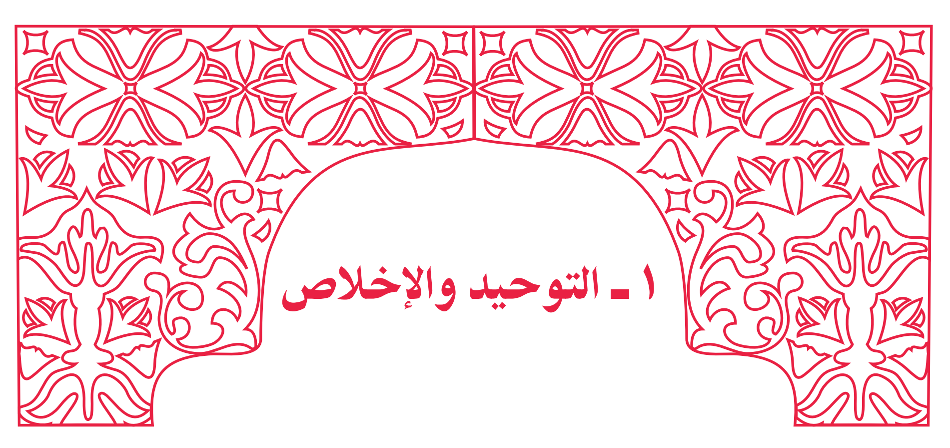
(١) لم أجده حديثاً، وإنما روي عن كعب الأحبار قال: «صاح خُطّافٌ عند سليمان ـ عليه السلام ـ، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: قدّموا خيراً تجدوه». انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٣/ ٣٥٠).

٤ ـ والمدارسَ وقد دُوِّنَ في منهجها درسُ الدين بأوضح معانيه: عبادة، ونظاماً، وجهاداً، وحكماً.

٥ ـ والدعوةَ العامة وقد شملت الأوساط الإسلامية؛ فالأبُ يربي أولاده التربية الإسلامية، والصديقُ يدعو أصدقاءه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأرى التاجرَ في متجره، والعاملَ في معمله، والمعلمَ في مدرسته، والرجلَ في طريقه؛ وكلُّهم يدعون إلى الله بأمر الله متى دعت الحاجة إلى الدعوة.

في ذلك اليوم يسعد الإسلام بأهله، ويعود كما بدأ؛ فطوبى للمسلمين يومئذ، وما ذلك على الله ببعيد.

❐ ❐ ❐



١ ـ التوحيد والإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣].

جاءت الأديان كلُّها بتوحيد الله، وإخلاصِ العبادة له، وبهذا أوحى الله إلى الأنبياء من لَدُنْ آدمَ إلى خاتم النبيين بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[النساء: ٣٦] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥]، وهذا ما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[النساء: ١٦٣]، وما سوى التوحيد والإخلاص شِركٌ.

وقد قسّم العلماء الشركَ إلى أنواع:

أعظمُها: أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ؛ فتشركَ معه بالعبادة شريكاً من خلقِه؛ من بشرٍ، أو جمادٍ، أو حيوانٍ، أو نبات؛ فتسأله ما لا يجيب عليه إلا الله؛ كشفاء من مرض، أو تفريج أزمة، وقد روى لنا التاريخ أَن بعض الأمم عَبَدَ التماثيل، وبعضهم عبد الأنهار، وبعضهم عبد الحيوان أو النجوم أو الشمس، ولا تزال عبادة الأوثان والحيوان موجودة في كثير من الأمم؛ كاليابان والصين والهند وأواسط أفريقيا، والله سبحانه منزَّهٌ عن ذلك ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ

﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾[المؤمنون: ٩١] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢].

ونوع آخر: هو أن تطيع مخلوقاً في معصية الخالق ﷻ، وهذه كبيرة من الكبائر تُحبط العملَ؛ فالله بيده روحُ الإنسان وقلبُه ورزقُه، يصرفها كيف يشاء، وهو أولى بالطاعة من غيره، والعاقل لا يرضى أن يُغضب الملكَ الجليل ليرضي العبدَ الذليل الذي لا حولَ له ولا قوة، مع أنه يعلم أن يد الله فوق أيديهم، وحكمه فوق حكمهم، وعدله نافذ فيهم، وقد روى الطبراني عن عائشةَ بنتِ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ: أن معاوية كتب إليها يطلبُ نصيحتها، فكتبت إليه تقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أسخطَ اللهَ في رِضَا النَّاس، سَخِطَ اللهُ عليه، وأَسْخَطَ عليه مَنْ أَرضاه في سَخَطِه، ومن أَرْضى اللهَ في سَخَطِ النَّاسِ، رضي اللهُ عنه وأرضى عنه مَنْ أسخطَه في رضاه، حتى يزينه ويزين قولَه وعملَه في عينه»[1].

ونحن نرى في هذا الزمن كثيراً من الناس يتقربون إلى الرؤساء والحكام ومن ولوا أمرَ الناس، وإلى ذوي المكانة والنفوذ ـ يتقربون إليهم ـ بفعل ما يشتهون، وإن كان في ذلك ضررٌ على دينهم؛ طمعاً في مركز أو وظيفة أو جاه، والحقُّ أنهم أَضروا أنفسهم، وأضروا

---

(١) أخرجه الطبراني (١١٦٩٦)، ولكنه عنده من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأما حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فقد أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وهو حديث صحيح. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٣٣١).

صاحبهم، وخالفوا أمرَ ربهم إذ يقولُ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة: ٤٤].

والله ﷻ لابد وأن يعجِّل لهؤلاء العقوبة؛ فيحرمهم مما رغبوا، ويمنعهم مما أملوا، ويُغضب عليهم مَنْ أرضَوْه في سخطه ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[المائدة: ٨٠]، وكان الأولى بهم لو كانوا مؤمنين أن يشكروا الله على نعمة أولاهم إياها؛ فيترقبوا الفرص لإلقاء كلمة تنفع في رد مظلمة، أو إعطاء حق لأهله، أو دفع شر عن مظلوم، أو بذل نفع عام، أو تأديب جانٍ، أو تأمينِ طريق، أو تنبيهٍ من غفلة، إلى غير ذلك من المصالح التي تعود على الراعي أو الرعية، وتفيد الوطن الإسلامي وأهله.

ونوع ثالث من أنواع الشرك: أن يجلس الرجل إلى أصدقائه وخلانه؛ فإذا أفاضوا في غيبة، أفاض معهم، أو نميمةٍ، أعانَهم، أو استهزاءٍ بأحد، شارَكهم، وإذا دعوا إلى لعب حرام، أو إتيان منكر، شاركهم، وإن لم يشاركهم، وافقهم خوفَ أن يتكدر ذلك الداعي أو أحدُ مدعويه؛ فهذا فَضَّلَ رضاء صديقه وصاحبه في غضب ربه، وأسبل على هذا الخلق الذميم اسماً لطيفاً هو مجاملة، وما المجاملة إلا أن تظهر لصاحبك ما تضمره له من احترام حقيقي قدر مركزه في المجتمع، وإنما الذي عمل هو النفاق بعينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

ونوع رابع: وهو أن يتوسَّل أو يستعين في قضاءِ حاجته أو نيلِ

مراده بولي، أو نبي، أو مَلَك، أو قبرٍ لرجل صالح، أو ما شابَهَ ذلك، مع أن هذا النبي أو هذا الولي مشغول بنفسه، محتاج إلى رحمة ربه، مفتقرٌ إلى فضله؛ فكيف يلتفت إلى معونة غيره، وهو رهينُ عمله، ومحمدٌ ﷺ الذي ختم الله به النبيين، وفضَّله على الأولين والآخرين يقول: ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[الكهف: ١١٠]، ويقول: «إنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه»[(١)].

وقد ثبت أنه كان يستغفر الله كثيراً، ويقول: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنِّي أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم مِئَةَ مرةٍ» رواه البغوي[(٢)]. ولا يقدر على دفع الشرِّ وجلب الخير إلا اللهُ وحده، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

ونوع خامس من أنواع الشرك: هو الرياء، وقد سماه نبينا محمدٌ ﷺ الشركَ الأصغرَ، وهو أن يُظهر للناس صلاحَ أعماله؛ ليُطْرَى فيها؛ فيطيل ركوعَه وسجودَه؛ ليقولَ الناسُ عنه: إنه عابد، ويعطي الصدقات على مرأى من الناس؛ ليقال: كريم، والله ﷻ لم يأمرنا بذلك، وإنما أَمرنا أن نعبده مخلصين له الدين حنفاء، ومدح الله ﷻ قوماً يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا بقوله على لسانهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٩]، وذم

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١١/ ٥٢٤)، والحاكم (٢/ ٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٤٠٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٨٩)، وقال الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (٢٥٥): «هذا حديث صحيح». وإلى البغوي عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» (١/ ٤٧٧)، ولم أجده في المطبوع من كتبه. والله أعلم.

آخرين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[النساء: ٣٨].

وبعضهم يَمُنُّ بالصدقة والإنفاق، يرفع عَقِيرتَه بالمجالس بين أصدقائه وأصحابه، ويقول: كسوتُ فلاناً، وأطعمتُ فلاناً وساعدته! وهذا عيبٌ في الدين ذَمَّه الباري ﷻ، ونهى عباده عنه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾[البقرة: ٢٦٤]، وفي «البخاري»، و«مسلم» عن جندب ابنِ عبدِالله، قال: قال النبيَّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ به، ومن يُراءِ يُراءِ اللهُ به»[1].

وروى مسلم وغيرُه عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إنَّ أولَ الناس يُقضى يومَ القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتي به، فعرّفه نعمتَه فعرفَها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدت. قالَ: كذبْتَ، ولكنك قاتلتَ لأَنْ يُقال: هو جريءٌ، فقد قيل، ثم أمر به، فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأَ القرآنَ، فأُتي به، فعرّفه نعمَه فعرَفَها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآنَ. قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمت ليقالَ: عالم، وقرأتَ القرآنَ ليقال: قارىء، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به، فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاه من أصنافِ المالِ، فأُتي به، فعرَّفه نعمَه فعرفَها، قال: فما عملْتَ فيها؟

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦)، وعندهما: «يرائي» ـ بالإشباع فيهما ـ.

قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقالَ: هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أمر به، فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار»[1].

والله ﷻ يقول: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٨٨].

وشرُّ أنواع الشرك سادسُها: وهو النفاق، وهو أَن تبطن الكفر وتُظهر الإيمان، أو تُبطن المكر وتُظهر الإخلاص، ولا يخفى ما في ذلك من ضرر عظيم على الفرد والمجتمع، وفي التاريخ الإسلامي من شنائع المنافقين الشيءُ الكثير، ولن ننسى حال المسلمين في أوربا عندما كان الفتح جارياً في فرنسا، ولن ننسى اختلال صفوفهم في الصين عندما كان الفتح ماشياً إلى الشرق، ولا تخلو أمة ولن تخلو من شرور المنافقين، وقد حذر الله في كتابه العزيز منهم، وذمهم في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[البقرة: ١٤] ويقول أيضاً: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾[النساء: ١٠٨]، وفي بعض غزوات النبي ﷺ كان المنافقون إذا رأوا أقلَّ خللٍ أو ضعف في صفوف المسلمين؛ أَظهروا فرحَهم، ونادَوْا بتخذيل من صابر في الجهاد، وإذا أصاب المسلمون خيراً، قالوا: ألم نكن معكم؟

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

فتجنَّبْ يـا أخي الشركَ كلَّـه تكـنْ موحِّـداً، وتجنَّبْ في أعمالك الرياء والنفاق تكنْ مخلصاً، وابتغ بعملك كلِّه وجهَ الله؛ فإن الدين الإسلامي دينُ عبادة، والمسلمُ يستطيع أن يعبد الله في جميع أعماله إذا أخلص عملَه لوجه الله: يستطيع أن يعبد الله في مسجده: في صلاته، وفي سوقه: في بيعه وشرائه، وفي بيته: في معاشرته لأهله، وتربيته لأولاده، وإنفاقه على عياله، وفي مجتمعه: في معاشرته لأصدقائه ومواطنيه، وفي قيامه وقعوده، ونومه وأكله وشربه؛ فإن كل ذلك من الدين إذا أراد الإنسان وجهَ ربه، فقد روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص ﷺ: أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال له: «إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تجعلُ في في[1] امرأتك»[2]، وقال أيضاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ عندما رأى الشاب الذي خرج مبكراً يحتطب: «إنه إنْ كانَ خرجَ يسعى على نفسه لِيُعِفَّها، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خرجَ يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيل الشيطان»[3].

(١) قوله: «في في امرأتك»؛ أي: في فم امرأتك. (المؤلف).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦).

(٣) رواه الطبراني عن كعب بن عجرة. (المؤلف). [أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٢٨٢)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٢٥): «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال «الكبير» رجال الصحيح»، وكذا قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ١٤١ = صحيحة)].



٢ ـ بر الوالدين وعقوقهما

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]

إن أعظم نعم الله على عباده نعمةُ الوالدين؛ فهما السبب في وجود الإنسان، ولهما على الولد حقُّ التربية؛ فقد أشفقا عليه، وحفظاه من المهالك في حال صغره، وأنفقا عليه حتى اشتد، وسهرا لسهره، وفرحا لفرحه، وحزنا لمرضه، وأنسا بصحته، وضجرا لبكائه، وضحكا لضحكه؛ فلهذا أَمَر الله ببرهما، وقرنَ الإحسان إليهما بطاعته، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣].

فنهانا عن عقوقهما، وأذيتهما، وحتى عن الضجر منهما، نهانا عن أن نقول لهما: أف، فإن خاطبك أحدهما أو كلاهما خطاباً لا يعجبك؛ فاستمع إليه، ولا تُظهر الضجرَ منه، ولا تطلب منهما السكوت.

روى الطبراني عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «كُلُّ الذُّنوبِ يؤخِّرُ اللهُ تعالى ما شاء منها إلى يومِ القيامة، إلاَّ عقوقَ الوالدين؛ فإنَّ الله يعجِّلُه لصاحبِه في الحياة الدنيا قبلَ المَمات»[1]، فلهذا نرى من أسوإ آثار عقوق الوالدين أن العاقَّ والديه أو أحدهما يعقه ولدهُ؛ فلا يبره، ولا يُجِلُّه، ولا يطيع له أمراً، وهذه تجربة معهودة في الناس، مشهورةٌ فيهم، ولطالما مثلت أدوارها تحت مواقع أنظارهم.

وروى الطبراني أيضاً عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قوله: «بِرُّوا آباءَكم تَبَرُّكُم أَبناؤُكم، وعِفُّوا تَعِفُّ نساؤُكم»[2]، وأفادنا ﷺ بأن عقوق الوالدين لا ينفع معه عمل، وأن الويل كلَّ الويل لرجل مات أحدُ والديه أو كلاهما وهو غاضب عليه، أو مات هو ووالداه أو أحدُهما عليه غاضب، فقد روى مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «**رَغِم أَنْفُه**» ثلاث مرات، قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عندَ الكِبَرِ أحدَهُما أو كِلَيْهما، ثُمَّ لم يدخلِ الجنةَ»[3]، وروى أحمد عن عمرو بن قرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله! شهدتُ

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٢٦٣)، وضعّفه الذهبي في «تلخيص المستدرك» (٤/ ١٧٢)، وإلى الطبراني عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٦/ ٦٧١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٠٠٢)، والحاكم (٧٢٥٩)، وفي إسناده علي ابن قتيبة الرفاعي، وهو ضعيف، وقال ابن عدي: «منكر الحديث»، وذكر له أحاديث، منها هذا الحديث. انظر: «الكامل» لابن عدي (٥/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥١).

أَنْ لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله، وصليتُ الخمسَ، وأديت زكاةَ مالي، وصمتُ رمضان: ما لي؟ فقال النبي ﷺ: «مَنْ ماتَ على هذا، كان مع النّبيّين والصِّدِّيقين والشّهداءِ يومَ القيامة هكذا ـ ونصبَ أصبعيهِ ـ ما لم يَعُقَّ والديه»[1].

فواجب على المسلم أن يداري والديه؛ فيبرهما، ويقوم بحقوقهما كما قاما بحقه في طفولته يومَ لا حولَ له ولا قوة ولا قدرة، يوم أن كان محتاجاً إلى مَنْ يطعمه وينظفه، ويقيمه ويقعده، فقد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾[لقمان: ١٤ ـ ١٥].

فواجب على المسلم أن يُطيع ربه في والديه، ويؤدي حقوقهما عليه، وإن كانا على غير دينه، فلا يطيعهما في معصية الله، بل يصاحبهما في الدنيا بالمعروف، ويتبع سبيلَ من أناب إلى الله، كما روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت الصديق، قالت: قَدِمَتْ عَلَيّ أمّي وهي مشركةٌ في عهد قريش، فقلت: يا رسولَ الله! إن أمّي قَدِمَتْ عليَّ وهي راغبة، أفأصلُها؟ قال: «نعم صليها»[2].

وكثير من الرجال إذا تقدَّم به العمرُ أصبح سهلاً سمحاً يستبشر

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٩٩)، وقال المنذري: «رواه أحمد، والطبراني بإسنادين، أحدهما صحيح». انظر: «صحيح الترغيب» (٢/ ٣٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٣)، ومسلم (١٠٠٣)، واللفظ للبخاري.

بمن يزوره، ويضحك لمن يحدثه، ويأنس به، عكس النساء: فإن المرأة إذا تقدمت بها السن، ساءت أخلاقها، ومالت إلى التألم والضجر والعزلة، وإذا خولف أمرُها، حسبت ذلك اعتداء على حقها، وربما رأته عداوة لها ممن يخدمها، لهذا خص الدين الإسلامي الأمهاتِ بالذكر برًّا بهن، وعناية فيهن، ورعاية لحقوقهن، ولكونهن أضعفَ جسماً وعقلاً، وأشدَّ عجزاً من الرجال، فالله تعالى وإن أمر ببر الوالدين معاً، إلا أنه جعل للأم من هذا البر الحقَّ الأوفر، فقد روى الإمام أحمدُ عن النبي ﷺ: أنه قال: «أمَّك ثم أمَّك ثم أمَّك، ثم أباكَ، ثم الأقربَ فالأقربَ»[1].

ومن مكارم الخلق في الإسلام، ومن البر بالوالدين أن يصل الولدُ أصدقاء أبيه؛ فيزورهم ويستزيرهم، ويتفقدهم؛ براً بأبيه، وإكراماً له؛ لأنه بزيارة أهل ودّ أبيه يذكره عندهم، أو يذكرونه عنده بالخير، فيترحمون عليه، وتكون هذه الزيارة سبباً لاستنزال هذه الرحمة.

ومن البر بهما الترحُّمُ عليهما، والدعاءُ لهما، وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما؛ فقد روى أبو داود عن أبي أسيد، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم: الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدِهما،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٥)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، وقال: «وهذا حديث حسن».

وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرامُ صديقِهما»[1].

ومن إنفاذ عهدهما وفاءُ دينهما، واحترامُ عقودهما، وإمضاءُ بيعهما وإيجارهما، وتحقيقُ أمانيهما، وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما، وبرُّ أقاربك الذين يتصلون بك من طريقهما.

ومن عقوق الوالدين ما رأيناه من كثير من أبناء الطرق الذين ساءت أخلاقهم مع الناس، فأساء الناس إلى والديهم؛ تراهم يسيئون الخلقَ مع المارة، ويشاتمونهم فيشتمونهم، ويسبونهم فيسبون آباءهم وأمهاتهم، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله في حديث رواه البخاري ومسلم: «إنَّ من أكبرِ الكبائرِ شتمَ الرجلِ والديه»، قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعمْ، يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أُمَّه، فيسبُّ أُمَّه»[2].

ومن برهما اجتنابُ كلِّ ما يوصل الضرر، أو فعلُ ما يستنزل الرحمة؛ كأن يحسن الرجل إلى شخص، فيقول هذا: (رحمَ اللهُ والديك)، وروى البيهقي عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنةَ، فسمعتُ فيها قراءة، فقلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: حارثةُ بنُ النعمان؛ كذلكم البِرُّ، كذلكم البِرُّ»، وكان أبر الناس بأمه[3].

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٧)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وهو ضعيف؛ لأن في إسناده علي بن عبيد الأنصاري، وهو «لا يعرف». انظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠)، واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٦٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٣٣)، وابن حبان (٧٠١٥)، =

وفي حديث رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ ـ ما معناه ـ : أن ثلاثة نفر كانوا يمشون إذ أخذهم المطرُ، فأووا إلى غار في جبل؛ فانحطت على فم غارهم صخرة، وتذاكروا فيما بينهم، ثم اتفقوا على أن يتوسَّلوا بأعمالهم الصالحة لله تعالى، فيدعوا الله بها؛ لعل الله يفرج عنهم، قال ﷺ: «قالَ أحدُهم: اللهمَّ إنه كانَ لي والدان شيخانِ كبيرانِ، ولي صِبْيَةٌ صغارٌ، وكنت أَرْعى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم، حلبتُ، فبدأتُ بوالديَّ أَسقيهما قبلَ بَنِيَّ، وإني استأخرتُ ذات يوم، فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتُهما نائمين، فحلبتُ كما كنت أحلبُ، فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أسقي الصبيةَ، والصبيةُ يَتَضَاغَون عند رجلي حتى طلعَ الفجر؛ فإن كنتَ تعلم أني فعلته ابتغاءَ وجهك، فافرجْ لنا فرجةً نرى منها السماءَ؛ ففرج الله، فرأوا السماء. . .» إلى آخر الحديث[1].

فهذا رجل وقع بين نارين: نار الشفقة على أولاده الجياع، ونار الخوف من تألم والديه إذا أيقظهما؛ بينما هو قد تعب من سعيه وكده نهاراً، ثم سهر ليلاً حتى أرضى والديه، حيث فعل معهما أعلى أنواع البر كما أمره ربه، وكان عمله خالصاً لله، فلما توسل إليه في الشدة، وجد اللهَ عندَه، وذلك مصداقٌ لقول النبي ﷺ: «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشّدّة»[2].

= والحاكم (٤٩٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٦٧)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، والطبراني (١١٢٤٣، ١١٥٦٠)، والحاكم (٦٣٠٣)، =

وفي فضل الدعاء للوالدين بعد موتهما ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبدَ ليموتُ والداه أو أحدُهما، وإنه لهما لعاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما، ويستغفرُ لهما حَتَّى يكتبه اللهُ باراً»[1].

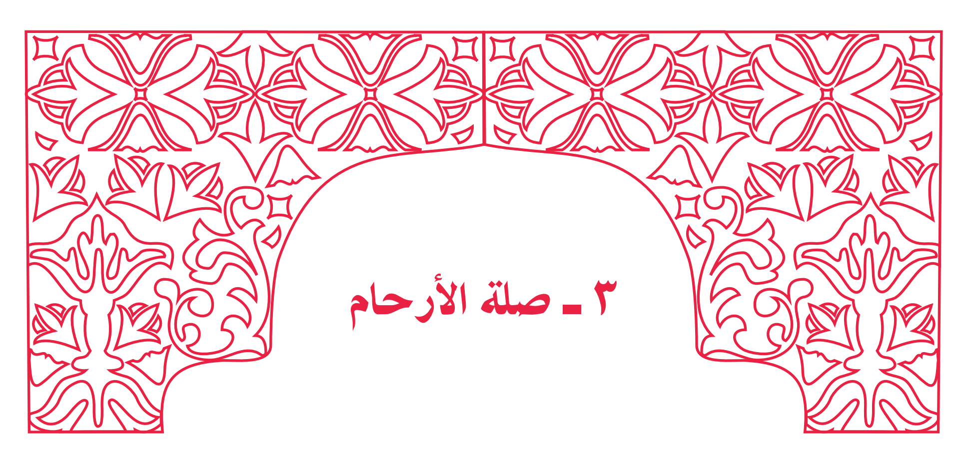
وروى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبحَ مُطيعاً للهِ في والديه، أصبح له بابان مفتوحان في الجنة، وإن كان واحداً، فواحداً، ومن أصبح عاصياً لله في والديه، أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحداً، فواحداً. قال رجل: وإن ظلماه؟ قال: وإن ظلماه! وإن ظلماه! وإن ظلماه!»[2].

❐❐❐

= وقال العجلوني: «وهو حسن». كشف الخفاء (٢/٣٦٥). وأصل الحديث عند الترمذي (٢٥١٦)، وليس فيه هذا الشطر من الحديث.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٤)، وضعّفه السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٥٣٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣/ ٣٦٥)، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٩٣): «ولا يصح».



٣ ـ صلة الأرحام

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[الإسراء: ٢٦].

وذو القربى هو من تتصل بك قرابتُه أو رَحِمُه من جهة أبويك، ولهذا بين النبيُّ ﷺ في حديث رواه أبو داود عن أبي أسيد مالكِ ابنِ ربيعة الساعديِّ: «إنَّ من بِرِّ الوالدين بعدَ موتهما صلةَ الرَّحم التي لا توصَل إلا بهما»[١]؛ فكما أن الله ﷻ أمرنا ببر الوالدين، أمرنا أيضاً بصلة الأرحام، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[النساء: ١].

وذم قوماً يقطعون أرحامهم، وتوعَّدَهم بإنزال اللعنة عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥]، وحذر آخرين بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

---

(١) سبق تخريجه في (ص٣٥).

ومن هذا نفهم أن قطيعة الرحم سبب من أسباب لعنة الله، والبعدِ عن رحمته.

وأخبرنا المصطفى ﷺ أن صلة الرحم مَكْرُمَة من وُفِّقَ إليها وُفِّقَ للخير الكثير، وأنها من موجبات رحمة الله تعالى، ومن أسباب سعة الرزق، ومن الأسباب الممدة في العمر؛ فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رزِقه، ويُنْسَأ له في أثرِه، فليصلْ رحمَه»[1]، والرسولُ ﷺ لا ينطق عن الهوى.

فلننظر إذاً لواصلي الأرحام، نرى أكثرهم ـ ولاسيما الذين أرادوا بذلك وجهَ الله ـ قد حالفتهم البركة في أرزاقهم، ورافقهم الفوز والتوفيق في سعيهم، وملأت البشرى دُورهم، فبسط الله لهم في رزقهم، وبارك لهم في سعيهم،ضِدَّ أولئك الذين قطعوا أرحامَهم؛ فإن الله قد حرمهم حتى مما في أيديهم، وذهب ما جمعوه في سبيل السوء وسبيل الشيطان.

واجبُ المسلم أن يداري أرحامه، فلا يكافئهم بالسوء سوءاً، ولا يطلب منهم على بره لهم إحساناً، بل يصلهم امتثالاً لأمر الله، وإيماناً بوعده، واحتساباً لما عنده؛ فإن فعل ذلك، صدق الله له وعده، والله لا يخلف الميعاد.

وأما إن أراد بذلك السمعة، أو أراد المكافأة العاجلة منهم، كان

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

من الخاسرين، ولكنه خير من القاطعين. روى مسلم أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصلُهم ويقطعوني، وأُحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلُم عنهم ويَجْهلون عليَّ. فقال: «لئنْ كنتَ كما قلتَ، فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزالُ معكَ من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك»(١).

وصلةُ الرحم درجات؛ فكلما قَرُبَتِ الرحمُ، كان وصلُها أعظم أجراً، وفي حديث «الأقرب، فالأقرب» دليل على أن صلة الأخ أكثر ثواباً من صلة ابنه، وابن الأخ أقرب من ابن العم، وهكذا...

وصلة الرحم تكون بزيارتك الغنيَّ عن مالك، وبالهدية، وبالصدقة، وبالمنفعة، وبكل ما يقربهم منك، ويقربك منهم. وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا الله، وأنا الرحمنُ، خلقتُ الرَّحِمَ، وشققتُ لها اسماً من اسمي؛ فمَنْ وصلَها، وصلتُه، ومن قطعَها، قطعتهُ»(٢).

ومن اللؤم أن نرى رجلاً أفاض الله عليه نعمَه، وأتاه من خيره الشيء الكثير، وأسبغ عليه فضله، فصحّ جسمه، وصحّ عقله، وله أقارب وأرحام كثيرون، ومنهم المحتاج، وفيهم الفقير، ولكن إذا ذكر

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وقال: «حديث صحيح».

فيهم، سكتوا، أو ذموه، فماذا يكون حال السامع؟ وكأني به يقول: أقاربه أدرى به، وأعلم بسيئاته منا، وربما ساء ظنهم به، وتجنبوا معاملته، أما إذا كان واصلاً لرحمه بالتزاور وبالتهادي وبالإحسان، فلا شك أنهم يُثنون عليه، وربما أَطْرَوْه، فذكروه بحسناتٍ أكثرَ مما فيه، ولعلهم يتغافلون عن سيئاته؛ كما قال الشاعر:

وَعَـيْنُ الرِّضَـا عَـنْ كُـلِّ عَيْـبٍ كَلِيلَـةٌ
كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَـــاوِيَا

وثناءُ الناس ـ ولا سيما إذا أجمعَ الناسُ على الثناء ـ يغري؛ فحينئذ يكبر مقامه، ويعظم قدرُه، ويثق الناس به؛ فيكثر خيره، ومحمدٌ ﷺ لا ينطق عن الهوى؛ فقد روى ابن ماجه عن عائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «أسرعُ الخيرِ ثواباً: البِرُّ وصلةُ الرحم، وأسرعُ الشرِّ عقوبةً: البغيُ، وقطيعةُ الرحم»[1].

وخير الواصلين وأعظمُهم ثواباً هو الذي يصل رحمه إن قطعته. وقد أجاب المصطفى ﷺ رجلاً سأله عن صفات كريمة يتحلى بها، فقال له: «أَنْ تصلَ مَنْ قطعَك، وتُعطي مَنْ حرمَكَ، وأن تعفوَ عَمَّنْ ظلمك»[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٢)، وقال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٢/ ١٤٠٨): في «إسناده صالح بن موسى، وهو ضعيف».

(٢) رواه الطبراني. (المؤلف). [أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨)، والطبراني (٤١٣)، وإسناده ضعيف؛ كما في «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (٢/ ١٩٣)].

وروى البخاري عن عبدالله بن عمر عن المصطفى ﷺ: أنه قال: «ليسَ الواصِلُ بالمُكافِيء، ولكنَّ الواصلَ الذي إنْ قطعَتْ رحمُه، وصلَها»[1].

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثرَ الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرحاءُ، وكانت مستقبلَةَ المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طَيِّب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]، جاء أبو طلحةَ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن الله تعالى أنزل عليك: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]، وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقةٌ لله تعالى أرجو بِرَّها وذخَرها عند الله تعالى؛ فضعْها يا رسول الله حيث أراكَ الله، فقال ﷺ: «بَخٍ! بَخٍ! ذلكَ مالٌ رابحٌ، ذلك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلَها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2].

من هذا نستدل على أن الصدقة في الأرحام أفضلُ منها في غيرهم، وأن له بها أجرين: أجرَ صدقة، وأجرَ صلة، وقد أمرنا ﷺ أن نعلم من أنسابنا ما نصل به أرحامنا؛ فقد روى الترمذي والحاكم: أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١).

(٢) أخرجه البخاري(٢٣١٨)، ومسلم (٩٩٨).

قال: «تَعَلَّموا من أنسابكم ما تَصِلون بِهِ أرحامَكم؛ فإن صلةَ الرحمِ محبةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنْسَأةٌ في الأَثَـر»[1].

وأخيراً: فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، عنه ﷺ: أنه قال: «إنَّ الله خلقَ الخلقَ، حتى إذا فرغَ منهم، قامتِ الرحمُ فقالتْ: هذا مكانُ العائِذ بكَ من القطيعة. قال: نعمْ، أما ترضين أن أصلَ مَنْ وصلَك، وأقطعَ مَنْ قطعَك؟ قالتْ: بلى يا رب. قال: فذاكَ لكِ. قال ﷺ: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٢ ـ ٢٣]»[2].

❐❐❐

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (١٩٧٩)، والحاكم (٧٢٨٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٤٦٣٤)، وفيهما: «هذا مقام العائذ».



٤ ـ الصدقات المفروضة

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[الإسراء: ٢٦].

وقد سبق الكلام على صلة القربى.

وإن الله تعالى قد أوجب حقَّ المسكين وابن السبيل في الزكاة، وندبَ لهما في الصدقات، وقال سبحانه في حقهما في الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦٠]؛ فالفقراء والمساكين وأبناءُ السبيل الذين انقطعت بهم الطرق عن الاتّصال بأموالهم وأهليهم لهم حقٌّ مفروض في مال كل غني.

وقد كان أولياءُ الأمور الصالحون من خلفاءَ وأمراءَ وملوكٍ في الصدر الأول للإسلام يأخذون الزكاة من الأغنياء، ويردونها على الفقراء، وما فضل بأيديهم منها ينفقونها في وجوهها الأخرى، حتى إذا ضعف الأمر، أعطى الأغنياء زكاتهم بنيّة خالصة إلى الفقراء والمساكين والغارمين وابن السبيل، ولما ضعف أمر الدين في القلوب، منعَ كثيرٌ من الأغنياء زكاةَ مالهم بخلاً وتهاوناً بأمر الدين.

والزكـاةُ ركـن مـن أركـان الإسلام، فرضهـا الله على الأمـة الإسلاميـة في السنة الثانية من الهجرة، وقرنها ـ سبحانه وتعالى ـ مع الصلاة في كثير منِ الآيات القرآنية؛ لما لها من الأهمية في الدين، والمنزلة العظمى في الاجتماع، فلا تكاد تقرأ إقامةَ الصلاة إلا وقرأتَ معها إيتاءَ الزكاة؛ لأن الصلاة تهذب الروح، والزكاة تهذب المال، والمال قرين الروح. وأخبرنا المشرِّعُ ﷺ: أن الزكاة طهرة المال، وأخبـرنا القرآن الكريم أنها طهرة للنفس، فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣]، فـإذا تعـود الإنسـان إخـراج زكـاة مالـه مـرة أو مرتيـن، وعلـم يقينـاً أنهـا تنفعـه فـي المستقبـل، وتنفع المجتمع الذي هو فيه، وتنفع الشخص الذي أعطاها إياه، طهرت نفســه، وزكت من أدواء البخل والشح: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩، التغابن: ١٦]؛ فالزكاة إذاً طهرة للمال، وتزكية للنفس.

ومن فوائد الزكاة أنها تخفف آلامَ الفقير والمسكين بما يحصل بيده منها، فيوسع بها على نفسه، وعلى عياله؛ فيشبع جوعتهم، ويستر عورتهم، وبذلك تولد المحبة بين المُعْطِي والمُعْطَى، وربما يأتي يوم يحتاج فيه هذا الغني معونة الفقير، والدنيا دُوَل: يومٌ لك، ويوم عليك؛ لأن الله خلق الناس طبقات، وجعل كلَّهم في خدمة كلِّهم.

النَّـاسُ لِلنَّـاسِ مِـنْ بَـدْوٍ وَحَاضِـرَةٍ
بَعْضٌ لِبَعْـضٍ وَإِنْ لَـمْ يَشْـعُرُوا خَـدَمُ

فربما يحتاجه يوماً إلى حمايته أو حفظه من شرور الغير؛ فإذا كان هذا الفقير يحب الغني، تفانى في خدمته وحمايته والدفاع عنه؛ أما إذا كان غير ذلك، كان مع عدوه عليه.

والإنسان كلما وصل إلى مرتبة، طمع فيما فوقها، ولو أوتي الإنسان واديين من ذهب، لتمنى لهما ثالثاً؛ وهذا مصداقٌ لقول النبي ﷺ: «مَنْهُومان لا يَشْبَعان: طالبُ علمٍ، وطالبُ دنيا»[1]؛ إذاً فلابد للإنسان أن يرتبط بالإنسان ليدرك أمنيّته، ولا رابطة أقوى من الإحسان.

قال بعض الحكماء: إن الله افترض الزكاة على الأغنياء لثلاث حكم:

أولاها: ابتلاء النفس وإهانتها بإخراج المحبوب.

ثانيتها: التنزه عن صفة البخل.

ثالثتها: شكر المنعم عليه بالمال.

وقد ورد في الأثر: «إنه ليسَ لكَ من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأبقيتَ»[2].

وحقاً أن ما بقي من مالك بعد موتك هو لوارثك، وليس لك منه شيء.

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس، وغيره عن أنس. (المؤلف). [أخرجه الحاكم (٣١٢) من حديث أنس، وصححه ووافقه الذهبي، ورواية البزار لم أجدها في مسنده المطبوع، وقد عزاها إليه في «كنز العمال» (١٠/ ٤٥٥)].

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) مرفوعاً إلى النبي ﷺ بلفظ: «وهل لك يا ابن آدم من مالك...».

وقد ثبت شرعاً وعقلاً أن خير الزكاة ما كانت في فقراء أهلك، ما لم يكونوا من فرعك أو أصلك، وهم: بنوك ووالدوك، ثم ذوو قرباك، ثم فقراء جيرانك، ثم الفقراء من سائر المسلمين، وتحرَّ بها منهم أهلَ الدين، وتجنب المنّة والأذى؛ لأنهما مُبْطِلان للصدقة؛ لقول الله ﷻ: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤]، بل أعطها بانشراح صدر ولطف، وادعُ بالبركة فيها لمن تعطيها إياه.

ومن فوائد الزكاة: أنها تساعد على نشر الأمن في البلاد؛ لأن أكثر أنواع الشرور تحدث من اضطرار المضطرين، واحتياج المحتاجين، فإذا اكتفى المحتاج ـ والفقيرُ يكتفي باليسير ـ، عَمَّ الأمن، وقلَّت متاعب الناس من وطأة الحاجة الملحة، واكتفى الفقير بالمؤونة، وتمتع الغني بماله آمناً مطمئناً؛ فعَمَّ الأمن، واستراح الناس.

روى الشيخان عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني، قال: «هم الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ»، قال: فجئتُ وجلست، فلم أتقارَّ حتى قمت فقلت: يا رسول الله! فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: «هم الأكثرونَ أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا ـ من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله ـ، وقليل ما هم»(١).

وأعظمُ عقوبة أوضحها الباري ﷻ في كتابه العزيز عقوبةُ البخل؛ حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠)، واللفظ له.

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

وإذا فكرنا في مسألة المال، وتداولِ الأيدي عليه، رأينا أن الرزق بيد الله، يبسطه لمن يشاء، ويقبضه عمن يشاء؛ فهذا غني، وهذا فقير، وهذا ميسور الحال واسعُ النعمة، وهذا بائس محروم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢].

والله ﷻ لا يغني شخصاً لأنه يستحق الغنى، ولا يُفقر شخصاً لأنه جدير بالفقر، فقد يغني عبداً وهو كارهٌ له، غاضبٌ عليه؛ لكفره وفسوقه وفجوره، وقد يغني عبداً كان من عباد الله الصالحين، ثم جاءه الغنى فأشقاه، وقد يُفقر عبداً وهو راضٍ عنه؛ ليلجأ إليه بالدعاء والاستعانة، وليَمُنَّ عليه بثواب الصبر، وليأجره على عبادته ورضاه بما قسمه له ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: ٢٠].

وما كان نبينا محمد ﷺ غنياً بماله، ولكنه كان ﷺ غنياً بقلبه ويقينه، غنياً بنفسه الرضية القانعة، وهو أحبُّ خلق الله إلى الله، وأعزُّهم لديه، ولو شاء، لملَّكه كنوزَ الأرض، ولو كان المال دليلاً على الرضا، لما أغنى قارونَ، ولما أغنى كافراً ملحِداً، وهاكم قوله ﷺ:

«إن الله يَعطِي الدنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبّ، ولا يُعطي الدينَ إلا مَنْ أحبَّ؛ فمن أعطاهُ اللهُ الدينَ، فقد أحبَّه»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

روى البخاري، ومسلم عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لما بعثَ معاذاً إلى اليمن، قال له: «ادْعُهم إلى شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأني رسولُ الله، فإن هُمْ أطاعوا لذلكَ، فأعلِمْهم أن الله افترضَ عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم، وتُرَدُّ على فقرائهم»[2].

وقد رأى كثير من علماء النفس أن صلة الكرم والإحسان أعظمُ من صلة القرابة؛ لأن الإحسان من المحسن رحمة، وفي المحسن إليه مودة؛ كما يقول الشاعر:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

وليست فائدة الزكاة راجعةً للفقير وحدَه، بل للغني فيها فوائد كثيرة كما قلنا، وليست مشروعية الزكاة للمحتاج فقط، بل للغني

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (٣٦٧١)، وأعلّه البزار، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٣، ١٠/ ٥٢٢) بجهالة بعض رواته. والله أعلم.

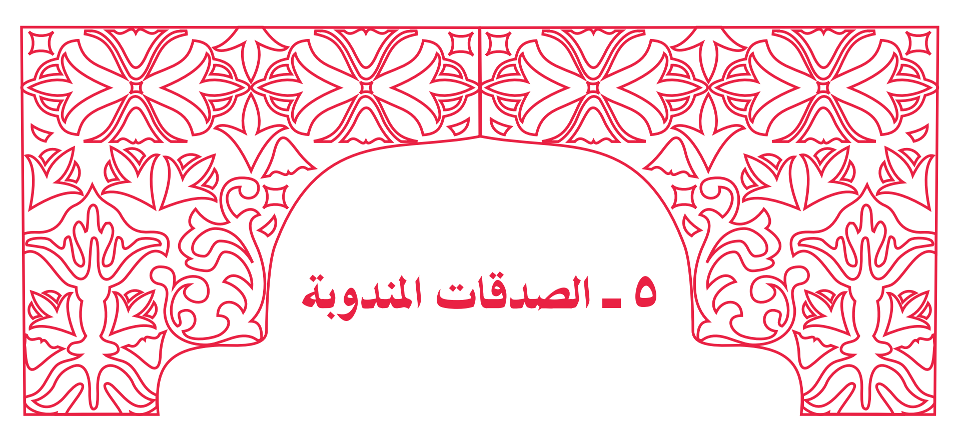
(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، واللفظ له.

والفقير: للأمة كلِّها، وللوطن جميعاً، للأخلاق والفضائل، للرابطة والصلة، ولنظام الدولة، ولسعادة الشعب. نعم ينتفع الفقير بما يناله من يد الغني، ويستفيد منها إشباع جوعته، وإراحة نفسه، وزوال همه، ولكن فائدة الغني أكبر؛ لأنه دفع للفقير درهماً وديناراً، ودفع الفقير له حباً وقلباً، بذل للبؤساء عَرَضاً زائلاً، فبذلوا له وُدّاً باقياً، حفظَهم من ذل الحاجة ومرارة البؤس، فحفظوه من البغض والحسد، وإثارة الكُرْه والمقت ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾[الليل: ٥ ـ ١١].

وقد حثّ الإسلام على الصدقة، ودعا إليها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وضاعف لها الثواب، فجعله عشراً إلى سبع مئة ضعف، وبين لنا نبينا ﷺ أن في الصدقة بركةً، وأنها تدفع كثيراً من البلايا، وتشفي من الأمراض النفسية، وأَيُّ مرضٍ نفسيٍّ أشدُّ من مرض الشحّ؟ وقد قال ﷺ: «إنَّ الصدقةَ تطفىء غضبَ الربِّ، وتدفعُ ميتةَ السوء»[1]، وإذا ابتعد الإنسان عن غضب ربه، كان من المفلحين ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩، التغابن: ١٦].



(١) ابن حبان عن أنس. (المؤلف). [أخرجه ابن حبان (٣٣٠٩) بإسناد ضعيف].



٥ ـ الصدقات المندوبة

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦ ـ ٢٨].

قيل: إن بعض الصالحين أنفقَ نفقةً في خير، فأكثرَ، فقال له صاحبه: لا خيرَ في السَّرَف. فقال له: لا سَرَفَ في الخير. والتبذيرُ الذي نُهينا عنه هو الإنفاقُ في المعصية، وفيما لا فائدةَ فيه للنفس والمجتمع، وأن الإنسان لو أنفق ماله كلَّه في الحق، أو فيما يعود نفعه على الفرد والمجموع، لم يكن مبذراً، ولو أنفق درهماً واحداً في باطل، أوفي شر، كان من المبذرين.

وقد نَدَبَنا الدين الإسلامي في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز للإنفاق، وأفاد أن الإنفاق في سبيل الله، أو في سبيل الوطن الإسلامي، أو في سبيل المجموعة الإسلامية مما يعود نفعُه على الأمة الإسلامية، أو على الدين؛ كالإنفاق في المدارس، ونشر العلم، والمساجد، ومساعدة الضعفاء، وتصليح الطرق، وإنقاذ الإنسانية من نكبات تصيبها، أو إغاثة لاجىء، أو تأسيس مستشفى، أو نشر صناعة

أو ترقيتها، أو تأسيس شركة أو مصنع، أو نحو ذلك مما يساعد في رفعة الإسلام بلاداً وشعباً: هذا الإنفاق هو قرض لله ـ ومن يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له ـ ، وأقلُّ المضاعفة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف؛ كما قال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

وأفضلُ صدقات النفل ما كانت للأحقِّ، وصدقةُ السر أفضلُ من صدقة الجهر، وكونُها في الأوقات الفاضلة، والأماكن المشرفة أفضلُ منها في غيرها، والقرآنُ الذي حثّ على الإحسان جعلَه بمثابة إقراض لله، وإنما يقترض المحتاج، والله الغنيُّ عن العالمين الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن ومَنْ فيهن غنيٌّ عن أن يقترض من عبده، ولكن جعل للمحتاجين من عباد الله كناية عن نفسه، وجعل تفريج كربتهم دَيْناً عليه، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٤٥]، فأي قيمة لإنسان يبخل بإقراض بعض المال لواهبه الذي سيرده عليه أضعافاً مضاعفة، والله يقبض ويبسط؛ لأن الأمر بيده كله، يصرفه كيف يشاء، وهو يغني، وهو يفقر.

في حديث رواه الترمذي عن عمرو بن سعد الأنماري: أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ثلاثةٌ أقسمُ عليهنَّ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقصَ مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً صبرَ عليها إلا زاده اللهُ

عزاً، ولا فتحَ عبدٌ بابَ مسألة إلا فتحَ اللهُ عليه بابَ فقر. وأحدِّثُكم حديثاً فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة: عبد رزقه اللهُ مالاً وعلماً، فهو يتقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمَه، ويعلم لله فيه حَقّاً؛ فهذا بأفضلِ المنازل، وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً، لعملتُ بعمل فلان؛ فهو بنيته، فأجرُهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمَه، ولا يعلم لله فيه حقاً؛ فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً؛ فهو يقول: لو أن لي مالاً، لعملتُ فيه بعمل فلانٍ؛ فهو بنيته، فوِزْرُهُما سواء»[(١)].

والإنفاق على ذوي الحاجة في الدين الإسلامي هو في الدرجة الثانية من الإنفاق في سبيل الله الذي يدل مفهومه على نصرة الدين، والدفاع عن الدعوة إليه، وقد عدد الله من ذوي الحاجة فئات من الناس هم: ذوو القربى، واليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل، والسائلون، وفي الرقاب، وذكر فضل مَنْ يحسن ويواسي من غير أن يطلب مقابلاً لذلك، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٨ ـ ٩].

ودعا للإنفاق على اليتيم، وجعل القسوة عليه من صفات المكذبين بالدين، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[الماعون: ١ ـ ٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

ويسأل أصحاب النار يوم القيامة عن سبب عذابهم وإدخالهم سقرَ فيقولون: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٤].

وتقول أسماءُ بنتُ الصدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ: قال لي رسولُ الله ﷺ: «لا تُوكِي فيُوكَى عليكِ»[١].

أما من قَلَّت ذاتُ يده انتظاراً لرزقٍ من الله يرجوه أن يأتيه، فليقلْ لمستحقي الصدقة قولاً جميلاً ميسوراً، ومع ذلك، فلا يمسك يده عن سبيل الله والخير، وطرق الخير؛ فيجعلها كالمغلولة لا يستطيع مدَّها.

وأفضلُ الصدقة ما كان نفعُه أكثر، سواء كان نقداً، أو كساء، أو غذاء، أو ماء، وقد ورد في ذلك أحاديثُ كثيرة، **منها**: ما رواه البخاري، ومسلم عن عبدالله بن عمرو بنِ العاصِ ـ رضي الله عنهما ـ: أن رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعمُ الطعام، وتقرأُ السلامَ على مَنْ عرفْتَ، ومن لم تعرفْ»[٢].

ومنها أيضاً: حديثٌ رواه الطبراني عن أنس بن مالك: أن سائلاً سأل رسولَ الله ﷺ، فقال: إن أُمي تُوفيت، ولم توصِ، أفينفعها أن أتصدقَ عنها؟ قال: «نعم. وعليكَ بالماءِ»[٣].

ومنها: حديث ابن ماجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «من

(١) رواه البخاري. (المؤلف). [أخرجه البخاري برقم (١٤٣٣)].

(٢) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٠٦١)، وقال المنذري: «ورواته محتج بهم في الصحيح». انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٢٣).

سترَ عورةَ أخيـهِ المسلمِ، سترَ اللهُ عورتَه يومَ القيامة»[1].

وهذا دليل أيضاً على فضل الصدقة بالكساء، وعلى كلٍّ، فلينظر الإنسان مواضع النفع يتحراها في الفقراء والمساكين والمحتاجين. وحاجاتُ الإنسان كثيرة، وكلما ازدادت الضرورةُ إليها، كان ثوابُها أعظمَ، وكلما كان نفعُها أعمَّ، كان الجزاء عليها أوفر، والله لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً؛ فإذا كانت الفائدة من الإنفاق خاصة، كان لها من الجزاء ما يناسبها، وإذا كانت عامّة إنسانيّة أو دينيّة، ونفعها أعمّ، كـان ثوابهـا كمـا ذكر الله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٦١].

وهـذا الإنفـاق هـو التجـارة الرابحـة التي بينهـا لنـا ربنـا ﷻ بقولـه الكريـم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الصف: ١٠ ـ ١١] إلى آخر الآيات في سورة الصف.

وقد شرط الله علينا ألَاَّ نُتبع ما أنفقنا مَنّـاً ولا أذى؛ فلا نمن بما أعطينا، أو نذكر إحساننا على مَنْ أحسنا إليه، ونظهر فضلنا عليه، أو نذكره لأحد من الناس حباً في الإشاعة.

وجديرٌ بالمسلم ألَاَّ يتأخر عن تنفيذ أمر الله عليه في ماله الذي استودعه إياه؛ فإن المال مالُ الله، استخلَف عليه مَنْ شاء من عباده،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٤)، وابن ماجه (٢٥٤٦)، وإسناده حسن؛ كما قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٩٣ = صحيحه).

ودعاهم إلى ما ينفعهم، وعَيَّنَ جماعة محتاجة إلى المساعدة، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]، وجعل ذلك دَيْناً يستوفونه يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم.

كما أنه لا يجب على المسلم أن يدفع كلَّ ما بيده، بل يحفظ لنفسه ما يحتاج إليه، أو أكثر من حاجته؛ لكيلا يقعد ملوماً محسوراً؛ امتثالاً لأمر الله ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: ٢٩].

كثير من الناس يسأل الصدقة من غير حاجة إليها، وتلك كبيرة من الكبائر تستحق غضبَ الله، وقد ورد في ذم مرتكبِ هذا الإثم كثيرٌ من الأحاديث المشتملة على التهديد والوعيد، من ذلك ما رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ: «مَنْ سألَ الناسَ وله ما يُغنيه، جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتهُ في وجهه خُمُوشٌ وخُدُوش»[(١)]، وفي حديث آخر قوله ـ عليه السلام ـ: «مَنْ فتحَ على نفسِه بابَ مسألة من غيرِ فاقةٍ نزلَتْ به، أو عيالٍ لا يُطيقهم، فتحَ الله عليه بابَ فاقةٍ من حيثُ لا يحتسب»[(٢)]. والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، والطبراني (٣٥٠٤) بنحوه، وحسنه الترمذي.

(٢) رواه البيهقي. (المؤلف). [أخرجه في «شعب الإيمان» (٣٥٢٦)، وهو حديث صحيح. انظر: «صحيح الترغيب» (٧٩٥)].

وعلَّمَنا ربُّنا أن نستر على أنفسنا؛ بأن نتجمل أمامَ الغير حتى لا يرى علينا أثر الحاجة، وقد مدح الله قوماً اتصفوا أمام الناس بهذه الصفة، فقال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣]، ولأنهم ظهروا أمام الناس بما يدل على أنهم غير محتاجين، كما أنهم أخذوا زينتهم عند كل مسجد، وعند كل مجتمع؛ فستروا على أنفسهم، وأظهروا من نعمة الله عليهم ما دلَّ على شكرهم له، والله ﷻ عند حسن ظن عبده به، وقد وعد بأن يزيد مَنْ شَكَرَه، ومَنْ كفرَ فإن الله غني عن العالمين.

❐ ❐ ❐



٦ ـ البخل والاقتصاد والتبذير

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٩ ـ ٣٠].

والبخلُ هو الإمساكُ عن الإنفاق، أو التقتيرُ. والاقتصادُ هو الإنفاقُ في سبيل الخير والمصلحة؛ للعائلة، وللنفس، وللمجموع. والتبذيرُ هو الإنفاقُ فيما لا فائدةَ فيه، وليس من وراء الإنفاق فيه إلا الضررُ والإثم.

وقد حذّرنا الله ﷻ من البخل الذي هو أقبحُ صفات الإنسان، ولأنه مسببٌ لكثير من الأمراض الاجتماعية؛ فهو في الأغنياء يسبب داءَ الحسد في الفقراء، وناهيك بهذين الداءين من مفرق بين القلوب، وهادم للمجتمع، وقد حذّر الرسول ـ عليه السلام ـ أمته من ذلك، فقال ﷺ: «إياكُمْ والشُّحَّ، فإنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بالشّحّ: أمرَهُم بالبخل فبخلوا، وأمرَهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرَهم بالفجور ففجَرُوا» رواه أبو داود عن عبدالله بن عمرٍو[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، وأبو داود (١٦٩٨)، وابن حبان (٥١٧٦)، والحاكم (١٥١٦)، وصحّحه.

وإن البخل يجر إلى معاصي الله، وشرُّها منعُ الزكاة. ومنعُ الزكاة عرضةٌ لانتقام الله وسخطه. فكثير من الناس منعوا القليل، فسلبهم الله الكثيرَ، وأذاقهم الذلةَ بعد العزة، والتعبَ بعد الراحة، والحزنَ بعد المسرة، والفقرَ بعد الغنى؛ فأصبحوا مستحقين لعطف الناس، بعد أن كان يُرجى منهم العطف؛ ولنقرأ قول الله ﷻ: ﴿سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[المدثر: ٤٢ ـ ٤٤]، فإن أمهلهم الله، سلَّطَ عليهم أولادهم، فبذروا أموالهم وبددوها في الحرام؛ وهذا كثير، أو أن الله يبتليهم بعلل أو أمراض ينفقون فيها الأموال الكثيرة للأطباء والصيادلة؛ أضعاف أضعاف ما أوجب الله عليهم من زكاة، فضلاً عن تشتيت أفكارهم، وضيقِ نفوسِهم، وخوفِهم على حياتهم.

والبخيلُ لا يسلم مالُه من أحد شيئين: من حوادث الدهر، وشراهة الوارث؛ فالحادثُ يذهب بماله، فيبقى محروماً محزوناً عليه، والوارثُ ينفقه في معاصي الله، وهو المسؤول عن كل مثقال ذرة، مِمَّ جمعها، ولمَ منعَها، ويحاسَب عليها في يومٍ لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وكثيراً ما نشاهد في هذه الدنيا أن الوارث يبخل على مورِّثه بالقليل اليسير من تَرِكته، حتى إذا قضى حياته المملوءة بالبخل والشح، فسرعان ما يغيبه في التراب غيرَ آسفٍ عليه، حتى يهجم على ماله فرحاً مسروراً بهذا الغنى الجديد، والثروة غير المنتظرة، وما كان غناه إلا بموت صاحبها، فهو فرحٌ بها وإن بكى وناح؛ فعلامَ يرمي الإنسان نفسه

في البلاء، ويمنع زكاة ماله، ويحرم نفسه من لذيذ المأكل، وحسن الملبس، والتمتع بأنعم الله الجسام، ثم يموت وقد أبقى المال الذي حرم منه نفسَه لوارثٍ لا يهتم بشأنه، ولا يعبأ به؟! وربما تخاصم الورثة، فأهلكوا تلك الثروة في مصاريف المحاكمات، ورشوة الحاكمين والقضاة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأعراف: ٣١].

روي أن الحسن البصري دخل ذات يوم على عبدالله بن الأهتم يعوده في مرضه الذي مات فيه، فرآه يُصَعِّدُ بصرَه ويُصَوِّبهُ إلى صندوق في بيته، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا سعيد! ما تقول في مئة ألف دينار في هذا الصندوق لم أُؤَدِّ منها زكاةً، ولم أصلْ بها رحماً؟ فقال الحسن: ثكلتك أُمك، ولمَ كنتَ جمعتها؟ قال: لروعةِ الزمان، وجفوةِ السلطان، وتكاثر العشيرة، ثم مات، فشهده الحسن، فلما فرغ من دفنه، ضرب بيده على القبر، ثم قال: انظروا إلى هذا، أتاه شيطانه، فخوفه روعة زمانه، وجفوة سلطانه بما استودعه الله إياه وعمره فيه، انظروا إليه كيف خرج من هذه الدنيا مذموماً مدحوراً. ثم التفت إلى وارثه، وقال: لا تُخدعن كما خُدع صُوَيْحبك بالأمس؛ أتاك هذا المال حلالاً، فلا يكونَنَّ عليك وبالاً. ثم قال يخاطب الجميع: لم أر أشقى بماله من البخيل؛ لأنه في الدنيا يهتم بجمعه، وفي الآخرة يُحاسب على منعه، غيرَ آمنٍ في الدنيا من همّه، ولا ناجٍ في الآخرة من إثمه، عيشُه في الدنيا عيشُ الفقراء، وحسابُه في الآخرة حسابُ الأغنياء.

ليس المال خيراً لذاته، فلا يصح أن يعبده الناس، ولا هو شر في ذاته، فلا يليق أن يفرَّ منه الناس، وإنما هو واسطة للخير أو للشر؛ فإن أنفقته في مصالحك، أو في منافع أهلك ووطنك ودينك، أتى بالخير على قدر المشروع الذي صرفته فيه، وإن كنزته، أو أنفقته في شهواتك وملذاتك، أو السبل المحرمة، جلبَ الشرَّ؛ فالمالُ إذن آلةٌ إن صادف يداً صالحة، نفعَ وأفاد، وإن صادف يداً آثمة، أهلكَ وأباد.

روى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «نشرَ اللهُ عبدين من عباده أكثرَ لهما من المال والولد، فقال لأحدِهما: أيْ فلانُ بنَ فلان! قال: لَبَّيْكَ ربِّي وسعدَيْك. قال: ألمْ أكثرْ لك من المال والولد؟ قال: بلى أَيْ ربِّ. قال: وكيفَ صنعتَ فيما آتيتُك؟ قال: تركتُه لولدي مخافةَ العَيْلة. قال: أما إنك لو تعلم العلم، لضحكت قليلاً، ولبكيت كثيراً، أما إن الذي تخوَّفْت عليهم قد أنزلت بهم. ويقول للآخر: أيْ فلانُ بنَ فلان! فيقول: لبيك أيْ ربِّ وسعديك. قال: ألم أكثرْ لكَ من المال والولد؟قال: بلى أيْ ربِّ. قال: فكيفَ صنعتَ بما آتيتُك؟ قال: أنفقتُ في طاعتك، ووثقت لولدي من بعدي بحسن طَوْلِك. قال: أما إنك لو تعلمُ العلمَ، لضحكت كثيراً، وبكيت قليلاً، أما إن الذي وثقتَ به قد أنزلتُ بهم»(١).

وهذا مثل من أمثال النبوة، فيه دليل على أن من أحسنَ الظن بالله،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٣٨٣)، و«الصغير» (٦٠٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٣٠٧): «وفيه يوسف بن السفر، وهو ضعيف».

كـان اللهُ عنـدَ حسن ظنـه بـه، ومـن أسـاء الظـن بالله، كـان الله عنـدَ سـوء ظنـه بـه.

والذين يمتدحون المال ويتعشّقونه، ويتهالكون في جمعه، ويتكاثرون به، ويقبضون أيديهم عن صرفه، هم جَهَلَـةٌ آثِمون، كما أن الذين ينامون عـن السعي فـي سبيل المـال كُرْهـاً له، وأَنَـفَةً من جمعه، وزهـداً فيـه، وينفِّـرونَ النـاسَ عـن السـعي فـي طلبـه، وعـن العمـل والكسب، هم جُبناء ومقصرون.

والقعودُ عن تحصيل المال عجزٌ وخَوَر؛ لأن المال عصب الحياة، بل دمُها الذي يجري في عروقها، ولا حياةَ بلا دم، ولا خير في جسم ليس فيه عَصَب، وخيرُ الأمور الوسط، فلا هذا، ولا ذاك. اجمعِ المالَ، واسعَ في طلبه، ولا تتهالكْ، ولا تُكاثر، ولا تقبضْ يدك. اجمع المالَ وأنفقْه في صالحِك، وصالحِ دينك، وصالحِ وطنك الإسلامي، وأمتك الإسلامية؛ تعشْ سعيداً محبوباً، وتكنْ عضواً في جسد قوي، ولَبِنَةً في بناء متماسِك، ونِعْمَ المالُ الصالحُ للرجل الصالح، وأما البخلُ أو الشحُّ، فمن مهلِكات الأمم، وأما العجزُ والبؤس، فمضعف للهمم، مفسدٌ للذمم، ووطنٌ لا مال له تسوء أخلاق أهله، ويكثر فيه الفساد والسرقة، ويقلُّ فيه الأمن.

والوطن الذي يكثر فيه المال، وينتشر فيه البخل، تتفكك وحدتُه، وتتفرق قلوبُ أهله، بخلاف الوطن الذي يكثر ماله، ويجود أهلـه، فإنـك تراهـم متماسكيـن متحديـن؛ يسعى غنيهـم لفقيرهـم، ويتفانى فقيرهم في حب غنيهم.

روى الترمذي، والبيهقي في حديثهما عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «السخيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ عن النار، والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة، قريبٌ من النار، ولَجاهِلٌ سَخِيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيلٍ»[1]؛ لأن البخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد فيها، فمن تصدق بما تيسر منه، أجاب نداء الله وعظَّمه، واتبع سنةَ نبيه واحترَمَه، وأظهر الشفقة على الفقراء من خلق الله، وواساهم بماله؛ فهو قريب من رحمة الله؛ لأنه امتثل أمره، قريبٌ من الناس؛ لأنه أحسنَ إليهم، فأحبوه واحترموه.

أما من شَحَّ بماله، كان على العكس من ذلك؛ ولهذا كان السخي أحبَّ إلى الله من البخيل؛ لأنه رقيقُ القلب، ليّنُ الجانب، رحيمٌ بالمخلوق، سريعُ الانقياد لما يؤمر به، بخلاف البخيل.

ومن طرق الاقتصاد التي علَّمنا إياها نبينا ﷺ قولُه: «أَقِلَّ من الدَّيْن تَعِشْ حُرًّا»[2]؛ أي: إنّ على الإنسان أن يوازن بين كسبه وإنفاقه، فلا يدع نفسه تحتاج إلى الدَّين فيعتاده، ثم تتراكم عليه الديون، فيكون عبداً للدائنين، والدَّين هَمٌّ بالليل، وذلٌّ في النهار.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٥٢، ١٠٣٥٧)، وقال الترمذي: «غريب»، وضعّفه البيهقي.

(٢) رواه البيهقي عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٥٥٧)، وقال: «في إسناده ضعف»].

ومن وصاياه ـ عليه السلام ـ قوله: «من باعَ منكم داراً أو عَقاراً، فليعلمْ أنه مالٌ قمن ألاَّ يُباركَ فيه إلا أَنْ يجعلَه في مثِله» رواه الإمام أحمد عن سعيد بن حريث[1].

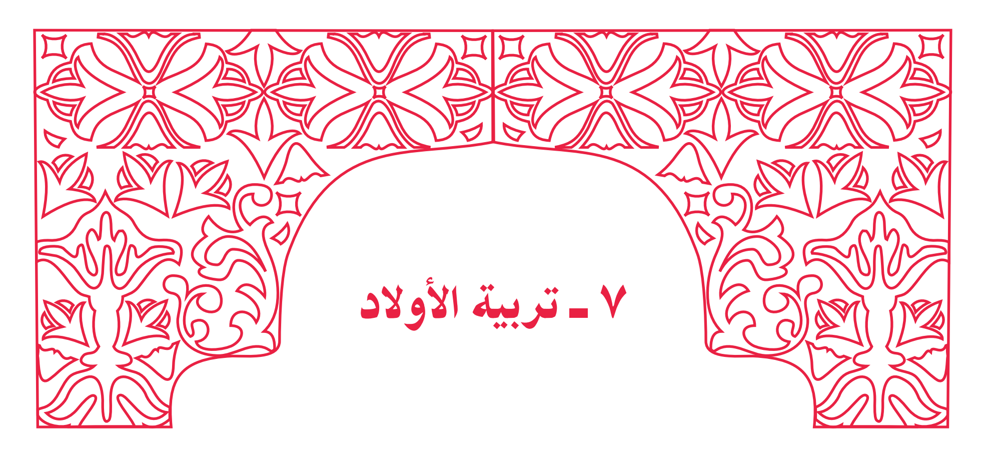
ومنها قولُه ﷺ: «ما عالَ مَنِ اقتصدَ»[2]؛ أي: ما افتقرَ من وازنَ بين كسبه وإنفاقه.

وفي الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] خيرُ منهج للموظف المحدود الدخل، فإنه يكون قيماً عادلاً بين ما يقبض، وبين ما ينفق. أما من كبرت عائلته، وقل دخلُه، واستدانَ أملاً بالله، محسِناً الظنَّ به؛ فأرجو أن يكون اللهُ عندَ حسنِ ظنه، ومن كانَ مع الله، كانَ اللهُ معه.

❐❐❐

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٧)، وابن ماجه (٢٤٩٠)، وهو حديث حسن. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٢٧).

(٢) رواه أحمد عن ابن مسعود. (المؤلف). [أخرجه أحمد (١/ ٤٤٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠١١٨)، وفي «الأوسط» (٥٠٩٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٤٣): «وفي أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف».



٧ ـ تربية الأولاد

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٣١].

وكانوا في الجاهلية يقتلون البنات خوفاً من العار، أو خوفاً من مشاركتهم في المعيشة؛ معتقدين أن البنت عالة، لا تحمل سلاحاً، ولا تقاتل محاربة أو مهاجمة. فالله ﷻ بين أن الرزاق هو الله، وأن قتل الأولاد لا يجلب غنى، ولا يدفع فقراً، وأن قتلهم إثم كبير وشرر عظيم.

إن الولد ثمرة الحياة، وأمل العائلة، والغاية المقصودة من الزواج، فهو ريحانة البيت، بل بركته كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «بيتٌ لا صِبيانَ فيه لا بركةَ فيه»[(١)]، وقوله ﷺ: «ريحُ الولدِ من ريحِ الجنة»[(٢)].

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتابه «الثواب» عن ابن عباس بإسناد ضعيف. (المؤلف). [انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٣٥٨)].

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس. (المؤلف). [أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٨٦٠)، وفي «الصغير» (٨٢٣)، وضعّفه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٨٦)].

وكلمة الولد تشمل الذكر والأنثى.

والله ﷻ الذي خلقكم، وخلق أولادكم تكفَّل بأرزاقكم، وتكفَّل بأرزاقهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، فالله ﷻ جعل الأمور كلَّها مقرونة بمشيئته، وإن عملك أيها الإنسان لا يرد قضاء ولا قدراً، وإذا وقع شيء منها، وقع قضاء وقدراً.

إن الله ﷻ أوجب على الولد بِرَّ والديه، والقيامَ بحقوقهما، وأوجب على الأبوين بر أولادهما، والقيام بحقوقهم، فكما للوالد على الولد الإحسانُ والبر والطاعة، فعلى الوالد للولد إنفاقٌ وتربيةٌ وتعليمٌ يكفل المستقبلَ للولد.

وأولُ الواجبات شكرُ الله ﷻ على نعمته التي أنعمها على مَنْ شاء من خلقه؛ حيث قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[الشورى: ٤٩]، فجعل الأولاد هبةً منه لمن شاء من خلقه، وشكرُ هذه الهبة امتثالُ أمره، والقيامُ بما افترض على الآباء من واجب التربية والإنفاق والعناية؛ فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ حَذَّرَ من إهمال الأولاد، والتفريطِ في تربيتهم، وعدَّها جناية من أكبر الجنايات، فقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦]، وقال ﷺ: «أَكْرِمُوا أولادكُم، وأَحْسِنُوا آدابَهم»[(١)]؛ لأن الولد هديةُ الله إليك، وهبتُه، وهديةُ مَنْ هو أجلُّ منك لك يجب عليك أن تقبلها

---

(١) ابن ماجه عن أنس. (المؤلف). [أخرجه ابن ماجه (٣٦٧١)، وضعّفه البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٢١١)].

بفرح، وتعتني بها، وتحافظ عليها، بخلاف التفريط فيها؛ فإن ذلك موجبٌ لغضبه، ولاسيما إذا كان مطلعاً عليك؛ يعلم سرك وجهرك، ولا تخفى عليه خافية منك.

روى البيهقي عن أبي رافع، عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: أنه قال: «حقُّ الولدِ على الوالدِ: أن يُعَلِّمه الكتابةَ والسّباحةَ والرّمايةَ، وألاَّ يرزقه إلاَّ حلالاً طيّباً»[1].

وقد كانت هذه أهمَّ علوم الشبان يومئذ، وأما اليوم، فقد تبدلت الأوضاعُ، واختلفت الأحوالُ، وحدثت علومٌ، وانقرضت علومٌ، وظهرت اختراعات، وهلكت اختراعات، وتغير الزمن؛ فوجب على الآباء أن يعلِّموا أولادَهم جميعَ ما هم في حاجة ماسة إليه، حتى يكفلوا مستقبلهم، وحينئذ يبرأ الأب أمام الله، ويكون حظه كما قال الشاعر:

وَعَلَـــيَّ أَنْ أَسْـــعَى وَلَيْـــ ـــسَ عَلَـــيَّ إِدْرَاكُ النَّجَـــاحِ

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: أنه قال: «خَلِّقوا أولادكم بغيرِ أخلاقكم؛ فإنهم خُلقوا لزمانٍ غيرِ زمانِكم»؛ فرضيَ الله عنكَ يا عمر، لقد قدرت حقَّ الاختلاف الزمني بين زمن الأب وابنه، وهو جيل واحد، فكيف يكون التقدير بين زمنك وزمننا هذا؟! إنها كلمة تسير مع الزمن، لا تنتهي حتى ينتهي.

أرشدَ الشارعُ ـ عليه السلام ـ أن واجب الأم العكـوفُ على تربية

(١) أخرجه البيهقي (١٩٥٢٦)، وقال: «هذا حديث ضعيف».

أولادها؛ لأنها أولى من الرجل في ذلك؛ فهي تسعى في شؤونهم، وتقوم بتغسيلهم وتنظيفهم، ومداواتهم، وحياكة ثيابهم، وتهيئة الطعام لهم، وتعليمهم مبادىء العلوم إن كانت ممن يحسن العلم، ولهذا قال ﷺ: «أَيـُّما امرأةٍ قعدتْ على بيتِ أولادِها، فهي معي في الجنّة»[(١)] بينما على الأب مراعاتُهم، وأن يسعى لكسب الرزق، والإنفاق في شراء المأكل والملبس ومصاريف التعليم، وكل مصرف يفضي لتربية الأولاد.

واجبُ الأبوين أن يعدلا بين الأولاد؛ لأن الله يحبُّ العدل في كل الأمور: واجب عليهما أن يعدلا في العطاء والتعليم، والكساء والإنعام، وفيما كبر أو صغر من شؤونهم؛ حتى في القُبلة؛ لأن إيثار بعضهم على بعض يولِّد بينهم التحاسدَ، والتحاسدُ يجرُّ إلى التباغُض، وأَعْظِمْ بهما من هادِمَين للبيوت، مشتتين للعوائل، مفرِّقينِ بين الإخوان!

وكم رأينا من عوائل، وشاهدناها، وسمعنا عنها، هلكت ثروتها، وتشتت شملُها بسبب البغضاء التي زرعها الآباء في الأبناء، ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ اللهَ يحبُّ أن تَعْدِلوا بينَ أولادِكم حتّى في القُبَل»[(٢)]، ويقول أيضاً ﷺ: «ساوُوا بينَ أولادِكم في

(١) رواه الطبراني، وابن عساكر عن ابن عباس. (المؤلف). [أخرجه ابن بشران في «الأمالي» (٨٦٩)، وأبو عبدالله الدقاق في «مجلس في رؤية الله» (٨٦٨)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٤٧٣)].

(٢) رواه ابن النجار عن النعمان بن بشير؛ كما في «كنز العمال» (١٦/ ٦٠٢)، وهو منكر بهذا اللفظ. انظر: «التلخيص الحبير» لابن حجر (٣/ ٧٢).

العطيّة، فلو كنتُ مفضّلاً أحداً، لفضَّلْتُ النساءَ»[1]؛ لأن النساء أحقُّ بالرحمة، وأجدرُ بالعطاء، وهنَّ للبرِّ واللطفِ أحوجُ من الذكور، ولكنه ﷺ خشيةَ التنافس نهى عنه، وخشية أن يحقد الأبناء على أبيهم، أو يحسد الأولادُ بعضُهم بعضاً حَذَّرَ منه، وأن الأب مأمور أن يُعين ولده على بره، وألاَّ يجعل لشيطان العقوق طريقاً إلى قلب ولده؛ فقد قال ﷺ: «رحمَ اللهُ والِداً أعانَ ولدَه على بِرِّه»[2]، وقال أيضاً: «أعينوا أولادكُم على البِرِّ، من شاءَ استخرجَ العقوقَ من ولده»[3]؛ فبهذا نبه ﷺ أن بيد الوالد عقوق ولده له وبره، وأنه قادر أن يعين ولده على بره، كما أنه قادر أن يعينه على عقوقه؛ كأن يفضل أخاه عليه بوصية، أو عطية، أو إطراء، أو ابتسامة، أو اصطحاب في سفر، أو تولية على عمل، أو ما شابه ذلك؛ فليكن الأب عادلاً حكيماً، وإلاَّ جَرَّ على نفسه وبالاً يلحقه إلى قبره.

روى الترمذي، والحاكم عن عمرو بن سعيد، عن النبي ﷺ: أنه قال: «ما نَحَل والدٌ ولداً من نَحْل أفضلَ من أدبٍ حَسَنٍ»[4]؛ مثل أن

---

(١) أخرجه الطبراني (١١٩٩٧)، والبيهقي (١١٧٨٠)، وضعّفه ابن الجوزي في «التحقيق في أحاديث الخلاف» (٢/ ٢٢٩).

(٢) رواه أبو الشيخ عن علي. (المؤلف). [أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٤١٥)، وهنّاد في «الزهد» (٩٩٥) عن الشعبي مرسلاً، وهو حديث ضعيف؛ كما في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٩٦)].

(٣) رواه الطبراني عن أبي هريرة (المؤلف). [قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٤٤١): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه من لم أعرفهم»؛ فالحديث ضعيف].

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٧٨)، والترمذي (١٩٥٢)، والحاكم (٧٦٧٩)، وحكم عليه الذهبي في «تلخيص المستدرك» (٤/ ٢٩٢) بأنه مرسل ضعيف.

يعلمه كيف يأكل، وكيف يشرب، وكيف يعامل الناس، وكيف يسعى لعيشه بينهم، ويعلمه حسنَ العشرة معهم بما يناسب الزمان والمكان، وما يجب عليه لربه، وما يجب عليه لوالديه، ولنفسه، وللناس أجمعين. ويقول ﷺ: «إنّما سمّاهم اللهُ الأبرارَ؛ لأنّهم بَرُّوا الآباءَ والأمّهاتِ والأولادَ، كما أنّ لوالديكَ عليكَ حقًّا كذلكَ لولدِك» رواه الطبراني[1].

وإن صلاح الأبناء وتربيتهم الصالحة تنفع الآباء، ويجري ثوابها لهم بعد موتهم، ولهذا يقول ﷺ: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ، انقطعَ عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»، وقال أيضاً ﷺ: «إنَّ الرجلَ تُرفع درجتُه في الجنة، فيقول: أنى لي هذا؟ فيقال له: باستغفارِ ولدِك لك» رواهما ابن ماجه وغيره عن أبي هريرة[2].

على الوالد أن يكون نموذجاً صالحاً لولده، وأن يتجنب أمامه فعلَ كلِّ قبيح؛ لأن الولد دائماً يقلد أباه؛ فوجب على الأب أن يكون أمام ولده مثالاً طيباً للأعمال الصالحة، والأخلاق

(١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٨): «وفيه عبيد الله بن الوليد الوصّافي، وهو ضعيف».

(٢) أما الحديث الأول: فأخرجه مسلم (١٦٣١)، وهو عند ابن ماجه (٢٤١) بلفظ: «خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يعمل به من بعده». وأما الحديث الثاني: فأخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩)، وابن ماجه (٣٦٦٠)، وحسّن إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٦٦).

الجميلة؛ ليشبَّ الولدُ صالحاً ذا خلق كريم، وأما الحنُّو على الولد، والرأفة به، والصبر على ما يبدو منه من غباء وطيش ودواعي صبوة، فأمرٌ طبيعي في الآباء، أودَعَه اللهُ في جميعهم، إلا مَنْ ندرَ منهم، ولا عبرَة للنادر.

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ: أن الأقرعَ بنَ حابِسٍ رأى رسولَ الله ﷺ يُقبل ولديه الحسنَ والحسين، فقال له: إن لي عشرةً من الولد ما قبلتُ أحداً منهم. فقال ﷺ: «من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم»[1].

وروى البخاري عن عائشة، قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: «أوَ أَمْلِك لكَ أن نزعَ اللهُ من قلبكَ الرحمةَ!»[2].

وروى الترمذي عن عمر بن عبد العزيز، قال: زعمت المرأة الصالحة خولةُ بنتُ حكيم أن النبيَّ ﷺ خرج ذات يوم وهو محتضنٌ أحد ابني ابنته وهو يقول: «إِنَّكُم لتُبْخِلون، وتُجْبِنون، وتُجْهِلون، وإنّكم لمن ريحانِ الله»[3].

كثيرٌ من الناس يحزن إذا رُزق بالأنثى، وهذه خَصْلة ذميمة عيَّر اللهُ مرتكبيها وذمَّهم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٩)، والترمذي (١٩١٠)، وأعلّه بعدم سماع عمر بن عبد العزيز من خولة؛ فهو منقطع لا يصحّ.

﴿مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[النحل: ٥٨]، والإنسان لا يعلم أين يكون الخير، مع أن الكلَّ عطيةُ الله، ومما قاله ﷺ: «لا تَكْرَهوا البنات؛ فإنّهنَّ المؤنساتُ الغاليات»[(١)].

كما أن النبيَّ ﷺ أفادَ بأن تربية البنت أعظمُ ثواباً وأكثرُ أجراً من تربية الابن، وأن رزقها أوفرُ من رزقه؛ فقد روى البخاري، ومسلم، والترمذي عن عائشة، قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي غيرَ تمرةٍ واحدة، فأعطيتُها إياها؛ فقسمَتْها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبيُّ ﷺ، فحدثته، فقال: «مَنِ ابْتُلِيَ من هذهِ البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْراً من النارِ»[(٢)].

ومن أحسنِ ما قيل في الولد قولُ الأحنف بن قيسٍ لمعاويةَ لما سأله: ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين! ثمارُ قلوبنا، وعمادُ ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماءٌ ظليلة، وبهم نصولُ على كل جليلة، فإن طلبوا، فأعطِهم، وإن غضبوا، فأَرْضِهم، يمنحوك ودَّهم، ويُحبوك جهدَهم، ولا تكنْ عليهم قفلاً ثقيلاً، فيملُّوا حياتك، ويودُّوا وفاتَك، ويكرهوا قربَك.

أما الشاعرُ ابنُ المعلّى، فيقول:

لَوْلاَ بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ الْقَطَا ... رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضِ

---

(١) رواه أحمد عن عقبة بن عامر. (المؤلف). [وهو حديث صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠٦)].

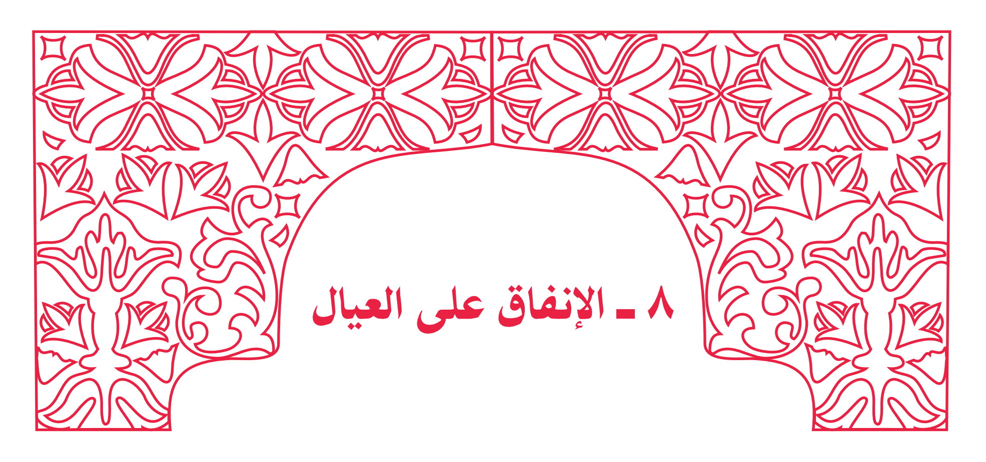
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٢٩)، والترمذي (١٩١٥).

لَكَــانَ لِــي مُــضْطَرَبٌ واسِــعٌ   في الأَرْضِ ذاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ

وَإِنَّـــمَا أَوْلاَدُنَـــا بَـيْـنَـــنَا   أَكْبَادُنَــا تَمْــشِي عَلَــى الأَرْضِ

لَــوْ هَبَّـتِ الـرِّيحُ عَلَـى بَعْـضِهِمْ   لاَمْتَنَعَــتْ عَيْنِــي عَــنِ الْغَمْــضِ

❐ ❐ ❐



٨ ـ الإنفاق على العيال

قال الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾[الإسراء: ٣١].

وعيالُك هم أهلُ بيتك، وكلُّ عاجز تحتَ كنفك ممن أوجب الله عليكَ الإنفاقَ عليه؛ كالأولاد، والزوجة، والوالدينِ، والإخوة والأخواتِ الذين لا يستطيعون الكسبَ.

والإنفاقُ على العيال أعظمُ أجراً حتَّى من الإنفاق في سبيل الله، بدليل ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دينارٌ أنفقْتَهُ في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رَقَبَة، ودينارٌ تصدّقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلك، أعظمُها أجراً الذي أنفقتَهُ على أهلِكَ»(١).

فليعتبرْ ذلكَ البخلاءُ الذين يقتِّرون على أطفالهم ونسائهم، وقد أغناهم الله، وأمدَّهم بواسع فضله، ووسَّعَ عليهم برزقه، وليعتبرْ ذلك المبذِّرون الذين يبخلون على أهليهم بما يقوم بأَوْدِهم، ويهملونهم وشؤونهم، وينفقون أموالهم في سبيلٍ ليس لهم من وراء الإنفاق فيها

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٥).

إلا الوزرُ أو السمعةُ السيئة ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٧].

روى البخاريُ ومسلم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أنفقَ المسلمُ نفقةً على أهلِه وهو يحتَسِبُها، كانت له صدقةً»[(١)]؛ يعني: أن الرجل إذا أنفق نفقة على أهله امتثالاً لأمر الله، واحتساباً لما عند الله، وأنفقَها بصدق ومحبة، وإخلاص نيةٍ، كان له أجران: لاكتسابه تلك النفقة أجرٌ، ولإنفاقه إياها أجرٌ آخرُ، والله عز وجل لم يكلفنا في الإنفاق شططاً، بل قال لنا: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٧].

إنه يقول: من وسّع اللهُ عليه في رزقه، فعليه أن يُرَفِّه عن عائلته، ويوسِّعَ عليهم بالإنفاق عليهم، ويُعِدَّ لَهُمْ من وسائل الراحة والهناء مالا يضرُّ في دينهم وصحتهم، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ليسَ مِنَّا مَنْ وَسَّعَ اللهُ عليه، ثم قَتَّر على عيالِهِ»[(٢)].

أما من ضاق رزقُه، وقلت ذاتُ يده، فلينفقْ حسبَ استطاعته، ولا يكلفْ نفسَه شططاً؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[الطلاق: ٧].

وإذا احتسب الإنسانُ النفقةَ، ولم يضيق على عياله، بل أنفق

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥١)، ومسلم (١٠٠٢).

(٢) رواه الديلمي عن جبير بن مطعم (المؤلف). [وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١١٩١)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «السلسلة الضعيفة» (٤٣٩٣)].

حسب سعته، وحسب طاقته، امتثالاً لأمر ربه، فإن الله لا يخلف وعده له بأن سيجعلُ له من بعد عسر يُسراً.

روى الطبراني عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ: «شَرُّ الناسِ المُضَيِّقُ على أهلِهِ»[1].

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ يوم يصبحُ العباد إلا مَلَكان ينزلان، فيقولُ أحدهما: اللّهمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقولُ الآخر: اللّهمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[2].

وهذا يؤيده قولُ الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وإذا أنفق الإنسان على أهله في مأكلهم وملبسهم وراحتهم، فقد كفاهم شرَّ التطلُّع إلى ما في أيدي الناس، وإلى ما على ظهور الناس، وكفاهم شرَّ الحاجة إلى الناس، ولهذا قال ﷺ في حديث رواه الحاكم وغيرُه عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أنفقَ الرجلُ على أهله كُتب له صدقة، وما وَقَى به المرءُ عرضَه، كُتب له صدقة، وما أنفق المؤمنُ من نفقة، فإن خَلَفَها على الله، واللهُ ضامن، إلا ما كان في بنيانٍ أو معصيةٍ»[3].

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٨)، وضعّفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (١٠١)، والحاكم (٢٣١١)، وضعّفه الذهبي في «تلخيص المستدرك» (٢/ ٥٧).

والله ﷻ وعد هذا المنفقَ على أهله، أو على ما يقي به عرضَه بأن يخلف عليه. أما إذا أنفق في معصية، فقد أثمَ بعصيان الله تعالى، أو إذا أنفق في بنيانٍ زائدٍ عن حاجته، أو عن قدره؛ ليتطاولَ به على الناس، أو يتباهى به أمامَهم، فهذا أنفقَ وليس له على الله وعدٌ ولا عهدٌ، بل ربما دخل في زمرة المبذرين ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[الإسراء: ٢٧]؛ كما قال ربنا ـ جل شأنه ـ.

وروى ابن حبان عن أنس بن مالك ﷺ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إنَّ اللهَ سائِلٌ كلَّ راعٍ عَمَّا استرعاهُ، حفظَ أَمْ ضَيَّعَ، حتّى يسأل الرجلَ عن أهلِ بيتِه»[1]؛ أي: إنه يسأل عن تربيتهم ورعايتهم، وإنفاقه عليهم، وهل يَسَّرَ عليهم وقتَ ميسرته، أم قَتَّرَ، ويؤيد ذلك قولُه ﷺ: «كُلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته، الإمامُ راعٍ ومسؤولُ عن رعيّته، والرجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عن رعيّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيّتها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيّده ومسؤولٌ عن رعيّته، وكُلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته» روى هذا الحديث البخاري، ومسلمٌ عن ابن عمر[2].

وتبين لنا منه: أن الرجل في أهله راعٍ؛ كما أن الحاكم في حكومته راع مسؤول عن رعيته: في عدله فيهم، ورعايته لهم، وحفظه إياهم، وكما أن المرأة راعية في بيتها، وفي نفسها، وفي مال زوجها،

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

وفي تربية أولادها، وفي شؤون بيتها، كذلك الرجل مسؤول عن رعيته الذين هم أولادُه وزوجتُه، ومَنْ كانوا تحت رعايته ـ ممن تلزمُه نفقتُهم ـ في كل ما يتعلَّق بشؤونهم حسبَ حالته المالية من سَعَة أو ضيق، ولا يكلفُ الله نفساً إلا ما آتاها، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يستطيع ذو دِينٍ ووجدانٍ أن يهمل أمر رعيته؟

إن الله امتنَّ على الرجل بأن جعله قَوَّاماً على بيت يضمُّ بين جدرانه زوجةً وبنينَ وبنات، وجعل هذه الرعية كإمارة صغيرة، سيطره عليها ليصرفها حسبما أمرَه فيها، بأن يأمر وينهى بالمعروف، وبأن يعدل ويحسن ويؤدب؛ فواجبٌ على ذي الدِين أن يشكر الله على هذه النعمة، ولكن هناك قومٌ لئام أهملوا أمرَ هذه الإمارة الصغيرة، وذهبوا ملبين نداءَ الشيطان، أهملوا النساء، وأهملوا الصغار، وأهملوا الكبار، وربما وصلت بهم الخسةُ إلى أن أهملوهم حتى في الإنفاق عليهم؛ ولهذا أخبرنا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث رواه أبو داود عن عبدالله بن عمرو: «كَفَى بالمرءِ إثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ». وفي رواية: «كَفَى المَرْءَ لؤماً أَنْ يضيّع مَنْ يَعُول»(١).

وهذا الحديث خاصٌّ بمن كان له مال، فترك أهلَه ولا مالَ لهم، أو تركهم وهو يستطيع الكسبَ للإنفاق عليهم. أما إذا لم يكن له مالٌ، ولم يكن لـه كسبٌ، وإنما تركهم متألماً مـن حالهم التي هم فيها، أو

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (١٦٩٢)، وهو عند مسلم (٩٩٦) بلفظ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمّن يملك قوته».

تركهم باحثاً عن رزق لهم؛ فهذا لم يأثم، وإنما خرج في سبيل الله.

نـوَّهَ ﷺ بشأن العمل، والسعي على النفس وعلى العائلة بحديث رواه الطبراني عن كَعْب بنِ عُجْرَة يفيد: أنه ﷺ كان جالساً ذاتَ يوم في نفر من أصحابه، إذ نظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، وقد بَكَّر يسعى، فقالوا: وَيْحَ هذا! لو كان شبابه وجَلَدُه في سبيل الله! ـ أي: في الجهاد، أو الطاعة البدنية ـ، فقال ﷺ: «لا تقولوا هذا؛ فإنّه إن كان خرجَ يسعى على نفسِه لِيُعِفّها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ يسعى على ولدِه صغاراً، فهو في سبيلِ الله، وإن كان خرج يسعى على أبوينِ شيخينِ كبيرينِ، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيل الشيطان»[1].

وهذا الحديث يؤيده حديث آخرُ رواه البخاري، ومسلم يفيد أن رجلاً جاء يستأذن النبيَّ ﷺ في الجهاد، فقال ﷺ: «أَحَيٌّ والداكَ؟»، قال الرجل: نعم، قال ﷺ: «ففيهما فجاهد»[2]؛ أي: إنك إذا أنفقت عليهما، ورعيت حقهما، فلك أجرُ مجاهدٍ في سبيل الله.

ومما ورد في فضل النفقة على الصدقة عندَ الحاجة إلى النفقة: أن رجلاً من بني عُذْرَةَ أعتق عبداً له عن دُبُـرٍ (أي: أعتقه بعد موته، أو قال: عبدي هذا حُرٌّ بعدَ وفاتي)، وكان لا يملك غيرَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «ألكَ مالٌ غيرُه؟»، فقال: لا. فقال: «مَنْ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٨٢)، وفي «الأوسط» (٦٨٣٥)، وفي «الصغير» (٩٤٠)، وهو حديث صحيح. انظر: «صحيح الترغيب» (١٦٩٢، ١٩٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩).

يشتريهِ مني؟»، فاشتراه نعيمُ بنُ عبدالله العدويُّ بثمان مئة درهم، فجاء بها إلى النبي ﷺ، فدفعها إليه، ثم قال: «ابدأْ بنفسِك فتصدَّقْ عليها، فإن فَضَل شيءٌ، فلأهلك، فإن فَضَل عن أهلك شيءٌ، فلذي قرابتك، فإن فَضَلَ عن ذي قرابتك شيءٌ، فهكذا، وهكذا»[(١)] ـ يعني: أنفقْ على المحتاجين ممَّن حولك ـ، ومعناه: أن رسول الله ﷺ باع العبد، وأعطى ثمنه إلى الرجل، فقال: ابدأ بنفسك، ثم أنفق ما فضل بيدك على أهلك وذوي قرابتك، وإن زاد شيء، فتصدقْ به، أما أنه يأخذ الدراهمَ فينفق منها، ويتصدَّق بما بقي، ويبقى خاويَ الوِفَاض صفرَ اليدين، فلا.

وعلى رئيس العائلة أَلاَّ يكون شيطاناً على عائلته، سبعاً ضارياً على أهله، فيَمُنَّ عليهم بالإنفاق، ويعدد عليهم مآثره فيهم، بل عليه أن يترك الغلظة، ويُحسن المعاملة، ويشكرهم على ما يقومون به من شؤون كلفوا بها للعائلة والبيت، ويلتزم الرفق، ويكون من خير الرجال الذين مدحهم الرسول ﷺ بقوله: «خيرُ الرّجالِ من أمّتي الذين لا يتطاولون على أَهْليهم، ويُحسنون إليهم ولا يظلمونهم»[(٢)]؛ فإنه حينئذ يكون محبوباً مألوفاً، يتمنون ساعةَ دخوله عليهم، وجلوسه معهم.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ من أكملِ المؤمنين إيماناً أحسنَهم خُلُقاً، وأَلْطَفُهم بأهلِه» رواه الترمذي، والحاكم عن عائشة[(٣)].

---

(١) رواه النسائي عن جابر بن عبدالله. (المؤلف). [أخرجه النسائي (٢٥٤٦)، وهو في مسلم برقم (٩٩٧)].

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٩٩)، والترمذي (٢٦١٢)، والحاكم (١٧٣)، وأعلّه الذهبي =

ومن الأحاديث الواردة في فضل القيام بشؤون البنات والإنفاق عليهن قولُه ﷺ: «مَنْ كُنَّ له ثلاثُ بناتٍ يُؤَدّبهنَّ ويرحَمُهُنّ ويَكْفُلُهُنّ، وَجَبَتْ لهُ الجَنَّةُ البتّةَ»، قيل: يا رسولَ الله! فإن كانتا اثنتين؟ قال: «وإن كانتا اثنتين»، فرأى بعضُ القوم أن لو قال: واحدة، لقال: واحدة. رواه أحمد عن جابر[1].

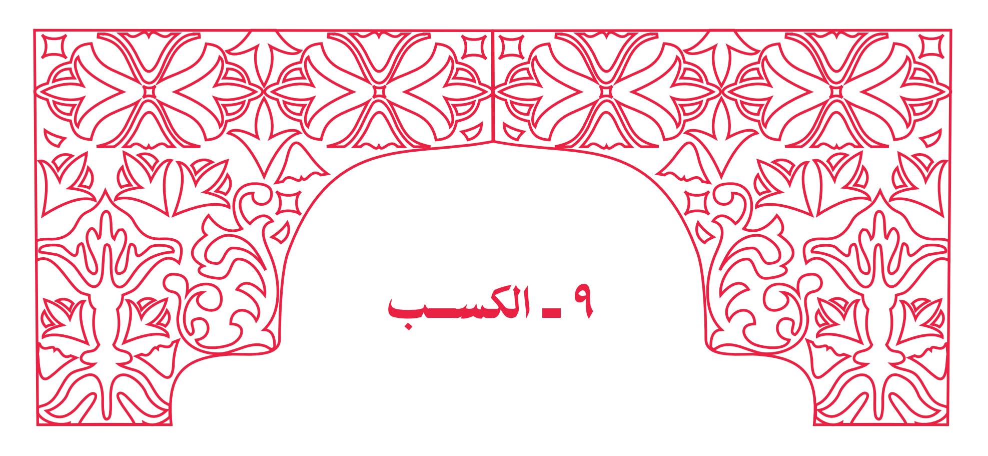
ومما ورد أيضاً في هذا الباب قوله ﷺ: «خِيارُكُم خيارُكُم لنسائِهم وبناتِهم» أخرجه ابن ماجه عن ابنِ عمرٍو[2].

❐❐❐

= في «تلخيص المستدرك» (١/ ١١٩) بالانقطاع.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٣)، وإسناده جيد؛ كما قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٠٦ = صحيحه)، ولكن فيه: «يؤويهن» بدل «يؤدبهن».

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٧٨)، وهو عند الترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة، ولكن ليس فيه: «وبناتهم»، ولم أجد هذه اللفظة عند غيرهما. والحديث صحّحه الترمذي وغيره.



٩ ـ الكسب

قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[الإسراء: ٣١].

لا يوجد بين واجبات النفس واجبٌ أعزمُ وآكدُ على المرء من واجب السعي والعمل للمعاش، والله ﷻ يقول: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[الإسراء: ٣١]، إنما الرزق يحتاج إلى سعي، والسعي واجب؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة: ١٠]، أمرنا بعد تأديتنا الصلاة التي هي الواجب الرباني على المرء أن ننتشر في الأرض، ونسعى فيها ابتغاءَ فضل الله تعالى ورزقه، ولكن على شرط أَلاَّ ننسى ذكرَ خالِقنا ورازقنا في أثناء عملنا في طلب أرزاقنا بأي سبب من الأسباب، من تجارة أو أداء عمل؛ فإننا بذكر الله تخشع قلوبنا، ونتجنب ما نهانا عنه ربنا، كما أن ذكر الله سببٌ للبركة التي ليس لنا غِنًى عنها.

والرجلُ هو المسؤول عن قوتِ عياله؛ فاشتغل بالزراعة والتجارة والصناعة والوظيفة والحرف، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف: ٣٢]. قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ العبدَ المؤمنَ المحترفَ»[١].

وقال أيضاً: «مَنْ أَمْسى كالاًّ من عملِ يدِه، أَمْسَى مغفوراً له»[٢].

ولما كان المالُ هو العينَ التي يطلبها الإنسان من كل سبيل ليتوصَّل بها إلى رزقه: مأكله، وملبسه، ومشربه؛ فقد حدد الدين الإسلامي لكسب هذا المال قانوناً لا تصح مخالفته، ووضع أصولاً تجب مراعاتُها؛ فبين الحلالَ والحرام في كسب المال، وبينهما في الأكل، وفي الملبس، وفي المشرب، وجعل لكل ذلك حدوداً من تعداها ظلمَ نفسه، والفقرُ لا يبيح الحرام، وإذا كان كسبُ الحرام قبيحاً بالنسبة للفقير، فهو للغني أقبحُ.

إن الله جعل عمرانَ هذا الكون مترتباً على السعي وراء الرزق ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾[الملك: ١٥]، وجعل تحصيلَ الرزق متوقفاً على اختلاف الأسباب والأعمال؛ فالزارعُ يسعى للتاجر، والتاجرُ يسعى للعامل، والنجار يعمل للبناء، والحدادُ يعمل لهما، والموظفُ يخدمُ الجميع.

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٢٠٠)، و«الأوسط» (٨٩٣٤)، وضعّفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٠٦)].

(٢) رواه الطبراني عن عائشة. (المؤلف). [أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٥٢٠)، وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٤): «وفيه ضعف»].

النَّـاسُ لِلنَّـاسِ مِـنْ بَـدْوٍ وَحَاضِـــرَةٍ
بَعْضٌ لِـبَعْضٍ وَإِنْ لَـمْ يَـشْعُرُوا خَـدَمُ

ثم إن العمل وراء الرزق من أفضل الأعمال، وهو في درجة الجهاد ـ كما سيأتي ـ ، لاسيما إذا كان الرجل العامل مكلفاً بعائلة تشتمل على صغار وعجزة، وهو قادر على السعي والكسب لإعالتهم.

ومما ورد في السنة الشريفة من التنويه بشأن العمل والحثِّ عليه: ما رواه الطبرانيُّ عن كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ: أن النبيَّ ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذاتَ يوم، فنظروا إلى شابٍّ ذي جَلَدٍ وقوة، وقد بَكَّرَ يسعى فقالوا: وَيْحَ هذا! لو كان شبابهُ وجَلَدُه في سبيل الله! فقال ﷺ: «لا تقولوا هذا؛ فإنه إنْ كان خرجَ يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خرجَ يسعَى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خرجَ يسعى على نفسِه لِيُعِفَّها، فهو في سبيل الله، وإن كانَ خرجَ يسعى رياءً ومفاخرةً، فهو في سبيلِ الشيطان»[(١)].

وسبيلُ الله تعالى ـ كما هو واضحٌ في هذا الحديث ـ كلُّ طريق يسلكه الإنسان لتحصيل ما فيه خيرُه وسعادتُه وهناؤه؛ بشرط أن يكون سعيُه مرتكزاً على نية صالحة، وقصدٍ كريم.

ومن النية الصالحة والقصد الكريم صدقُ التاجر؛ فلا يحلف بالله كاذباً متعمداً، ولا يغش، ولا يروِّجُ سلعة فاسدة، وصدقُ الصانعِ؛ فلا يخادع، ولا يماطل، ولا يخلف وعداً، وصدقُ الموظفِ؛ فلا يهمل،

---

(١) سبق تخريجه في (ص٨٤).

ولا يرتشي، وصدقُ الوكيلِ أو ناظرِ الأعمال؛ فلا يخون، وصدقُ القاضي والحاكم؛ فلا يتأثر برشوة، ولا برجاء أو واسطة، فيميل عن الحق.

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «ليسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ»[1].

إن الكذب والغش، والإخلاف والإهمال، والرشوة والخيانة كلّها سبلُ دنيا؛ فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ، جعلَ اللهُ غِناه في قلبه، وجمعَ له شملَه، وأَتَـتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدنيا هَمَّهُ، جعل الله فقرَه بين عينيه، وفَرَّقَ عليه شملَه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قدر له»[2]، وكثيراً ما حذر النبيُّ ﷺ من البطالة وسوء نتائجها، فقال ﷺ: «البطالةُ تُقَسِّي القلبَ»[3]، وقال أيضاً ﷺ: «إِذا قصر العبدُ في العمل، ابتلاهُ اللهُ بالهَمّ»[4].

وحقّاً إنّ الهمومَ والأكدارَ والأمانيَّ الباطلةَ، وقسوةَ القلب، والجرأةَ على ارتكاب المحرمات والآثام، والاعتداء على الغير والإجرام

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة، ورواه مسلم، ولفظه: «من غشنا فليس منا». (المؤلف). [أبو داود(٣٤٥٢)، ومسلم(١٠١)].

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وهو صحيح بشواهده. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٤٩).

(٣) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٨) بإسناد واه.

(٤) رواه أحمد مرسلاً. (المؤلف). [أخرجه أحمد في «الزهد» (١/ ١٠)، وهو مع إرساله فيه من لايُعرف. انظر: «لسان الميزان» (٢/ ٦٩)].

لا تكون إلا من ذوي البطالة والفراغ، ومتى انتشرت البطالة في أمة، انتشرت معها هذه الآفات.

ورغّب الشارع ـ **عليه السلام** ـ في السفر على مَنْ ضاق رزقهُ عليه ببلده، فقال: «سافِروا تَصِحُّوا وتَغْنَموا» رواه البيهقي عن ابن عباس[1]. وفي رواية: «تُرْزَقوا»[2]. ويعني: أن الغُنْم، وهو الربحُ والمنافع الدنيوية، إذا ما توقفت في وطن، سافروا لتحصلوا عليها بوطن آخر؛ فإنكم إن فعلتم ذلك، نلتم ما تريدون منها، وتستفيدون من السفر زيادة عن الأرباح صحةً وقوةً في الجسم، ولا تكسلوا، أو تَخْلُدوا إلى الراحة وإلى الفقر؛ فإن ذلك ليس من شأن الإسلام، ولكن «اعملوا، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له» رواه الطبراني عن عِمْرانَ بنِ حُصَيْن[3].

ومن شروط العمل وأسباب نجاحه الثباتُ والاستقامة من غير ملل أو ضجر؛ كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثمَّ اسْتَقِمْ» رواه مسلم عن سُفيانَ بنِ عبدالله[4].

---

(١) أخرجه البيهقي (١٣٣٣٦٧)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٠٢٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن محمد بن عبد الرحمن مرسلاً؛ كما في «الجامع الصغير» للسيوطي(٣٢١١ = ضعيفة).

(٣) أخرجه الطبراني (٢٦٧)، والحديث في البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩)، بنحوه.

(٤) أخرجه مسلم (٣٨).

وإن العمل القليل إذا رافقته همةٌ ونشاط واستقامة، أحبُّ إلى الله من العمل الكثير الذي يؤدِّي المللُ منه إلى تركه، والانقطاعِ عنه، ومن أحسن الأعمال وأحبِّها إلى الله تعالى: العملُ المقرون بالتوكُّل على الله، والاعتمادِ عليه فيه؛ كالزراعة، والصناعة، والغوص، والتجارة، وأما العمل، المعروفُ الفائدة؛ كالوظيفة، واليومية؛ فإنها أقلُّ فضيلةً، ولكنها خيرٌ من البطالة.

أما أولئك الذين تقاعدوا عن العمل، وسَمَّوْا أنفسَهم متوكِّلين، وقالوا: رزقُك يطلبُك ويأتيك ولو كنت في جُحر ضب. وقالوا: إن الله قدر في الأزلِ الحظوظَ، وكلُّ إنسانٍ سيأتيه ما قَدَرَه له من حظ؛ فإنهم ليسوا من التوكل في شيء، وهم بعيدون عما يريده الإسلام منهم؛ لأن نبيَّ الإسلام ﷺ ينهى عن هذه الفكرة، ويأمر المسلمين أن يسلكوا الطرقَ الموصلةَ عادة إلى خيرات الدنيا، والدرجات العُلا في الآخرة. والله ﷻ ييسر لكل واحد ما قضاه وقدره له؛ لأن القضاء والقدر غيبٌ لا يعلمه نبيٌّ مرسَلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا يعلمُه إلا الله، والواجبُ على المسلم الإيمانُ به، وألَاَّ يشغل فكرَه ونفسَه في قَدَرٍ غائب.

قال الإمامُ جعفرُ الصادقُ رضي الله عنه: إن الله أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً؛ فما أرادَه بنا، طواه عنا، وما أراده منا، أظهرَه لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده لنا عما أراده منا؟!

فعلى المرءِ المسلمِ الصادقِ الإيمانِ ألَاَّ يشغل نفسه بتوكلٍ كاذبٍ مقرونٍ بالإهمال والتقاعدِ عن العمل، بل يسعى ويعمل، ويصدُقُ

بعمله، ويتوكل على ربه: فهذا هو التوكُّلُ الشرعي، وقد قال ﷺ: «لو أنّكم تتوكَّلون على اللهِ حَقَّ تَوَكّله، لرزقَكُم كَما يرزقُ الطيرَ، تَغْدُو خِمَاصاً، وتَرُوح بِطَاناً» رواه أحمد عن عمر[1].

وكان في الصحابة والتابعين - **رضوان الله عليهم** - التاجرُ، والزارع، والبناء، والجزار، والبحار، والمتطوعُ في الجيش، لم يستكبر أحدُهم عن عمل، ولم يأنف من فعل، بل كان أحدهم يرى هذا العمل فرضاً محتماً عليه؛ ومع ذلك فلم يردَّهم العملُ لكسب عيشهم عن طاعة، ولا عن فعل معروف، وفي الحديث: «إن الله قسمَ أخلاقَكم كما قسمَ أرزاقَكم، وإن الله يُعطي الدنيا لمن يُحِبُّ ولمن لا يحبّ، ولا يعطي الدينَ إلا مَنْ يحبّ؛ فمن أعطاهُ الله الدِّينَ، فقد أحبّه، والذي نفسي بيده! لا يُسلمُ عبد حتى يُسلمَ قلبُه ولسانه، ولا يؤمنُ عبدٌ حتّى يأمنَ جارُه بوائقَه». قالوا: وما بوائقُه؟ قال: «غشمُه وظلمُه، ولا يكسب عبدٌ مالاً حراماً، فيتصدق به، فيقبل منه، ولا ينفق منه، فيبارك فيه، ولا يتركه خلفَ ظهره، إلا كانَ زادَه إلى النار. إن الله لا يمحو السَّيِّىءَ بالسيِّىءِ، ولكن يمحو السيِّىءَ بالحَسَن، إن الخبيثَ لا يمحو الخبيث» رواه أحمد، والحاكم عن ابن مسعود[2].

ووالله! لن يكشفَ اللهُ غُمَّتنا، ولن يرفع عنا كُرْبتنا، ولن يستجيب لنا دعاءنا ما دام المالُ معبوداً لنا، ولا نبالي أمِنْ حلالٍ كسبناه، أم من

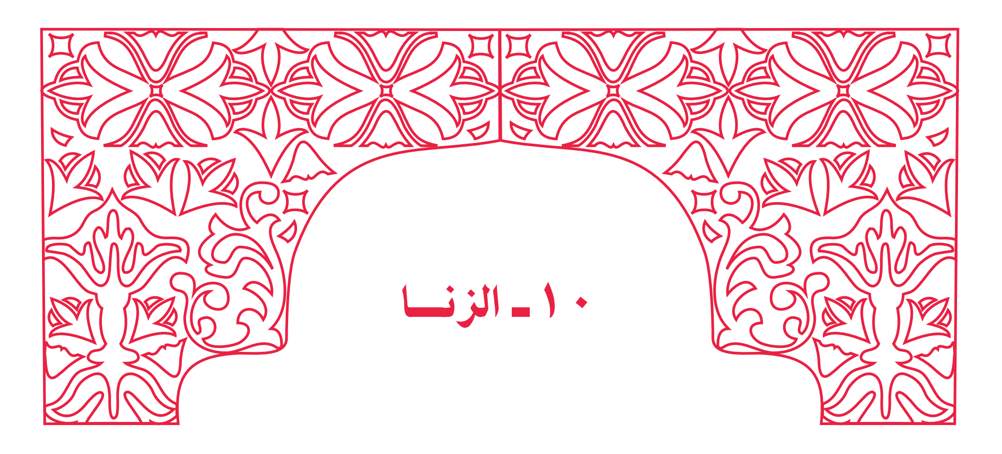
(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه في (ص٥٠).

حرام، إن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً، ولا يصعد له من العمل والدعاء إلا ما كان طيباً، وفي هذا المعنى قال ﷺ: «إنَّ اللهَ طيّبٌ لا يقبل إلا طيّباً، وإن اللهَ أمرَ المؤمنين بما أمرَ به المرسَلينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيل السفرَ أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمُه حرام، ومشربُه حرام، وملبُسه حرام، وغذي بالحرام؛ فأنّى يُستجاب له؟!» رواه مسلم عن أبي هريرة[1].

❒ ❒ ❒

(١) مسلم (١٠١٥).



١٠ ـ الزنـا

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢]؛ أي: لا تزنوا، ولا تقربوا مواطن الزنا، ولا تقربوا مما يقرب من الزنا؛ من لمس، أو قبلة، أو ما شابهها؛ فإن الزنا فاحشة من قديم الزمان، ممقوتةٌ لدى جميع الأديان؛ لكونها معصيةً جاوزت حدَّ العقل والشرع، وقبحُها زائدٌ على حد القبح؛ لما فيها من كثرة المفاسد، واختلاط الأنساب، ولانتشار الأمراض، وضياع الذرية، وانقطاع النسل؛ وكل ذلك مسبّب لخراب العالم الذي أراد الله تعميرَه وبقاءه إلى ما شاء الله.

أمر الله عبادَه المؤمنين بغض البصر، فقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[النور: ٣٠]، ويقول لأصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب: ٥٣]؛ أي نساء النبي ﷺ، فكيف الوقوع بما هو أعظم.

وإن الله ﷻ أحلَّ للمؤمنين دائرة طيبة ليس فيها عليهم ضرر، ولا على غيرهم بها تَعَدٍّ؛ فقال يصف المؤمنين، ويُثني عليهم

بأنهم لفروجهم حافظون، فلا ينظرون إلى ما يملكه غيرهم، ولا يتطلعون إلى ما يحل لسواهم: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[المؤمنون: ٦، المعارج: ٣٠]؛ فهم قانعون بزوجات خيرات طاهرات، أخذوهن بأمانة الله، واستحلوهنَّ بكلمة الله، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾[المؤمنون: ٧] من غير الزوجات والمملوكات ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[المؤمنون: ٧، المعارج: ٣١]؛ لأن المؤمن لا يرضى بالجناية على عرض امرأةٍ في عصمةِ غيره، فيفسدها على زوجها، أو يشتت أسرة كانت تتمتع بنعمة الاجتماع والتعاون على شؤون الحياة، فتثور العداوة والمنازعات بين أسرة الزوج والزوجة بسبب هتك العرض، أو الطعنِ فيه، والعرضُ أثمن شيء عند النفوس الكريمة الحرة، وحينئذ يقع شيء كبير حَذَّرَ الله منه، ونهى عنه؛ ذلك هو النزاعُ والعداوة، وربما جر النزاع إلى عائلات، وربما إلى أكثر بسبب هذه الفاحشة.

المؤمن لا يرضى أن يسقي بمائه أرضَ غيره، فتنبت أولاداً ينسبون إلى غير أبيهم، فإن كانت تلك في عصمة زوج، أنفق ذلك الزوج عليهم ظناً منه أنه ينمي زرعه، وإنما هو يعمل في زرع غيره؛ فالزاني أضاع زرعه، وأضاع أولاده، والزوجُ ظُلم بالتعدي على فراشه، وبإنفاقه على غير ولده طولَ حياته، وبإرثه منه بعد وفاته، وبالانتماء إليه، وهو بريء من ذلك الانتماء، وهذا هو نهاية الظلم، ونهايةُ التعدي.

فليتَّق اللهَ الزناةُ؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «البِرُّ لا يَبْلى، والذَّنْبُ

لا يُنْسى، والدَّيَّانُ لا يموتُ، اعملْ ما شئتَ، وكما تدينُ تُدان» رواه عبد الرزاق في «الجامع»[1]، والله ﷻ للظالمين بالمرصاد.

روى البخاري عن أنس بنِ مالكٍ، عن النبي ﷺ: أنه قال: «مَنْ زَنَى، زُني به، ولو بحيطانِ دارِه»[2].

زنى الرجلُ المتزوج، فعلمت بذلك زوجته، فاتبعت طريقته، فسفلت؛ فباعت عرضها تسفلاً منها، وانتقاما من زوجها الذي فتح أمامها بابَ الإثم، وسار أمامها في مهاوي الخطيئة، والمرأةُ على دين زوجها، أفلا يكون هذا الرجلُ هو الآثمَ بذلك؛ لأن «مَنْ سَنَّ سُنَّة سيِّئةً، فعليهِ وِزْرُها وُوِزْرُ مَنْ عملَ بها»[3]. وربما كان مثالاً سيِّئاً لابنته، أو لأخته.

والتي زنى بها هي زوجةٌ، أو ابنة، أو أخت، فإن كانت غيرَ متزوجة، فإن هذا المتعدِّي تعدَّى على شرف عائلتها وشرفها، فأفسدَ حياتها، وأساء سمعتها، وعرَّضَها للقتل إن كانت ذاتَ عائلة، أو عرضَ عرضَها للسقوط في بؤرة لا ينقذها منها إلا الموت.

فإن قُتلت، فهو السبب الأول في قتلها، وإن سقطت، فهو الجاني. والإثم أولُه وآخرُه على ذلك الغادر المعتدي.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) عن أبي قلابة مرسلاً، وانظر الكلام على بقية طرقه في «كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ٩٩١).

(٢) عزاه في «كنز العمال» (٥/ ٤٥٦) إلى ابن النجار عن أنس، فلعل ما في الكتاب: «روى البخاري» مصحّف، والحديث موضوع؛ كما في «السلسلة الضعيفة» (٧٢٤).

(٣) أخرجه مسلم(١٦٧٧).

مدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ أولئك الذين ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١].

عجباً للزاني كيف لا تأنفُ نفسُه مما يعمل، وخصوصاً أولئك الذين لهم زوجاتٌ وأخواتٌ وبنات؛ كيف يرضون أن يعتدوا على بنات الناس وزوجاتهم وأخواتهم في أعزِّ شيء لهم، وهو العرض والشرف، ولو سألهم أحدٌ: هل ترضون أن يعتدي الناسُ على زوجاتكم وأخواتكم وبناتكم، لثاروا، ولبطشوا، وربما فتكوا، فكأنهم من طينة غير طينة الناس، وذلك هو الغرور، والنبيُّ ﷺ يقول: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه» رواه البخاري عن أنس[1].

وأكثرُ عجبي من أولئك الذين يدخلون المحلات العموميةَ، ويأكلون مما يأكل الكلابُ والخنازير، إن الإنسان تعافُ نفسُه أن يأكل من فضلةِ غيره، أو يشربَ من ماءٍ شربَ منه غيرُه؛ فكيف لا تأنف نفسُ ذلك الزاني من مَيْلَغٍ وُضع لكلِّ كلبٍ والغ، ومَشْرَبٍ أُبيح لكلِّ سافلٍ ساقط، وربما نقل من الأمراض السرية والعلل المعدية إلى من ولغ فيه ما يضر بصحته، ويودي بحياته.

تالله! لو كان عند هذا ذرةٌ من العقل والحكمة، ما ترك موضعاً

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

أعده الله له وحدَه، وذهب يتلمَّسُ أوساخَ الناس وأقذارَهم يتذوَّقُها، ولكنه الحياء، والحياءُ ذهبَ منه، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقولُ: «إنّ ممّا أدركَ الناسُ من كلامِ النبوةِ الأولى: إذا لم تستحِ، فاصنعْ ما شئتَ»(١).

لو كانت عنده ذرة من الغيرة أو الإنسانية، لم يَدَعْ تلك التي أخلصَتْ له حبها، وملأت به قلبَها، وقَصَرَتْ عليه طرفَها، ويذهب إلى عاهر تزعم لكل داخل عليها أنه أحبُّ الناس إليها؛ فهل يدع عاقلٌ غيورٌ رئيسةَ بيته، ومربيةَ ولده، وأمينته على ماله وعرضه، وصاحبته في ليله ونهاره، ويأوي إلى بَغِيٍّ لا علاقةَ بينه وبينها؟! تالله! ما ذلك إلا الدليل الواضح على قلة عقل الزاني، وضعف بصيرته، وفساد فطرته، وخروجه عن حد الإنسانية، وإلا، فما الفرقُ بينه وبين سائر الحيوان؟ ولعل بعض الحيوانات أشرفُ وأعفُّ.

روى أبو داودَ والحاكمُ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا زنى العبدُ، خرجَ منه الإيمانُ، فكان على رأسِه كالظلَّةِ، فإذا أقلعَ، رجع إليه، وتابَ»(٢).

وروى البخاري، ومسلم عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ شاربُ الخمر حين يشربُها وهو مؤمن؛ فإذا فعل ذلك، فقد

---

(١) البخاري وأحمد عن عبدالله بن مسعود. (المؤلف). [أخرجه البخاري(٣٤٨٣)، وأحمد (٤/ ١٢١)].

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٠)، والحاكم (٥٦)، وصححه، ووافقه الذهبي.

خلعَ رِبْقَةَ الإيمانِ من عُنُقه»[1].

إن الفساق لا يُبالون أين يُلقون نُطفهم؛ فمنهم من يزني بذات الفراش، فيُلحق ولدَه بغيره كما قدمنا، ومنهم من يزني بمن لا فراشَ لها، فيحملها على قتل حملها، أو إلقائه في إحدى الطرقات حيث يلتقطه من يربيه، فيجعله خادماً، أو يبيعه، فيعيش لا أَبَ له ولا أُمَّ، وربما كانت نهايته عاراً وشناراً، وذلك في الغالب.

والفاسقُ لا يبالي أيخرجُ ولدُه شقياً أم سعيداً، مؤمناً أم كافراً؛ إنما غايته إشباعُ شهوته الحيوانية، والاستمتاعُ بلذته الجنسية فقط، والدينُ يحب السترَ على عورات الناس، والعاقلُ يأبى الفضيحةَ، ولا يرضاها، والإباحيون الملحِدون يريدون بقاء البِغاء في البلاد، ويقولون: إن حصره في منطقة واحدة أمرٌ لابدَّ منه، وشرٌّ لا محيصَ عنه؛ لأنه أمر اتفقت عليه الدول، وأجمعت عليه الأمم، بينما الأمم غيرُ الإسلامية أحست بضرره، وشعرت بشره، وسعى عقلاؤها للخلاص منه.

أما نحن، ففي حال لا نُحسد عليه من الفساد؛ فهو في كل مكان، والشكُّ واقع منه على كل امرأة، وصرنا إذا مشينا في الأسواق لا نفرق بين الحرة والساقطة، وها إن شبابنا قد أعرض كثيرٌ منهم عن الزواج ـ سوق الحلال ـ، وأصبحنا في حال نخشى منه نزولَ البلاء الذي وعد الله به ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، وليس عندهما: «فإذا فعل، فقد خلع...»، ولم أجدها عند غيرهما. والله أعلم.

قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ: لو وجدتُ مع أهلي رجلاً أُمْهِلُه حتى آتيَ بأربعةِ شهداء؟ قال: «نعم». قال سعد: كلا! والذي بعثَكَ بالحق، إن كنتُ لأُعْجِلُه بالسيف قبلَ ذلك. فقال: «اسمعوا ما يقولُ سيدُكم؛ إنه لغيور، وأنا أغيَـرُ منه، واللهُ أَغْيَـرُ مني»[1].

روى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يا معشرَ المهاجرينَ! خِصالٌ خمسٌ إن ابـتُليتم بهنّ، ونزلْنَ بكم، وأعوذُ باللهِ أن تدركوهنَّ: لم تظهرِ الفاحشةُ في قوم قطّ حتّى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعونُ، والأوجاع التي لم تكنْ في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيالَ والميزانَ إلا أُخذوا بالسّنين، وشدّة المؤونة، وجَوْرِ السلطان، ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم، إلا مُنعوا القطرَ من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمْطَروا، ولا نقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلا سلّط عليهم عدواً من غيرهم، فأخذ بعضَ ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتُهم بكتاب الله، إلا جعل بأسهم بينهم»[2].

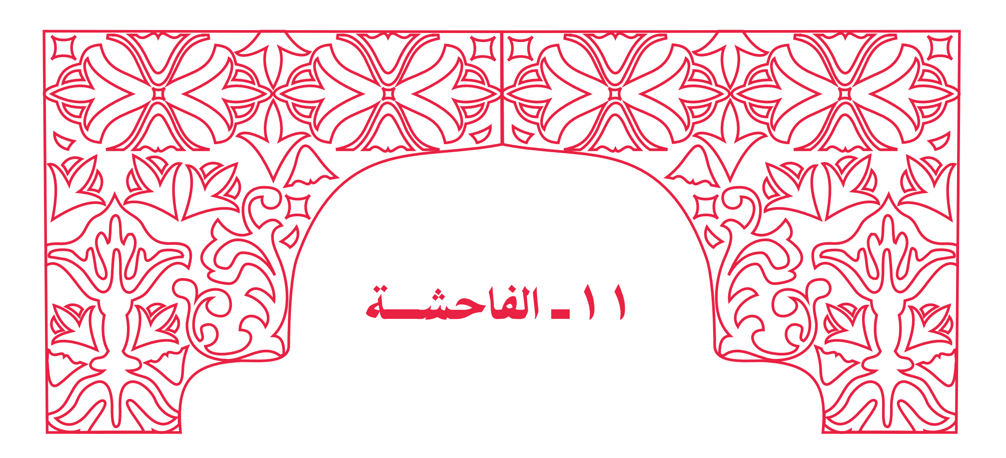
إن الله عز وجل لـم يمنعنـا عـن شيء عبثـاً، وقـد منعنـا عـن الزنـا؛ لأنـه مَضْيَعَـةٌ للنسـل، مذهبـة للأمـوال، جنايـة على الأعـراض، مَجْلَبَةٌ للأمراض، والزنا يورث الفقرَ، ويُفسد الأخلاق، ويسبب العداوة بين العائلات، وكفى بالعداوة قاتلاً للأمم مبيداً لها ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٨)، واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤٦٧١)، والحاكم (٨٦٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣١٤)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٣].

❑ ❑ ❑



١١ ـ الفاحشة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

تكلمنا في السابق على فاحشة الزنا، وأضرارِها الخلقيةِ والاجتماعيةِ والدينية، ونتكلم في هذا الباب على فاحشة أخرى أعظمَ من الزنا قبحاً، وأسوأ سبيلاً، وهي اللواط.

قال الله تعالى حكايةً عن لوط مع قومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٧٣].

وقال تعالى في موطن آخر: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٠].

أطلـق الله على هـذا العمل القبيح اسمَ الفاحشـة؛ لأن النفوس السليمة تراه أكثرَ فُحشاً من الزنا؛ لقذارة محلِّه، فضلاً عن إفساده للنفوس، ولأنه مضرٌّ بالمجتمع ضررَ الزنا وأشد؛ لأن الأعزب يتلهى به عن الزواج، وبذلك تتعطل به طائفة من النساء عن أن تجد لها زوجاً يُعفّها، وإذا كان متزوجاً، ترك زوجته، وعَرَّضَها للتهاونِ بعرضِها؛ وبذلك ينقطع السبيل الذي خلقه الله لبقاء الكون، زد على ذلك ما يلحق الأمةَ من ضررٍ عامٍّ في تقليل المواليد، والذهابِ بالشهامة والرجولة من نفس المفعول.

وقد ورد في ذلك أحاديثُ كثيرة في التحذير من هذه الفاحشة؛ فمـن ذلـك: مـا أخرجـه الطبرانـي عـن جابـر بـنِ عبـدالله رضي الله عنه عـن النبي ﷺ قوله: «إذا ظلمَ أهل الذّمة، كانت الدولة دولة العدو، وإذا كثر الزنا، كثر السباء، وإذا كثر اللوطيّة، رفع الله يده عن الخلق، ولا يُبالي في أي وادٍ هلكوا»[1].

وروى البيهقي، وابن حبان عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قوله: «لعنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغير الله، ولعنَ اللهُ من غَيَّرَ تُخومَ الأرض، ولعنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أعمى عن السبيل، ولعن اللهُ مَنْ سبَّ والديه، ولعنَ اللهُ مَنْ تولَّى غيرَ مواليه، ولعنَ اللهُ مَنْ عملَ عملَ قومِ لوط»[2]، قالها ثلاثاً في عمل قومِ لوط.

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٥٢)، وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٧)، وابن حبان (٤٤١٧)، والطبراني (١١٥٤٦)، والحاكم =

وروى الحاكم عن بُرَيْدَةَ قولَ رسولِ الله ﷺ: «ولا ظهرتِ الفاحشةُ في قوم، إلا سَلَّطَ الله عليهم الموتَ»[1].

وكلا الفاحشتين مُضرّة في المجتمع، مفسِدة للأخلاق، جناية على الأعراض، مَضْيَعَة للنسل، مذهبة للأموال، مجلبة للأمراض، وكلا الفاحشتين مضيعة للدين، مغضبة للرحمن.

ولو عوّد الإنسان نفسَه اتّباعَ أمرِ ربّه مرةً أو مرتين أو ثلاثاً، لكان له في ذلك عادة، ولكن إذا وقع في الذنب مرة ثم أخرى ثم ثالثة، اعتاد الذنب؛ كما ورد في معنى حديث: «إنَّ الإنسان إذا وقعَ في الذنب، رانَ على قلبه، فنكت فيه نكتة سوداء، ثم إذا أقلعَ، انمحَتْ، فإذا عادَ، نكت في قلبه نكتة سوداء أكبر من الأولى، وإن زاد، زادَتْ حتى يغلف بها قلبه، فوجد الرّان الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[المطففين: ١٤]»[2].

وواجبٌ على الإنسان أن يتجنب طرقَ الشبهات، أو ما يحمل الإنسان على سوء الظن به؛ فقد جاء رجل إلى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ومعه صبي حسنُ الوجه، فقال له: من هذا منك؟ قال: ابن أختي.

= (٨٠٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٣٧٣)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأصله في «مسلم» برقم (١٩٧٨).

(١) أخرجه الحاكم (٢٥٧٧)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي، والنسائي عن أبي هريرة بنحو لفظه. (المؤلف). [أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٥٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»].

قال: لا تجيء به إلينا مرةً أخرى، ولا تمشِ معه في الطريق؛ لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه.

إنّ كلّ البلاء من النّظر، وقيل: البصرُ بَريدُ الخطر، وإذا استحسنت العينُ منظراً، أوحت به إلى النفس، والنفسُ أمارة بالسوء، ولهذا قال الله تعالى آمراً بغض البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[النور: ٣٠]؛ لأنهم إذا غضوا الأبصار، حفظوا الفروج، وإذا غضوا الأبصار وحفظوا الفروج، زكت عندهم النفوس، ويقول الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ
وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا
فِعْلَ السِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ

روي عن ابن عباس: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يتشلشل دماً، فقال له: مالك؟ قال: مرت بي امرأة، فنظرت إليها، فلم أزل أُتبعها بصري، فاستقبلني جدارٌ، فضربني، فصنعَ بي ما ترى، فقال ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً، عَجَّلَ له عقوبَتَه في الدنيا»[1]، ولو أن هذا امتثل أمرَ ربِّه، فغضَّ نظره، لم يصبه ما أصابه، ولم يفتضح.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (١٥٤) ـ كما في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٩٤) ـ وأخرجه بدون القصة: الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

ثم إن الفاحشة لا تقتصر على اللّذة الجنسيّة والاتّصال المحرم، إنما كلُّ ما قَرَّبَ من الفاحشة فاحشة؛ ففي حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «العينانِ زِناهما النَّظَرُ، واللسانُ زِناهُ الكلامُ، والأذنان زناهما الاستماعُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجْلُ زناها الخُطَا، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، ويُصَدِّق ذلك الفرجُ، أو يكذِّبُ»[1].

وفي حديث طويلٍ رواه المنذري ـ من الأحاديث القدسية ـ يقول الرب ـ جل جلاله ـ: «النظرةُ سهمٌ من سهامِ إبليسَ، من تركَها من مخافتي، أبدلته إيماناً يجدُ حلاوتَه في قلبه»[2].

هذا إلى أن الفواحش إذا انتشرت في البلاد، انتشرت معها الأوبئة والأمراض المتنوعة، كما ـ قال عليه الصلاة والسلام ـ: «لم تظهر الفاحشةُ في قوم قَطُّ حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعونُ، والأوجاعُ التي لم تكنْ في أسلافِهم»[3]، وحديثُ الطبراني والحاكم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «إذا ظهرَ الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسِهم عذابَ الله»[4].

ونظرةٌ إلى الزناة والزواني ومَنْ على شاكلتهم تُرينا أن أكثرهم

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه الطبراني (١٠٣٦٢)، والحاكم (٧٨٧٥)، وضعفه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٢٢).

(٣) سبق تخريجه في (ص١٠١).

(٤) أخرجه الطبراني (٤٦٠)، والحاكم (٢٢٦١)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

أُصيبوا بأمراض وأوجاع متنوعة يحار الطبُّ ـ مع تقدمه في الأزمنة الأخيرة ـ في مداواتها، والتي سماها الطبُّ بأسماء لم يعرفها أسلافنا؛ فهذا السيلان، والزهري، والقرحة الإفرنجية، وما أشبهها، وهذه الأمراض المزمنة، والأمراض السرية قد أحلَّها اللهُ في أهل الفاحشة من غير تحديد، كما أننا نرى أغلبَ الزناة والزواني يموتون في سن مبكرة بسبب أمراض سرية لا تقفُ عند حدٍّ إجرامهم، بل تتعداهم إلى قوم أبرياء بعيدين عن الشر؛ وهم زوجاتُهم وأولادُهم، وقد قيل: الآباء يأكلون الحِصْرِم والأولادُ يضرسون.

وأما اللوطيّةُ، فإنهم ـ فضلاً عَمَّا يصيبهم من أمراض في صحتهم ـ فإنهم يُصابون بأمراض خلقية، منها: قتلُ الرجولة والشجاعة وقلة الحياء، وانعدام الشهامة، وفساد الخلق، وذهاب الكرامة والشرف، ولهذا وصف القرآن الكريم أصحابَ هذا الفعل الشائن بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف: ٨١]؛ لأنهم أسرفوا في إشباع شهواتهم حتى في غير طريقها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٦]؛ لأنهم جاوزوا المعقول، فاعتدوا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[النمل: ٥٥]؛ لأنهم جهلوا الطريق المستقيم.

إن الأمة في حاجة إلى رجولة وإلى شجاعة وإلى قوة، وإلى شرف ونخوة، واللواطُ عدوٌّ ذلك كلِّه؛ لأنه عدو الأخلاق الفاضلة وجرثومتها القاتلة: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ٣٣]، والذين لا يؤمنون مصيرهم مع أصحاب النار.

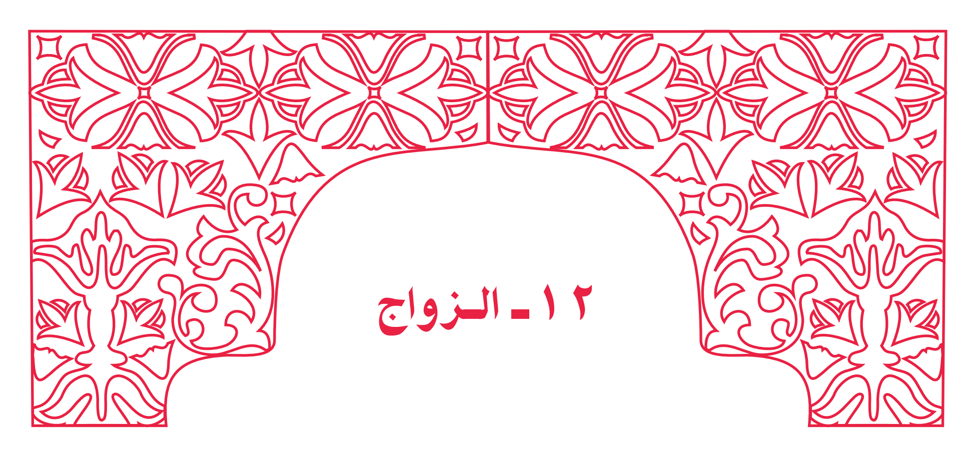
روى ابـن أبـي الدنيا: أن خالدَ بـنَ الوليد رضي الله عنه كتب إلـى أبـي بكـر رضي الله عنه: أنه وجـد رجلاً فـي بعض ضواحـي العرب يُنْكَح كما تُنكح المرأة، فجمع لذلك أبو بكر رضي الله عنه أصحابَ رسولِ الله ﷺ، وفيهم علي ـ رضي الله عنه، وكرم الله وجهه ـ، فقال: «إن هذا ذنبٌ لم يعملْ به إلا أمةٌ واحدة، ففعلَ الله بهم ما علمتُم، أرى أن تُحرقوه بالنار، فاجتمعَ رأيُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ على أن يُحرقوه بالنار، فأمر أبو بكر، فأحرقه خالدٌ»[1].

وروى الطبراني والبيهقي: أن رسولَ الله ﷺ قال: «أربعةٌ يصبحون فـي غضـبِ الله، ويُمسـون فـي سَخَـطِ الله: المتشبهـون مـن الرجـالِ بالنساء، والمتشبهاتُ من النساء بالرجال، والذي يأتي البهيمة، والذي يأتي الرجال»[2].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٨٠٥)، وفي «الشعب» (٥٣٨٩) من طريق ابن أبي الدنيا، وضعفه البيهقي في «السنن» بقوله: «وهذا مرسل».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٣٨٥)، وهو حديث منكر؛ كما قال ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٦/ ٢٢٨).



١٢ ـ الزواج

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢]، وتقدم الكلامُ على الفاحشة وما يتعلَّق بها، وإن خير حامٍ من الوقوع فيها هو الزواج.

والزواجُ حالةٌ تدعو إليها طبيعة البشر، وفطرتُهم التي فطرهم خالقُهم عليها، ففرضَتْها الشرائع على الإنسان، وجعلها بارىء الإنسان سنةً في خلقه لدوام العمران، وحفظاً لكيان البشر، وصوناً لكرامة وشرف الإنسان، ومكملاً لنقصه. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١]، فجعل من علامات ربوبيته ﷻ أن خلقَ لنا من جنسنا أزواجاً نميلُ إليها، ونألفها، وترتاح نفوسنا معها وإليها، وجعلَ بيننا مودةً ورحمةً من غير سابق معرفة ولا قرابة، ولا موجبٍ للتعاطف إلا ميلاً فطرياً.

إن في ذلك لآياتٍ ودلائلَ على عظمة الله وقدرته، فيعلمون أن قوام الدنيا ببقاء التناسل، وأن خرابها بانقطاعه: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾[الشورى: ١١].

وفوائد الزواج كثيرة: منها: حفظُ النسل، وحفظُ الأنساب، وحفظُ الأموال، وحفظُ الفروج والعيون، وفيه أيضاً: التعاون على المعيشة، وعلى تربية الذرية.

وقد حث الشرعُ الإسلامي على الزواج بآيات وأحاديثَ كثيرة: منها: قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾[النساء: ٢٥].

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رهطٌ إلى بيوت أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا، كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأين نحنُ من النبي، وقد غفر اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا، فأصلي الليلَ أبداً، وقال الآخر: وأنا أصومُ الدهر ولا أفطرُ، وقال الآخر: وأنا أعتزلُ النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم القومُ قلتمْ كذا وكذا؟ أما والله! إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأَرْقُد، وأتزوَّجُ النساءَ، فمن رغبَ عن سُنَّتي، فليس مني»(١)؛ لأن الزواج وتأسيسَ البيت والتماسَ الذرية والتعاون على شؤون الحياة مما رضيه صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأمته؛ فمن تركه زاهداً فيه، لم يكن من جماعته، ولا عاملاً بشريعته.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، وهو عند مسلم (١٤٠١) بنحوه.

والغرضُ من ترغيبِ رسولِ الله ﷺ في الزواج، وتحذيرِه من تركِه: هو بقاءُ النسل، وتكثيرُ سواد الأمة، لا التمتعُ فقط، ودليلُ ذلك ما رواه أبو داود، والنسائيُّ عن مَعْقِلِ بنِ يسارٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فإنِّي مُكاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ»(١)، وذلك أنه جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أصبتُ امرأةً ذاتَ حَسَب ونَسَب ومال، إلا أنها لا تلد، أفأتزوّجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له مثلَ ذلك، ثم أتاه الثالثة، فقال له ما تقدم.

فالشارعُ إنما حثَّ على الزواج لغرض تكثير النسل، وهو ﷺ يحث على التبكير في الزواج؛ احتفاظاً بالعفة، وصوناً لها من الإثم، ولكنه من جهة ثانية يوصي الشباب أَلاَّ يقدموا على الزواج إلا بعد إعداد العدة له؛ لكي تتوفر للزوجين أسبابُ الهناء؛ فقد روى البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود، قال رسولُ الله ﷺ: «يا معشرَ الشباب! من استطاعَ منكم الباءةَ، فليتزوَّجْ؛ فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ للفرج، ومن لم يستطعْ، فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاءٌ»(٢). والباءة: المنزلُ وتكاليفه.

والباءةُ من المباءة، وهي المرجع، أصلُه باء يبوء إليه، يعني: رجع يرجع.

فإذا كان الزواج واجباً اجتماعياً، فإن الأوجبَ منه أن يقع موقعه،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).

ويُثمر ثمرته، ويَستوفي شرائطه التي من شأنها أن تجعل الزوجين سعيدين قريري العين أحدُهما بالآخر، فلا ينبغي أن يتزوج وهو منطوٍ على فقر، فيحمل نفسه الدينَ الكثير، ويعيش بعد ذلك في نكد دائم وشقاء، مع أن رسولَ الله ﷺ قال: «التمسوا الرزقَ في النكاح»[(١)]؛ لأن الرجل إذا تزوج، كَوَّنَ له عائلة، والعائلةُ تحفزه على السعي وراء الرزق، وتبعثُ في الكسول المتقاعدِ روحاً قوية تُنهضه للعمل سداً لحاجة عائلته؛ فيغنيه الله، ويوسع عليه الرزق، ويكون النكاح نعمَ الطريق إليه، وخيرَ باعثٍ لنشاطه.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أراد أن يلقى اللهَ طاهراً مُطَهَّراً، فليتزوَّجِ الحرائرَ»[(٢)].

وروى البيهقي عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «إذا تزوجَ العبدُ فقدِ استكملَ نصفَ الدين، فليتقِ اللهَ في النصفِ الباقي»[(٣)].

وروى الطبراني عن أبي نجيح رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مَنْ كان موسراً لأنْ ينكحَ ثم لم ينكحْ، فليس مني»[(٤)].

---

(١) رواه الديلمي عن ابن عباس. (المؤلف). [وهو حديث ضعيف. انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٥/ ٥٠٩)].

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٦٢)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (١/ ٥٩٨).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٤٨٦)، وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٦٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٢٠)، وفي الأوسط (٩٨٩)، وهو ضعيف. انظر: ضعيف الترغيب والترهيب (١٢٠٧).

وإن الدنيا متاع، وخيرُ متاع الدنيا المرأةُ الصالحة؛ فهي حسنة الدنيا التي يسألها الصالحون، وهي البيت، وهي السكن؛ فإذا رزق الله العبدَ امرأة كذلك، فليعلم أنها نعمةٌ من الله ساقَها الله إليه، وواجبُ النعمة أن تُشكر ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ: «تُنكح المرأةُ لأربعٍ: لمالِها، ولحسبِها، ولجمالِها، ولدينِها؛ فاظفرْ بذاتِ الدينِ تَرِبَتْ يداك»(١). فذاتُ الدين تستطيع أن تأمنها على نفسها، وعلى مالك، وعلى ولدك، وعلى بناتك من غيرها، وعلى كل ما تخاف عليه منها أو من غيرها، وقد أخبرنا ﷺ في حديث آخر رواه الطبراني عن أنس بن مالك ﵁: «مَنْ تزوّجَ امرأةً لعزّها، لم يزدْهُ الله إلاَّ ذُلاًّ، ومن تزوجها لمالها، لم يزده اللهُ إلا فقراً، ومن تزوجها لحسِنها، لم يزده اللهُ إلا دناءةً، ومن تزوجَ امرأةً لم يردْ بها إلا أن يغضَّ بصرَه، ويحصن فرجَه، أو يصلَ رحمه، بارك الله فيها، وبارك لها فيه»(٢).

واللائق بذوي المروءة والإنسانية والدين أن يكون الدين مطمحَ نظرهم في كل شيء، لاسيما فيما يدوم ويعظم خطرُه؛ كالزواج لمن له مال وعيال، لهذا قال ﷺ: «اظفر بذات الدين»؛ لأن الظفر هو غاية الأماني، ومنتهى الاختيار.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣٤٢)، وضعفه الهيثمي في المجمع (٤/ ٤٦٧).

كان ﷺ يقول: «إذا أفاد أحدُكم امرأةً أو دابةً أو خادماً، فليأخذ بناصيتها، وليقلْ: اللهمَّ إني أسألُكَ من خيرِها وخيرِ ما جَبَلْتَها عليه، وأعوذُ بكَ من شَرِّها وشَرِّ ما جَبَلْتَها عليه»(١).

وعن عبدالله بنِ عمرِو بنِ العاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِها امرأةٌ تعين زوجَها على الآخرة، مسكينٌ مسكينٌ رجلٌ لا امرأةَ له، مسكينةٌ مسكينةٌ امرأةٌ لا زوَج لها» ذكره رزين(٢).

وروى الحاكم عن محمد بن سعدِ بنِ أبي وقاص، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ من السعادة: المرأةُ تراها تعجبك، وتغيبُ فتأمنها على نفسِها ومالِكَ، والدابةُ تكون وطيئةً، فتلحقُك بأصحابك، والدارُ تكون واسعة كثيرةَ المرافق، وثلاثةٌ من الشقاوة: المرأةُ تَراها تَسوءُكَ، وتحملُ لسانَها عليك، وإن غبتَ، لم تأمنها على نفسِها ومالِكَ، والدابةُ تكون قَطوفاً، فإن ضربتَها، أتعبتْكَ، وإن تركْتَها، لم تُلحقك بأصحابِك، والدارُ تكون ضيقةً قليلةَ المرافق»(٣).

وروى ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزوَّجوا النساءَ لحسنهنَّ، فعسى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٩٣)، وابن ماجه (٢٢٥٢)، وهو حديث حسن؛ كما في «مشكاة المصابيح» (٢٤٤٦).

(٢) ذكره المنذري في «الترغيب» (١٢٠٤ = ضعيفه)، وقال: «ذكره رزين، ولم أره في شيء من أصوله، وشطره الأخير منكر». والشطر الأخير أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٥٤٨٣)، وقال: «والحديث مرسل».

(٣) أخرجه الحاكم (٢٦٨٤)، وصححه.

حسنُهن أن يُرديهن، ولا تزوَّجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تُطغيهن، ولكن تزوَّجوهن على الدِّين، ولأمةٌ خرماءُ سوداءُ ذاتُ دِينٍ أفضلُ»(١).

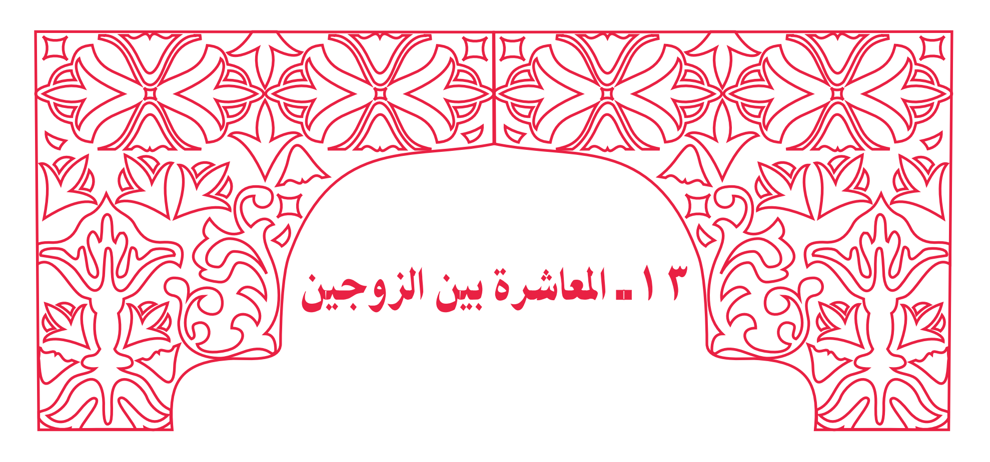
ويقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾[النساء: ٣٤]، والنشوز: هو التكبر والعصيان، ولا سيما عند نساء هذا الزمان، ولقد أخبرنا ﷺ قبل ألف وأربع مئة عام عما سيكون عليه نساء هذا الزمان من فتنة وإغراء، وذهابِ حشمة وحياء، فقال في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة: «صنفانِ من أهلِ النارِ لم أَرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مائِلاتٌ مميلاتٌ، رؤوسُهُنَّ كأسْنِمَةِ البُخْتِ المائلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإِنَّ ريحَها ليوجَدُ من مسيرةِ كذا»(٢).

❒ ❒ ❒

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٩)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (١/ ٥٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٢٨).



١٣ ـ المعاشرة بين الزوجين

تقدم الكلام على مشروعية الزواج، وبقي أن نتكلم على ما بعد الزواج فيما يجب لكل من الزوجين على الآخر، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٩]؛ أي: عاشروا النساءَ عشرةَ إحسان ومعروف؛ في كلامكم، ومبيتكم، وإنفاقكم، أو عاملوهن بما تحبون أن يعامِلْنَكم به، فإن كرهتم صحبتَهن، وآثرتم فراقَهن، ففكروا، وتَرَوَّوْا في الأمر قبل أن تَبُتُّوا فيه؛ فعسى أن تكرهوا شيئاً يرزُقكم الله منه ولداً صالحاً تقرُّ به عيونُكم؛ فربما كرهت النفسُ ما هو أصلحُ للحالِ وللمآل.

قلنا: إن الزوجَ يجد من زوجته خيرَ رفيق في حياته يشاطره سراءه وضراءه، ويصون بها عرضه ونفسه، ويحفظ بها ماله وصحته، ويخلد بأبنائه منها ذكراه، وهي تتخذ منه زوجاً يحميها من عاديات الحوادث، ومحن الزمان ورزاياه، وتكفل به راحتها وهناءها، وتصون عرضها ومالها، وتضع به ثقتها، وتحظى منه بذرية صالحة تخلد بها ذكرهما.

فإذا حصل الوفاقُ بين الزوجين، وسارا على المنهج القويم لحياتهما

الزوجية كما أراد الله، وتبادلا الإخلاصَ، وعرف كلٌّ ما عليه للآخر من حقوق وواجبات، وأدى كلٌّ منهما ما عليه منها لصاحبه، عاشا في سعادة لا يخالطها عناء، وهناء لا يشوبه شقاء، وكان بيتهما جنةَ عدن، وحياتُهما راحةً ونعيماً، ولهما في الآخرة جنة ونعيم؛ لأنهما أرضيا الضمير، وأرضيا الفطرة التي أرادها الله تعالى لعباده.

فأما حقوق المرأة على زوجها، فمنها:

١ ـ الإنفاق: وهو واجب على الرجال بطبيعة الحال؛ لأن الرجال قوامون على النساء، والإنفاقُ الواجبُ هو الإنفاق المعتدل من غير تقتير ولا إسراف ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[الطلاق: ٧].

٢ ـ العدلُ بين الزوجات على مَنْ له زوجتان فأكثر في كل شيء: في المآكل، والملابس، والمشارب، والمبيت؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾[النساء: ٣].

روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانت عندَه امرأتان، فلم يعدلْ بينهما، جاء يومَ القيامة وشِقُّه ساقطٌ»(١).

والقصدُ من العدل: أَلاَّ يؤثر إحداهما على الأخرى بشيء من الظواهر، أما الباطن، وهو الميلان القلبي، فأمرُه بيد الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾[النساء: ١٢٩].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٧٥٩)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وروى أبو داود، والترمذي عن عائشة، عن النبي ﷺ: أنـه قال: «اللّهمَّ هـذا قَسْمي فيما أملكُ، فلا تَلُمْني فيما تملكُ ولا أملكُ»[1].

٣ ـ إرشادُ الزوجـة إلى كلِّ معـروف، وتعليمُهـا أمـورَ دينها، وما يجب عليها لربها، ولزوجها، وولدها، ولبيتها، ولوطنها، وللناس، وأن يعاملها بالأخلاق الحسنة؛ ليكون لها قدوة حسنة، متبعاً بذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦].

٤ ـ عدم الاعتداء عليها بما يأتي:

أولاً: بالهجر بلا سبب؛ لأن الهجر أمرٌ مذموم، فضلاً عن كونه ذنباً كبيراً، وجناية عظمى، والله ﷻ حرم علينا ذلك بقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾[النساء: ٣٤].

بعض الرجال الذين لا ضميرَ لهم ولا خلق، يهجرون زوجاتهم الليالي الطوال؛ فلا يحضرون إلا في ساعة متأخرة من الليل، وربما كان غيابهم في معاصٍ؛ فيسبب ذلك مللاً في قلب الزوجة، وارتياباً وحباً للانتقام.

إن الرجـل العاقـل هو الذي يعمر بيتـه بحضوره ساعاتِ فراغـه، ويؤنس أهلَه بحديثه، ويملأ عيونَ زوجته وأولاده بالنظر إليه، ويودع في قلوبهم محبته.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، ورجح أنه مرسل؛ فهو حديث ضعيف. والله أعلم.

روى الترمذي عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ: «أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم»(١).

ثانياً: بإمساكها ضِراراً ليسلبها حقَّها، أو يستحصلَ منها ما أمهرَها به؛ فإن ذلك ظلمٌ وتَعَدٍّ، والله يأبى الظلمَ، وقد أذن الله بالطلاق ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[النساء: ١٣٠]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة: ٢٣١].

ثالثاً: بالتضييق عليها، فيمنعها حقَّ التصرف بمالِها الخاصِّ، أو يمنعها من زيارة أهلِها وأقاربِها، ويمنعها من حقوقها المشروعة عليه لها.

نهانا الله تعالى عن هذا، كما أمرنا بذلك؛ حباً بالألفة، ودفعاً للخصام الذي ينتهي بالفراق.

وأما حقوقُ الزوج على الزوجة، فمنها:

١ ـ أن تطيعَه في كل ما لم تكن فيه مخالفةُ الله، وألَّا تخالف له نهياً فيه معصيةُ الله.

روى الإمام أحمدُ عن عمرانَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وابن ماجه (١٩٧٨) ـ الشطر الثاني ـ، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٨١)، وفي «الأوسط» (٧٣٢٢)، وهو حديث صحيح. انظر: «الصحيحة» (١٧٩).

أما المرأة المطيعة، فلها أجرُ مجاهد، وهي أفضلُ النساء على الإطلاق، كما قال ﷺ: «جهادُ المرأةِ حُسْنُ التَّبَعُّل لزوجها»[1].

وقيل له: أيُّ النساء خير؟ فأجاب ﷺ: «خيرُ النساءِ مَنْ تَسُرُّكَ إذا أبصرتَ، وتُطيعك إذا أمرتَ، وتحفظُ غيبتكَ في نفسِها ومالِكَ» رواه الطبراني[2] عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

٢ ـ أن تحافظ على أموالِ زوجِها وأولادِه وبيته محافَظَتَها على عرضها وشرفها وأعراض بناتها؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

٣ ـ أن تحافظ على نظافة بدنها ونفسها ومنزلها وأولادها وخدمها؛ لأن ذلك مَجْلَبَةُ السرور، والنظافة من الإيمان.

٤ ـ أن تكون مدبرة بيتها، فلا تسرف، ولا تُقتر، ولا تكلِّف زوجها مالا يطيق؛ حتى تكون مثلاً صالحاً لمن حولها.

٥ ـ أَلاَّ تعمل شيئاً ليس مفروضاً إلا بإذنه: فلا تُدخل بيتَه إلا مَنْ يحب، ولا تَخرج منه إلا بإذنه، ولا تعطي منه شيئاً إلا بعلمه، ولا تصوم نفلاً إلا بإذنه.

روى البخاري: أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ أن تصومَ

(١) رواه الطبراني. (المؤلف). [لم أجده عند الطبراني، وقد أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٩٧)، وضعّفه].

(٢) عزاه إليه الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٥٠٢)، ولم أجده في المطبوع من «معاجمه». والحديث أخرجه الطيالسي (٢٣٢٥)، والحاكم (٢٦٨٢) من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وزوجُها شاهدٌ إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»[1].

٦ ـ أن تكون بارّة بأَبَوَيْ زوجها بِرَّها بأبويها من حيثُ احترامُهما وطاعتُها لهما، وأن تسلكَ مسلكَ المروءة معَهما، ومع من تضمُّه دارُه من أخواته وبناته وذوي قرباه، وأن ترأف بأولاده من غيرها رأفتَها بأولاده منها، حتى يكونوا لها نعمَ المؤازر والنصير؛ لتستعين بهم متى حصل بينها وبين زوجها من الشقاق ما لم يكن على بال. زد على ذلك: أن تلك المعاملة تدعو لها المروءة الإسلامية، وأنها أعظم دليل على شرف المنبت، وطيب الأصل، وقوة الدين.

روى الترمذي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص الجُشمي رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ في حجة الوداع بعد أن حمدَ الله وأثنى عليه ذَكَّرَ ووعظَ، ثم قال: «ألا واسْتَوْصوا بالنساءِ خيراً؛ فإنَّما هُنَّ عَوَانٍ عندكم، ليس تملكون منهنَّ شيئاً غيرَ ذلك، إلا أن يأتينَ بفاحشة مبيّنة؛ فإن فعلن، فاهجروهنّ في المضاجع، واضربوهنَّ ضرباً غيرَ مُبَرِّح، فإن أطعنكم، فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إنَّ لكم على نسائكم حقّاً، ولنسائكم عليكم حقّاً: فحقُّكم عليهنّ ألاّ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون. أَلا وحقُّهنَّ عليكم أنْ تُحسنوا إليهنّ في كِسوتهنّ وطعامِهنَّ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١١٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وواجبٌ عليهما حفظُ سرّهما؛ فقد روى مسلم، وأبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنّ من شرّ النّاس عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ الرجلَ يُفضي إلى امرأته، وتُفضي إليه، ثم ينشرُ أحدُهما سِرَّ صاحبه»[1].

وروى أحمدُ عن أسماءَ بنتِ يزيدَ ـ رضي الله عنها ـ: أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجالُ والنساءُ قعودٌ عنده، فقال: «لعلَّ رجلاً يقولُ ما فعلَ بأهله، ولعلَّ امرأةً تُخبر بما فعلَتْ مع زوجها»، فأَرَمَّ القومُ. فقلتُ: إي واللهِ يا رسول الله! إنهم ليفعلون، وإنهنَّ ليفعلن. قال: «لا تفعلوا؛ فإن مثلَ ذلك مثلُ شيطان لقي شيطانةً، فغشيها، والناسُ ينظرون»[2].

أما الفراق، فمباحٌ فيما إذا كان دوامُ الزوجية يؤدي إلى فساد نظام العائلة، ويعرضهما لشقاء ونكد دائم، وقد فسر بعضُهم قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء: ١٩]، فقال: اصبرْ على زوجك، فلربما يكون بعد الكره وفاقٌ وتفاهم.

ومما وردَ في التنفير من الطلاق قولُـه ﷺ: «تَزَوَّجُوا ولا تُطَلِّقُوا؛

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧)، وأبو داود (٤٨٧٠)، ولكنه عندهما بلفظ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرّها».

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٦)، والطبراني (٤١٤)، والحديث له شواهد تقويه؛ كما قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢١٧ = صحيحه).

فإن الطلاقَ يهتزُّ منه العرشُ»[(١)]. «أَبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطلاقُ»[(٢)].

«ما أحلّ اللهُ شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»[(٣)].

ويفهم من هذا الحديث: أن أحبَّ الحلال إليه النكاحُ؛ لأنه جل جلاله يكره الفرقةَ بالطلاق، وضدُّ المكروه محبوبٌ.

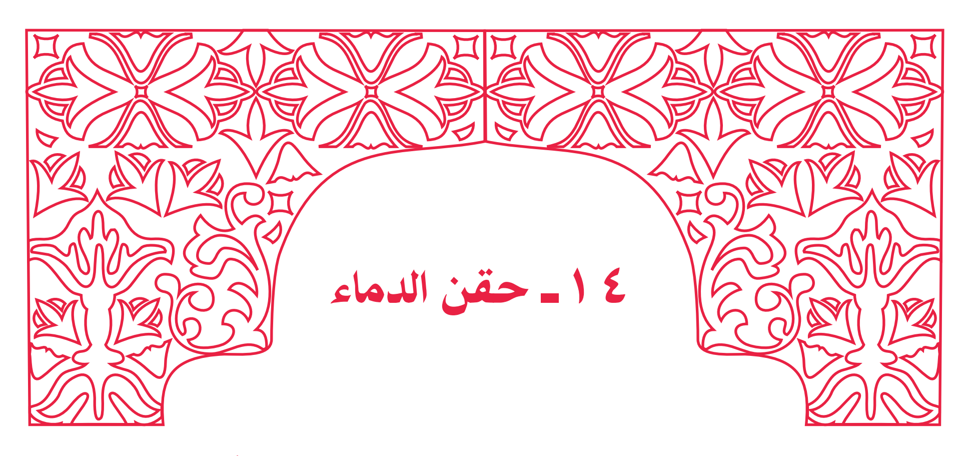
❐ ❐ ❐

---

(١) رواه ابن عدي والديلمي عن علي. (المؤلف). [أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١١٢)، وضعفه العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣٦٠)].

(٢) رواه ابن ماجه، والحاكم عن عبدالله بن عمر. (المؤلف). [أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم باللفظ الآخر].

(٣) رواه الحاكم عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه أبو داود (٢١٧٧)، والدارقطني (٩٤)، والحاكم (٢٧٩٤)، والراجح فيه أنه مرسل لا يصح. انظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ٢٠٥)].



١٤ ـ حقن الدماء

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الإسراء: ٣٣]؛ أي: لا تقتلوا النفسَ المؤمنةَ التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله إلا بالحقِّ، وهو سببٌ يبيح سفك دمه، وأخبرنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الحق الذي تُباح به النفسُ هو واحد من ثلاثة: النفسُ بالنفس، والثيبُ الزاني، والمرتدُّ التاركُ لدينه. وهذا أيضاً أمرُه للسلطان؛ إذ إنَّ الحدودَ والقصاصَ بيده دونَ سواه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

وقتلُ النفس من الكبائر الهادمة للعمل الصالح، ومن الفواحش التي حذرنا الله تعالى منها بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الأنعام: ١٥١].

وأفردها بالذكر؛ تعظيماً لجريمة القتل، ولأنها كبيرةٌ مهلِكة، وقد عدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الموبقات، وهي المهلِكات، محبطات العمل، فقال ﷺ في حديث رواه البخاري، ومسلم: «اجتنبوا السبعَ

الموبقات»، قيل: ما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الإشراكُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتولِّي يومَ الزحف، وقذفُ المُحْصَنات الغافلاتِ المؤمناتِ»[1].

ومثلُ قتل النفس العَوْنُ على قتلها، حتّى بالكلام، أو الإرشاد، أو الدلالة؛ كما روى البخاري، ومسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أعانَ على قتلِ مؤمنٍ بشطرِ كلمةٍ، لقيَ اللهَ مكتوباً بينَ عينيه: آيِسٌ من رحمة الله»[2].

ويُباح للرجل قتلُ مَنْ شَهَرَ عليه السلاحَ، ولا يستطيع حفظَ نفسه إلا بقتله، كما يباح له قتلُ من اعتدى عليه في داره، أو اعتدى عليه في عرضه، أو على ماله، ولا يستطيع تخليصَ المعتدي عليه من يده إلا بالقتل.

وقد ورد في التحذير من قتل النفس أحاديثُ كثيرة؛ تعظيماً لشأن هذه الجريمة، وعظمِ خطرها الاجتماعي، وأنها لا ينفع معها عملٌ، وأنها فاحشةٌ ومنكرٌ منذ عقل الإنسان. وشدد الدينُ الإسلامي بالتحذير منها، كما شددت الأديانُ السماوية التي قبله؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) الحديث لم يخرجه البخاري، ولا مسلم، وإنما أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠) وَحْدَه من أصحاب الكتب الستة، وهو حديث ضعيف؛ كما في «التلخيص الحبير» لابن حجر(٤/ ١٤). والله أعلم.

وروى البخاري عن ابن عمر قولَ الرسول ﷺ: «لن يزالَ المؤمنُ في فُسْحَةٍ من دينِهِ ما لم يُصِبْ دماً حراماً»[1].

وروى البخاري، ومسلمٌ أيضاً: أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عَمَّنْ قتل مسلماً متعمداً، ثم تاب واهتدى، فقال: «أنى له التوبة؟» سمعتُ نبيكم ﷺ يقول: «يجيءُ المقتولُ متعلقاً بالقاتل تَشْخَبُ أوداجُه دماً، فيقولُ: أَيْ رَبِّ! سَلْ هَذَا فيمَ قَتَلني؟»[2].

وروى البخاري، ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً، إلا كانَ على ابنِ آدم الأولِ كِفْلٌ منها؛ لأنه كانَ أولَ مَنْ سَنَّ القتلَ»[3].

ومثلُ قتل النفس: الانتحار، وهو أن يقتل الإنسانُ نفسَه. والله عز وجل أمرنا أن نحفظ نفوسَنا بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]؛ أي: لا يعرّض أيُّ مؤمن نفسَه للخطر؛ لأن ذلك يؤدي إلى الضرر، والضررُ يعطل الجسمَ، فتتعطل مصالحُ الشخص الدينيةُ والدنيوية، وربما كان هذا الشخص من ذوي المكانة، ويُعتمد عليه في المصالح العامة، فإذا انتحر، أو عرض نفسه لتهلكة، تعطلت بتعطيله، ويقول عز وجل تحذيراً من ذلك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَن

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٩٩٩)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، ولم أجده في «الصحيحين»، ولا من عزاه إلى «الصحيحين».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

﴿يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء: ٢٩ ـ ٣٠].

فالمؤمنون ما داموا أهلَ دين واحد، فهم كنفس واحدة؛ فلا يحل اعتداءُ بعضِهم على بعض، ومن اعتدى على مؤمن، كان كمن اعتدى على نفسه، ومن اعتدى على نفسه، كان كمن اعتدى على غيره من المؤمنين.

وروى البخاريُّ، ومسلمٌ عن جُنْدُبٍ، عن رسول الله ﷺ، قال: «كان فيمَنْ كان قبلَكم رجلٌ به جرحٌ، فجزعَ، فأخذَ سكيناً، فحزّ بها يدَهُ، فما رَقأَ الدمُ حتى ماتَ، فقالَ اللهُ تعالى: بادَرَني عبدي بنفسِه، حَرَّمْتُ عليه الجنةَ»[1].

والانتحارُ شطرٌ من الجنون، ومحاربةٌ للخالق ﷻ؛ لأنه جَزَعٌ، والجزعُ من قضاء الله وقدره محاربةٌ له.

روى البخاري، ومسلم، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «مَنْ تَرَدَّى من جبل، فقتل نفسَه، فهو في نار جهنّم يَـتَرَدَّى خالداً مُخَلَّداً فيها أبداً، ومَنْ تَحَسَّى سُمًّا، فقتلَ نفسَه، فسمُّه في يده يَـتَحسّاه في نارِ جهنَّمَ خالداً مُخَلَّداً فيها أبداً، ومن قتـلَ نفسَه بحديدةٍ، فحديدتُـه في يده يَـتَوَجَّأُ بها في نار جهنَّمَ خالداً مخلّداً فيها أبداً»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٣)، ومسلم (١١٣)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

وهذا بيان لأن قاتلَ النفس مخلَّد في النار أبداً، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٣].

وقد اختلف العلماء في: هل لقاتلِ النفسِ عمداً توبة؟ فقال بعضهم: «لا» كما قال ابن عباس، وقال آخرون: «نعم»؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢].

أما قتلُ الخطأ، فقد أوضحه الله لنا في كتابه، كما وضح كفارته فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾[النساء: ٩٢]؛ فلا سبيل لمؤمن إلى قتل مؤمن آخرَ إلا بالخطأ، ومن غير قصدٍ لذلك، والخطأ كثير؛ كصدم سيارة، أو رمية طائشة، أو وقوع عليه، أو نحو ذلك.

وعلى هذا الخطأ كفارة، وهي تحرير رقبة مؤمنة، حيث لم يوجب عليه القصاص لخطئه، فوجب عليه أن يخلص بكل عضو منه ما يقابله من عضو رقبة مسلم من الملك إلى الحرية؛ على أن تكون هذه الرقبة سالمةً من العيوب؛ لتكون عضواً عاملاً في المجتمع الإسلامي، وكذا دية مسلَّمة إلى أهله تؤخَذ من عاقِلَته في مدةٍ لا تتأخر عن ثلاث سنين، وكانت الديةُ مئة من الإبل، أو قيمتها، وقد قرر الشرعيون قيمتَها

بألف دينار ذهب، أو اثني عشر ألف درهم فضة.

والمحافظة على النفس مشروعة، بل مفروضة على كل مؤمن؛ بحيث لا يعرض نفسَه للأخطار، ولا يتركها عرضة للأخطار؛ فقد أمر الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتداوي دفعاً للأمراض، وقال: «إن الله أنزل الداء والدواءَ، وجعلَ لكل داءٍ دواءً؛ فتداوَوْا، ولا تَداوَوْا بحرامٍ»[1].

وروى الإمام أحمد عن أسامة بن شريك، قال: أتيت النبيَّ ﷺ، وأصحابَه، وكأنما على رؤوسهم الطير، فسلّمت عليه، ثم قعدتُ، فجاءت الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله! أنتداوى؟ قال ﷺ: «تَداوَوْا عبادَ الله؛ فإن اللهَ لم يضعْ داءً إلا وضعَ له دواءً، غيرَ داءٍ واحد: الهَرَمُ»[2].

وأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسّواك؛ دفعاً لأمراض الأسنان، حيث أثبت الطب الحديث أن أكثر ما يحصل للجسم من تسمّمات سببها الأسنان.

وحرم شربَ الخمر؛ لما فيها من كحول تعطل الأنسجةَ، وتخدرها، ولاسيما أنسجة الأعضاء الهضمية التي إذا وصل إليها عشرة جرامات من

(١) رواه الدارقطني عن أبي الدرداء. (المؤلف). [أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، وهو حديث ضعيف، ولم أجده عند الدارقطني].

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٣)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

الكحول، تعطلت، ولا يمكن أن تعمل حتى يصل إليها مثلها.

وحرّم الزنا؛ لما فيه من أمراض سرية، وحرم دخول الأراضي الموبوءة، وهذا ما يسمى الآن بالحَجْر الصحي، إلى غير ذلك من الأمور التي لا نستطيع حصرَها، والتي تدل على أن الدين الإسلامي دينٌ يجمع بين مصالح الدين والدنيا.

إن لديننا أوامرَ ونواهيَ يجب أن نُطيعها طاعةً تعبدية، وإنَّ ما نذكره من الحكم والأسباب إنما هو رأي، والدين فوق الرأي، فيجب على المسلم أن يؤمن أن أوامرَ الله ونواهيَه جاءت لنفع العباد وإسعادِهم في حياتهم وآخرتهم، وليكون كلُّ فرد منهم عضواً عاملاً ينفع المجتمعَ الإسلاميَّ كما ينفع خاصَّةَ نفسه. يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ»[1].

وروي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره، وكان مريضاً، أن يأتي الحارثَ بنَ كلدة أخا ثقيف ـ وكانَ طبيباً ـ ؛ ليتداوى عنده[2].

❐ ❐ ❐

(١) رواه مسلم، والإمام أحمد عن أبي هريرة. (المؤلف). [أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وأحمد (٢/ ٣٦٦)].

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٧٥)، وهو حديث ضعيف. انظر: «مشكاة المصابيح» (٤٢٢٤).



١٥ ـ رعاية اليتيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[الإسراء: ٣٤].

ومعناه: لا تأكلوا من مال اليتيم، ولا تقربوه بسوء، ولا تعرضوه لخسارة أو غرق أو حرق، إلا بالطريقة التي هي أحسن، وهي تنميته وحفظه حتى يبلغ ذلك اليتيم أَشُدَّه، وهو كمالُ عقله ورشده وإمكانه القيام بمصالح ماله، وإلا، فليس برشيد، وإن بلغ من العمر ما بلغ، ولا ينفك عنه الحَجْر.

فإن كان القيّم بالمال غنياً، فلا يأخذ من مال اليتيم شيئاً؛ لأن الله أغناه عنه، ومن كان فقيراً، فليأكل بالمعروف، ومتى رشد اليتيمُ، دفع إليه ماله كاملا بنمائه.

واليتيم هو الطفل الذي فقد أباً يرعاه بنفسه وماله، ويحبه من أعماق قلبه، ويؤثر مصلحته على مصلحته، ويخشى عليه محنَ الحياة وصروفَ الدهر، ويُحسن إليه بعطفه وبره.

أرأيت أباً يُحتضر وله صِبيةٌ صغارٌ ضعفاء، وهو ينظر إليهم؟ يتمنّى لهم وليًّا مرشداً يرعاهم كرعايته، ويجدون فيه من العناية

بمصالحهم والرأفة بهم ما يُطمئن نفسَ والدهم وهو في لحده، ويُنسيهم مرارة اليُـتم وشقاوته؛ إنه منظر يفتّت الكبدَ، ويؤلم القلبَ ولاشَكَّ!

إذاً، فالذي يكفل اليتيم ويتعهده، وينمي ثروته، ويهذب نفسه، ويعوضه عن والده ـ كافلاً رفيقاً، وراعياً رحيماً، وينسيه مرارة اليتم وألمه ـ جزاؤه عند الله صحبةُ الرسول الكريم، والتمتعُ بجنات النعيم.

والقيامُ برعاية اليتيم إحسانٌ عظيم دعا إليه الشرع الإسلامي، ودعت إليه الإنسانية، ورغَّبَ فيه القرآن الكريم في مواضع عديدة منها: قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾[البقرة: ٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[الضحى: ٩].

ولإصلاح مال اليتيم بتنميته وتثميره أجر كبير؛ لأن إهمال شأن اليتيم وتركَه لنفسه مفسَدَةٌ لخلقه، ومضيَعَةٌ لحقوقه، وفي القيام بواجبه خيرٌ له؛ لما فيه من صلاحه وتربيته، وخير للقائمِ عليه والكافلِ له؛ لما فيه من درء المفاسد، وإهمال المصلحة العامة، وليكون القائم قدوة حسنة لغيره في الدنيا، وفائزاً برضاء الله وثوابه في الآخرة.

ومن أفضل المؤسسات في البلاد الإسلاميّة: دوائر أموال الأيتام؛ لما في ذلك من حفظ أموالهم وتثميرها، ووضع اللجان لها، والمراقبة عليها؛ امتثالاً لأمر الله ﷻ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾[البقرة: ٢٢٠].

كما أن من أعظم المؤسسات نفعاً، وأكبرها أجراً، وأكثرها مصلحة للعامة: دورَ الأيتام ومدارسهم وملاجئهم؛ لأن في ذلك

حفظَهم عن التشرد، وحفظاً لخلقهم عن المفاسد، وقد حثنا المصطفى ﷺ على ذلك، وأفادنا أن من قام بكفالة اليتيم، فأحسن إليه وعلمه، فهو معه في الجنة سواء، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[النساء: ٥]؛ إشارة إلى تعليمهم علوم الإسلام التي هي دين وحياة، وكيف يتصرفون بأموالهم، وكيف يستطيعون أن يعيشوا حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، أو سائمة بلا تعليم ولا تربية، وكما قال أيضاً: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٢٢٠] إرشاد منه ﷻ إلى تهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم، وأن الله لا يرضى منا أن نهمل نفسية اليتيم، فنُعْنى بماله أكثرَ من عنايتنا بنفسه، إنما أرشدنا إلى أن نعامل هذا اليتيم معاملتنا لأولادنا، فلنفرضْ أن هذا اليتيمَ ولدُنا أفلا نحب له كافلاً أميناً؟!

ولنستمع قول الله ﷻ فيه: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩]؛ إذاً فلنحبَّ له ما نحبُّه لأبنائنا، وإن من تمام الإيمان: «أن يحبَّ المرءُ لأخيه ما يحبُّه لنفسِه»[1].

وقد ذمّ الله ﷻ في كتابه العزيز ذلك الذي يكذب بالدين، فيسيء إلى اليتيم الذي فقدَ مَنْ كان يحنو عليه، ويسعى لراحته، ويودُّ له الحياة الطيبة، والسعادة الكاملة، فلم يرحمه، ولم يحنَّ عليه، ولم يحسن إليه بكلمة طيبة تسلو بها نفسه، ويعود بها أنسه، ولم يَرْعَه رعاية

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك. (المؤلف). [تقدم تخريجه في (ص٩٨)].

جميلة، حتّى يظنّ أنّ الله أبدله من أبيه أباً كريماً، وبراً رحيماً.

هذا الذي أساء إلى اليتيم كذّب بالدين، وكان جزاؤه عند الله ويلاً وغضباً وحرماناً، فإذا كان الله ـ سبحانه عز وجل ـ حرم علينا الكلمة السيئة أن نقولها له، فأكلُ ماله أولى بالتحريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء: ١٠].

وإذا كان اليتيم عاجزاً عن المحاسبة والمراجعة، وإذا كان الحاكم لاهياً، والرقيب غافلاً؛ فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون. والدهر قُلَّب، والله بالمرصاد، والديان لا يموت، وكما تدين تدان، وسيموت هذا الظالم، ويترك أولاداً صغاراً يكون نصيبهم كنصيب ذلك اليتيم.

وأما اليتيم المعدم، فإنه من الرعية، والله سائلٌ كلَّ راع عما استرعاه، فإن لم يكن للحكومة قدرة على رعايته، ففي المسلمين متسع، وقد روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من عَالَ ثلاثةً من الأيتام، كان كمن قام ليلَه، وصام نهارَه، وغدا وراح شاهراً سيفَه في سبيل الله، وكنتُ أنا وهو في الجنة إخواناً، كما أن هاتينِ أُختان ـ وألصقَ أصبعيهِ السبابةَ والوسطى ـ»[(١)].

وروى الإمام أحمد: أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «امسحْ رأسَ اليتيمِ، وأطعمِ المسكينَ»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٨٠)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وحسن إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ١٥١).

ولم يقصد النبي ﷺ بمسح رأس اليتيم أن يضع يده على رأسه، وإنما قصد بذلك رعايته وبره؛ لأن اليتيم مظهرٌ من مظاهر العطف، فالعطف عليه تذكيرٌ للإنسان بأن أولاده عُرضة لأن يكونوا كذلك، فليخترْ لأولاد إخوانه المسلمين ما يختاره لأولاده، والبِرُّ لا يبلى، والإحسان لا يضيع، وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ قال: «من قبضَ يتيماً من بين مسلمين إلى طعامِه وشرابه، أدخله الجنّة البتّةَ، إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر»(١)؛ إذاً فليحافظِ الأوصياءُ على إحساس اليتامى وشعورهم؛ فلا يجرحوا يتيماً بكلمة بذيئة.

ومن كان له أولاد، وفي بيته يتيم أو يتامى، فلينبه أولاده إلى ألاَّ يمسوا خاطرَ اليتيم بسوء، وليجتهدْ في تربيته وتعليمه، وليعمل على إصلاح نفسه كما يعمل لأولاده، وقد أخبرنا المصطفى ﷺ «أن خيرَ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إليه، وشرَّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه»(٢).

وروى أبو داود عن عوف بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «أنا وامرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّيْنِ كهاتينِ يومَ القيامة»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي(١٩١٧)، وضعفه.

(٢) البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة. (المؤلف). [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٧)، وابن ماجه (٣٦٧٩)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (٢/ ١٢١٣)].

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٤١)، وأبو داود (٥١٤٩)، وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٢).

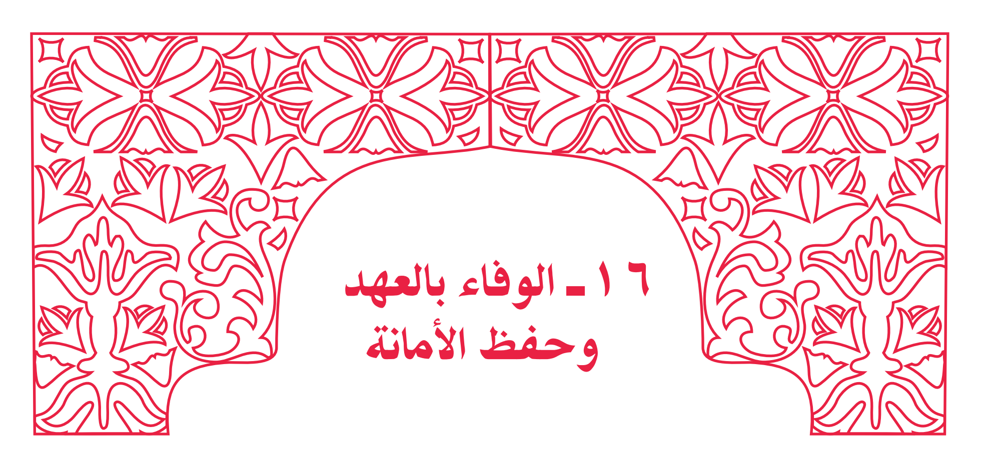
وسَفْعَاءُ الخدين هي امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال، مات زوجُها عن مال وأطفال، فحبستْ نفسَها على يتاماها، وقعدتْ على تربيتهم وتنشئتهم حتى شحب لونُها من قيامها على خدمتهم إلى أن رشدوا، فأخبر ﷺ أنها تبادِرُه الدخولَ عندما يفتح باب الجنة، ويسألها: من أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتام؛ فيعرفها، وإذا هي تلك التي كانت معه يوم القيامة.

وهناك أيتام آباؤهم أحياء، هم كالذين قال فيهم الشاعر:

لَيْسَ الْيَـتِيمُ مَنِ انْـتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ ... هَـمِّ الْحَيَـاةِ وَخَلَّفَـاهُ ذَلِـيلاً

إِنَّ اليَـتِيمَ هُـوَ الَّـذِي تَـلْقَى لَـهُ ... أُمًّـا تَخَلَّـتْ أَوْ أَبـاً مَـشْغُولاً

❒ ❒ ❒



قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء: ٣٤].

والعهدُ هو ما يلتزمه الإنسانُ على نفسه، والعهدُ والوعدُ معناهما واحد، إلا أن الوعد يتعلق غالباً بالمصالح الشخصية الوقتية، والعهد يتعلق بأمور ذات خطر وشأن، ينتج من الإخلال بها فساد كبير، وغالباً ما يكون العهدُ مقترناً بأيمان، ومقيداً بشروط، ومسجلاً بكتاب أو صحيفة، وموقعاً بتوقيع المتعاهدين، وتسمى تلك الصحيفة عقداً، لذا كان أمر العهد أخطرَ، ووجوب مراعاته أوكدَ، ومن نقض العهد، فقد غدر وخان، ومن وفى به، فهو أمين، ومن ترك إنجاز الوعد، فهو مخلِف، ومن صدق فيه، فهو منجِز.

ومن هذا نفهم أن العقد والعهد شيء واحد، والوفاء بالعقود والعهود من أهم الفرائض، وأَلْزَمِ الواجبات التي فرضها الله في الإسلام لنظام المعيشة وبقاءِ العمران بدوام الثقة بين الناس، ولتروج الصناعات والتجارات، ولتتبادل المنافع الحيوية التي لا غنى عنها بين الأفراد والأمم، وقد أمر الله تعالى نبيه وأتباعَ نبيه بالوفاء بالعهد والعقد والوعد في قريب من ثلاثين موضعاً في كتابه العزيز، ونبّه ـ سبحانه

وتعالى ـ أن مَنْ نقضَ العهد، فهو فاسق، وهو خاسر، وهو مفسد، وهو قاطع: قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٦ ـ ٢٧]، ومن ثَمَّ كان الوفاء بالعهود أعمَّ أثراً ونفعاً، وأطيبَ ثمراً وفائدة، وكان الغدر والإخلاف بالوعد أبين ضرراً، وأبشع خبراً؛أن الإخلاف بهما هادم للنظام، مُقَوِّض لدعائم العمران، قاتلٌ للشعوب والأمم.

ومن عُرف بالغدر من الناس، قلّت ثقةُ الناس به، وتجنّبوا مشاركتَه، والارتباطَ معه في الأعمال المالية والاقتصادية، وما فقدت أمةٌ الوفاءَ بالعهد إلا فقدتْ ركنَ الأمانة، وقوامَ الصدق، وحل بها من أنواع العقاب الإلهي العاجل ما تستحقه؛ لهذا عدّ النبي ﷺ ناقضَ العهد خارجاً من الإسلام، فقال: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له»[1]، ويقول أيضاً ﷺ في حديث طويل: «وما نقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلا سلط اللهُ عليهم عدواً من غيرهم، فأخذَ بعضَ ما في أيديهم»[2].

وأولُ شيء تفقده الأمة إذا أُصيبت بداء الإخلاف بالوعد: هو الأمانة؛ لأن الثقة في بعضهم تموت، فلا يثق الرجل بأهله،

(١) رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك. (المؤلف). [أخرجه أحمد (٣/ ٢٥١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٤)].

(٢) رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه. (المؤلف). [سبق تخريجه في (ص١٠١)].

ولا بأولاده، ولا بأقربِ الناس إليه؛ فيعيشون عيشةَ الأفراد متفرقين وإن كانوا مجتمعين، ضعفاء وإن كانوا كثرة، تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتى، فلا تحابُبَ بينهم ولا تعاونَ، ولا يأمن أحدُهم الآخر على التعامل معه إلا أن يستوثق منه بكل ما يقدر عليه، ويحترس منه بكل ما أمكن.

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾[النحل: ٩١]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤]، ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾[الأنعام: ١٥٢]، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾[المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وورد أيضاً من الأحاديث الشريفة في الترهيب من غدر العهد ما رواه البخاري، ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها: إذا ائْـتُمِنَ خان، وإذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصَمَ فجرَ»(١)، وما روياه أيضاً عن عمران بن حصين عنه ﷺ قال: «خيرُكم قرني، ثم الذين يَلونَهم ثم الذين يلونهم، ثم يكونُ بعدي قومٌ يَشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤْتمنون، ويَنْذرون ولا يوفون، ويظهرُ فيهم السِّمَن»(٢)،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٣٥٣٥).

وما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامة: رجلٌ أعطى بي ثم غدرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا ثم أكل ثمنَه، ورجلٌ استأجر أجيراً، فاستوفى منه العملَ، ولم يوفه أجرَه»(١)، وما رواه مسلم عن عبدالله بن عمر: أن النبي ﷺ قال: «إذا جمعَ اللهُ الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، فيقال: هذه غدرةُ فلانِ بن فلانٍ»(٢).

وقد بيّن الله ـ **سبحانه وتعالى** ـ أن الوفاء بالعهد من أسباب الفلاح، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٧]، وذكر أوصافهم حتى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ٨ ـ ١١].

ومن ضروب العهد: عقدُ الزواج، والوفاءُ به: حسنُ المعاشرة بين الزوجين؛ لأن الرجل استحلَّ زوجته بكتاب الله، وسنة رسوله؛ إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان. وعليها هي أن تطيع أمره،

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣٥)، وعند البخاري (٣١٨٨) محلّ الشاهد منه: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به».

وتحفظ أمانته؛ فإذا خالفا، أو خالف أحدُهما هذا العهد، فقد أخلف.

ومن ضُروب العهد: الوظيفةُ، والوفاءُ بها: قيامُ الموظف بعمله بإخلاص وصدق، سواء كانت الوظيفة خاصة؛ كوظيفة عند تاجر، أو عامة؛ كوظيفة حكومة.

ومن ضروب العهد: الاستشارةُ، فمن استشاركَ، فأشرْ عليه بما تحبه لنفسك، قال ﷺ: «مَنْ أشارَ على أخيه بأمر يعلم أن الرشدَ في غيره، فقد خانه»[1].

ومنه: تربيتُك لأولادك، وإنفاقُك على أهلك وعيالك؛ لأن الله ﷻ أودعك إياهم، وأمرك بتربيتهم، وأخذ عليك عهداً بذلك؛ فإن وفيت به، فقد كنت من المفلحين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦].

ومن ضروبه: الوديعة يودِعُك إياها صاحبُها، وعهدُ صاحبها عليك حفظُها، ثم ردُّها سالمةً في حين طلبها، فأصبح من الواجب عليك الوفاءُ بهذا العهد، والوديعةُ هي الأمانة، وقد أمرنا الله بحفظها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[النساء: ٥٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الأنفال: ٢٧].

ومنه: حفظُ السر، وإيفاءُ الوزن والكيل، ونصحُ الصانع إذا صنع،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، والحاكم (٣٥٠)، وهو حديث حسن. انظر: «مشكاة المصابيح» (١/ ٥٢).

والعاملِ إذا استؤجر.

ومنه: أحاديث الناس في مجالسهم؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «المجالسُ بالأمانات إلا ثلاثةَ مجالسٍ: سفكُ دمٍ حرام، واستملاكُ عرضٍ حرام، أو اقتطاعُ مالٍ بغيرِ حَقّ»[1].

ومنه: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «تركُ السلامِ على الضَّريرِ خيانةٌ»[2]؛ فإن الضرير قد لحقه من المصاب ما أوجب عليك أيها البصير حمدَ الله وشكرَه بأن مَنَّ عليك بما سلبه؛ فوجب عليك أن تسلِّم عليه، وتَهديه الطريقَ، وتُسرع إليه بالمعونة؛ فإن لم تفعل، فقد خنته.

وقد بيّن ﷺ أن أداء الأمانة سر بركة أمته، فقال: «لا تزال أمتي بخير ما لم تَرَ الأمانة مَغْنَماً، والصدقةَ مَغْرَماً»[3]؛ أي أن الأمة الإسلامية باقية بخير وسعادة وصلاحِ حال إلى وقت تتغير فيه النفوس، وتقل الثقة بين الأفراد، فيرون الأمانةَ غنيمةً ويستحلونها، والصدقة والزكاةَ ضريبةً فيمنعونها؛ فعندها يتبدلُ حالهم من خير إلى شر، ومن

(١) رواه أبو داود عن جابر بن عبدالله. (المؤلف). [أخرجه أبو داود (٤٨٦٩)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٩٠٩)].

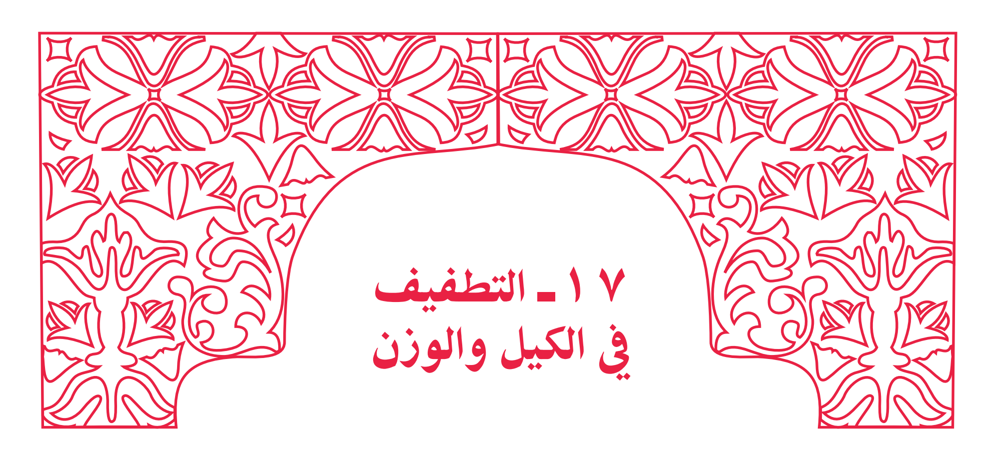
(٢) رواه الديلمي عن أبي هريرة. (المؤلف). [وهو حديث ضعيف؛ كما في «السلسلة الضعيفة» (٣٣٩٩)].

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وقد ورد معناه في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٢١٠) بسند ضعيف عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة، حل بها البلاء»، فقيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً...» الحديث. قال الترمذي: «هذا حديث غريب».

سعادة إلى شقاء، ومن صلاح وفلاح إلى خسران وفساد.

وقد كانت الأمانة والوفاء بالعهد والمحافظة على الوعد من أخص صفاته ﷺ؛ حتى إن مشركي مكة الذين لم يؤمنوا به، وأنكروه، وأنكروا دعوته، قد ائتمنوه على أموالهم، ووثقوا به في حفظ ودائعهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ووفقنا للاقتداء بسنته، واتباعِ شريعته.

❐ ❐ ❐



١٧ ـ التطفيف في الكيل والوزن

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[الإسراء: ٣٥].

ومعناه: أتموا الكيل والوزن في بيعكم وشرائكم، أو عندما تكونون واسطة بين البائع والشاري؛ لأن التفاوت فيه قليل، والوعيد عليه كبير، والوفاء خيرٌ، ومآله أحسن، وبخس الكيل والميزان والذرع خيانة؛ لأنها أمانة، وسرقة؛ لأن المشتري والبائع لا يعلم بما بخست من حقه، وتدليس؛ لأنه خديعة وغش، وكلُّ ذلك إثم؛ ولهذا أكد الله تعالى في النهي عنها، وشددَ الوعيدَ لمرتكبيه، فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[المطففين: ١ ـ ٣].

وقد يكون لبعض الناس مكيالان أو عياران أو ذراعان، يبتاع بأحدهما، ويبيع بالآخر؛ وهذا هو التطفيف أو البخس.

وقد حكى الله في كتابه العزيز عن شعيب مع قومه عندما بعث إليهم، فقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَاتَّقُوا

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٩]، فكان عاقبتهم أن الله ﷻ أرسل عليهم الظلة؛ وهي غبارٌ خانِقٌ أهلكهم عن آخرهم، ولم يُفدهم بخسُهم.

أنزل الله ﷻ الميزانَ حاكماً عدلاً، فلم يكلف المعطي بأن يعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يكلف الآخذ الرضا بأقل من حقه؛ فإذا حكم الميزان، وجب الرضا بحكمه؛ لأنه عدل، ولا حقَّ لأحد على أحد، وقد نُهينا عن أن نأكل أموالَ بعضنا بالباطل، وأيُّ باطل أشدُّ من التطفيف؟! كما أن المصطفى ﷺ أنذرنا بأن الله ﷻ يعذب من يبخس المكيال والميزان بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان، كما تقدم في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه، فالسنون هي الجفاف والقحط، وشدة المؤونة عسرُ المعيشة، وجورُ السلطان ظلمُه وبغيُه، وأفادنا أصحاب النبي ﷺ أن أول ما يحاسب به الإنسان الصلاة والمكيال؛ كما روي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال: «إنما الصلاة مكيال، فمن أوفى، وُفِّي له، ومن طفّف، فقد سمعتم ما قال الله تعالى في المطفّفين»(١). ولم يقل سلمان هذا من عنده.

وروى الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٧٩).

يكفر الذنوب كلّها إلا الأمانة». وقال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، وإن قُتل في سبيل الله، فيقال له: أَدّ أمانتك، فيقول: أَيْ ربِّ! كيفَ وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانتُه كهيئتها يومَ دُفعت إليه، فيراها، فيعرفها؛ فيهوي في أثرها أبد الآبدين»، ثم قال ابن مسعود: «الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشدُّ ذلك الودائع»[1].

والحق كما قال ابن مسعود أن الوزن والذرع والعدَّ أمانة، ونقصه وبخسه سرقةٌ وخيانة، وقد مر علينا الحديث الشريف: **«لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له»**[2]، وأشبه بذلك شَدُّ اليدِ في الذَّرْع وقتَ البيع، وإرخاؤها عند الشراء.

والكيّالون والوزّانون والعدّادون الذين يكيلون ويزنون ويعدون لغيرهم من غيرهم واجب عليهم أَلَّا يلتفتوا لبائع ولا لشارٍ، وكذا القسامون الذين يثق الناس بهم في قسمة أراضيهم أو بيوتهم واجبٌ عليهم إبراءُ ذممهم، فلا يلتفتوا لأحد القسمين والخصمين، وشر الناس من ظلم الناسَ للناس، واللهُ لا يحب المعتدين.

الأرزاق لا تكون بالخداع، ولا بالمقدرة على الكذب والخيانة؛

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٢٦٦)، وهو ضعيف. انظر: «ضعيف الجامع» (٤١٣٠).

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه الطبراني(١٠٥٥٣)، وقد سبق تخريجه (ص١٤٢).

فلا العاجزُ يفوت رزقُه الذي قسم له، ولا الغادر القوي والمحتال يحصل فوقَ ما قدر له، إنما هي كالآجال مقدَّرَة ومقرَّرَة، وإنما هو سعيٌ واجب محتم لإيصال هذا الأمر المقدر، والمقسوم المقرر، وإنما هنالك وعد من الله، والله لا يخلف وعده.

إن الخائنَ في عمله مرذولٌ لا ينجح، والمدلِّسَ في صناعته خاسرٌ لا يفلح، والغاشَّ في تجارته أبداً لا يربح، و«مَنْ غشّنا فليسَ منّا»[(1)] كما قال ﷺ، وخسران الكيل والميزان ونحوهما غشٌّ وسرقة، والرسول عليه السلام يقول: «لا يسرقُ السارقُ حينَ يسرقُ وهو مؤمنٌ»[(2)].

وكثيراً ما نرى الغاشَّ المدلِّس وقد أوتي جشعاً وحبًّا في هذه الدنيا، وكلما أتته الدنيا، زاده إتيانُها طمعاً بما في أيدي الناس، وهذا مصداقُ الحديث القدسي؛ فقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «عبدي! إن رضيتَ بما قسمتُه لك، أرحتَ نفسَك بذلك، وكنتَ عندي محموداً، وإن لم ترضَ سَلَّطْتُ عليك الدنيا تركضُ فيها رَكْضَ الوحشِ في البريّة، ولا ينالُكَ منها إلا ما قسمتُه لك، وكنتَ عندي مذموماً»[(3)].

فما أحسنَ عملَ التاجر الأمين إذا فتح محلَّه صباحَ كلِّ يوم معتمداً على الله، مبتغياً فضلَ الله، أميناً مع الله، صادقا مع عباده، لا يعتمد

---

(1) رواه الطبراني عن ابن مسعود. (المؤلف). [أخرجه الطبراني (١٠٢٣٤)، والحديث في «مسلم» (١٠١)؛ كما سبق في (ص٩٩)].

(2) رواه مسلم عن أبي هريرة. (المؤلف). [أخرجه مسلم(٥٧)، وهو في «صحيح البخاري» أيضاً برقم(٢٤٧٥)].

(3) لم أجده.

على وظيفة محدودة الراتب، ولا على عملٍ معدودِ الأجر، وهذا غايةُ التوكل مع العمل. والتاجرُ الصدوقُ الأمينُ مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين؛ كما أخبر بذلك سيد المرسلين.

ومن ضروب التطفيف: شراءُ السرقةِ من السارق، وبيعُها على الناس؛ فقد روى الحاكم وغيرُه عن النبي ﷺ: أنه قال: «من اشترى سرقةً، وهو يعلم أنها سرقةٌ، فقد اشترك في عارِها وإثمِها»[(١)].

ومن ضروب التطفيف: الغشُّ، وكتمان العيب؛ لما روى مسلم: أن رسول الله ﷺ مَرَّ على صُبْرَةِ طعام، فأدخلَ يده فيها، فنالت أصابعُه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟»، قال: أصابته السماء يا رسولَ الله، قال: «أفلا جعلتَه فوقَ الطعام حتى يراه الناسُ: مَنْ غشّنا، فليسَ منّا»[(٢)].

ومن ضروب التطفيف: الاحتكار، وفي حديث رواه ابن ماجه عن عمر بن الخطاب: أن الرسول ﷺ قال: «الجالبُ مرزوقٌ، والمحتكرُ ملعون»[(٣)]، وقال: «من احتكرَ على المسلمين طعامَهم، ضربَهُ اللهُ بالجُذام، والإفلاس»[(٤)]. والجذام: كلُّ مرض يأبى الناسُ الاختلاطَ بصاحبه؛ كالجرب، والسل، وسائر الأمراض السارية.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٢٥٣)، والبيهقي (١٠٦٠٨)، وهو حديث ضعيف.

(٢) سبق تخريجه في (ص١٥٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٥٣)، والبيهقي (١٠٩٣٤)، وضعفه.

(٤) رواه أحمد وابن ماجه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: (المؤلف). [أخرجه أحمد (١/ ٢١)، وابن ماجه (٢١٥٥)، وضعفه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٦٠٦)].

وروى الطبراني عن معاذ بن جبل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المحتكرُ إنْ أرخصَ اللهُ الأسعارَ حَزِنَ، وإن أغلاها فَرِحَ»[1].

ومن ضروبه: النَّجْش: وهو أن يزيدَ في ثمن السلعة لا يريد شراءها، أو يمدحُها ليروِّجَها.

ومن ضروب التطفيف أيضاً: إنفاقُ السلع بالحلف، وقد أخرج مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه: أن النبي عليه الصلاة والسلم قال: «ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم»، قلت: خابوا وخسروا، مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل إزاره، والمنّان، والمنفقُ سلعتَه بالحلف الكاذب»[2].

وفي رواية: «ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يومَ القيامة: أُشَيْمِطُ زانٍ، وعائلٌ مستكبِرٌ، ورجلٌ جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»[3].

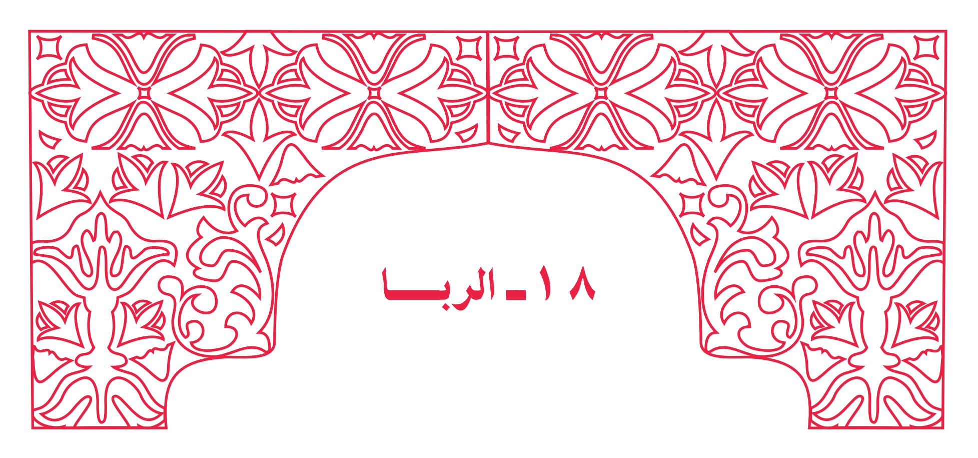
وأعظم الأيمان وزراً، وأكبرُها إثماً اليمينُ الغموس: وهي اليمين الكاذبة؛ فسواء حلفَ بالله، أو بصفات الله، أو بحق الله، أو بكتاب الله، فكلها أيمانٌ، وحكمُها حكمُ اليمين.

❐ ❐ ❐

(١) لم أجده في المطبوع من «المعجم»، وقد عزاه إليه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٨٢)، وضعفه.

(٢) أخرجه مسلم(١٠٦).

(٣) أخرجها الطبراني في «الكبير» (٦١١١)، وفي «الصغير» (٨٢١)،وهي رواية صحيحة. انظر: «صحيح الترغيب» (١٧٨٨).



١٨ ـ الربـــا

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ومعناه: أن الذين يعاملون بالربا لا يقومون من قبورهم إلا كما تقوم الناقة الخَبوطُ التي تخبطُ الأرضَ بقوائمها؛ لما بها من مسّ. ومعنى المسّ: الجنون.

أو أن الذين يأكلون الربا عندما يقومون لشؤونهم يقومون وكأنهم مأخوذون؛ لما بهم من جشع وطمع، أو خوف على أموالهم التي في أيدي الناس، وهذا شأنُ كلِّ مُرابٍ؛ فهو دائماً في وَجَل وخوف على ماله، ولا ينسى ذلك إلا عندما يأتيه زبون لاقتراض مال منه، ولا يرتاح إلا عندما تنتهي المعاملة، فإذا انتهت، داخَلَهُ الخوفُ والوَجَل، فهو دائماً في هَلَعٍ على ماله، وفي طمع لتجديد معاملة مع غيره.

والله ﷻ حرم الربا، وأحلَّ البيع؛ لأن البيع أخذُ ربح بحق مشروعٍ: يبتاع مالاً، ثم يبيعه، وهذا المال يشترك فيه: الحمال، والجالب، والبائع بالجملة، والبائع بالقطاعي، وصاحب السفينة، والزارع،

والتاجر، وكثير من الناس؛ من عمال، وأصحاب مهن مختلفة. أما الربا، فإنه أخذُ ربح من غير طريقه المشروع، وليس فيه تبادلُ مصلحة، ولا معاملةٌ إلا بين اثنين، وفي ذلك تعطيلٌ للمصالح، وموجبٌ لانقطاع المعروف بين الناس.

رُوِي في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن عبدالله، عن الرسول ﷺ: أنه «لعنَ آكلَ الربا، ومُوكِلَه، وكاتِبَه، وشاهِدَيْه، وقال: هُمْ سَواء»[1].

والربا نوعان: فضلٌ، ونسيئة؛ فالفضلُ هو الزيادة، والنسيئة هو الأجل، وقد ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الذهبُ بالذهب؛ وَزْناً بوزن، مِثْلاً بمِثْلٍ، والفضةُ بالفضةِ؛ وزناً بوزن، مِثْلاً بمثلٍ؛ فمن زاد، أو استزاد، فقد أربى»[2]، وفي رواية: «التمرُ بالتمرِ، والحِنْطةُ بالحِنْطة، والشعيرُ بالشعيرِ، والملحُ بالملح؛ مِثْلاً بمِثْلٍ، يَداً بيدٍ؛ فمن زادَ أو استزادَ، فقد أَرْبى، إلا ما اختلف ألوانه»[3].

وروى مسلم عن عُبادة بنِ الصامِت رضي الله عنه قولَه ﷺ: «الذهبُ بالذهب، والفضة بالفضة، والبُرُّ بالبر، والشعيرُ بالشعير، والتمرُ بالتمر، والملحُ بالملح؛ مِثْلاً بمثل، سواءً بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفتْ هذه

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٨٨)، وفيه: «فمن زاد أو استزاد فهو ربا».

(٣) أخرجها أحمد (٢/ ٢٣٢) بإسناد صحيح.

الأصنافُ، فبيعوا كيفَ شئتُم إذا كانَ يداً بيدٍ»(١).

ومثل ربا النسيئة ما رواه البخاري، ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهبُ بالذهب رِباً إلا هاءَ وهاءَ، والوَرِقُ بالورق رباً إلا هاءَ وهاءَ، والبُرُّ بالبر رباً إلا هاءَ وهاءَ، والشعير بالشعير رباً إلا هاءَ وهاءَ، والتمرُ بالتمر رباً إلا هاءَ وهاءَ»(٢).

والنوع الثالث: ربا القرض، وهو المعروف بين الناس في زمننا هذا، وتحريمه أشدُّ من غيره، وهو كلُّ قرض جَرَّ نفعاً إذا اشترط عليه أن يرد عليه أفضلَ مما أسلَفَه، فإن لم يشترط فضلاً في وقت القرض، فرد المستقرضُ أفضلَ مما أخذ، جاز. ويدل على ذلك ما رُوي عن مجاهد: أن ابن عمر رضي الله عنه استلف دراهمَ، فقضى صاحبَها خيراً منها، فأبى أن يأخذها، فقال: هذه خيرٌ من دراهمي، فقال ابن عمر: قد علمتُ، ولكن نفسي بذلك طيّبة(٣).

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٧٥]. ومعناه. أن الله أحل البيع؛ لما فيه من مصالح تتعلق بمجموعة كبيرة من الناس، وحرم الربا؛ لكونه سبباً لانقطاع المعروف بين الناس. فمن علم ذلك، وتحققه، وتذكر أن الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨٧).

(٢) أخرجه البخاري(٢٠٢٧)، ومسلم (١٥٨٦).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٣٦٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٧٢٦).

لا يريد إلا خيراً، ولا يريد لهذا العالم إلا عمراناً، وضحَّى بمصالحه الخاصة للنفع العام، وتركَ منها ما فرضه على الناس ربحاً خاصاً، واستحصل من ديونه رأسَ ماله فقط، فأمرُه إلى الله. واللهُ لا يريد بالناس إلا مصلحتَهم، ورحمتُه وسعَتْ كلَّ شيء.

أما من عاد إلى أكل الربا، واستحلَّه بعد أن حرمه الله، فذلك من الخالدين في عذاب الله.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٦]؛ لأن المرابي لا يستفيد من ماله شيئاً؛ فهو دائماً في فقر وشقاء، وليس له من الأعمال الصالحة شيء؛ فلا تقبل منه صدقة، ولا حج، ولا صِلة. وأما الكسب الحلال، فإن الله يبارك فيه لصاحبه في الدنيا، ويضاعف له الثواب في الآخرة بما يقدمه من أعمال طيبة، ومنافع مثمرة، وهذا مصداقٌ للحديث الذي رواه البخاري ومسلم مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ قوله: «ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقة من كسب طيّب ـ واللهُ لا يقبلُ إلا الطيّبَ ـ إلا أخذَها الرحمنُ بيمينه، وإن كانت تمرةً، فتربو في كَفِّ الرحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبل، كما يُرَبِّي أحدكُم فَلُوَّه»[1].

ثمّ يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٧] لأنهم صدقوا بالله ورسوله، وتجنبوا منهيات الله، وعملوا الصالحات التي أمرهم الله بها، وأدوا ما عليهم من واجبات في

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

أبدانهم وأموالهم، فهؤلاء لهم أجرُهم عند ربهم ثواباً لأعمالهم، ولا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة.

ومن الأحاديث الواردة في تغليظ تحريم الربا، وما أعد لآكله من العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم، ما رواه البخاري عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرض مقدسة، فانطلقنا حتى أتينا على نهرٍ من دمٍ فيه رجلٌ قائم، وعلى شَطِّ النهرِ رجلٌ بين يديه حِجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج، رمى الرجلَ بحجر في فيه، فرده حيث كانَ، فجعل كلما جاءَ ليخرجَ، رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا الذي رأيته في النهر؟ قال: آكل الربا»(١).

وروى الحاكم عن ابن عباس، قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تُشْتَرى الثمرةُ حتى تطعم(٢).

وقال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلّوا بأنفسهم عذابَ الله»(٣).

وروى ابن ماجه عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «ما أحد أكثرَ من الربا إلا كانَ عاقبة أمرِه إلى قلّة»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري(١٣٨٦) مطوّلاً.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣٦)، بلفظ: «نهى عن بيع الثمرة...»، ورواية المؤلف أخرجها الطبراني (١١٧٨٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٢٢٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٧٦٥): «إسناده صحيح».

ومن الربا: الدراهم التي يأخذها الدائن على المدين حين حلول الوعد، ويسميها بعضُ الناس: نزول الوعدة، أو أجرة فلوس، وكذلك انتفاع المرتهن بالمال المرهون، أو الحيلة في التخلص من الربا بأشياء كثيرة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا تخفى عليه حيلةُ محتال، ومنها البيع والشراء الصوري لاستحلال الربا.

روى الإمام أحمد، والبيهقي عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «يبيتُ قومٌ من هذه الأمّة على طعم وشرب، ولهو ولعب، فيصبحوا وقد مُسخوا قردةً وخنازير، ولَيصيبنّهم خسفٌ وقذفٌ، حتّى يصبح الناس، فيقولون: خُسف الليلةَ ببني فلان، وخُسف الليلة بدار فلان، ولتُرْسلنّ عليهم حجارةٌ من السماء كما أُرسلت على قوم لوط على قبائل فيها، وعلى دور، ولترسلنّ عليهم الريحُ العقيم التي أهلكت عاداً على قبائلَ فيها وعلى دورٍ؛ بشربهم الخمرَ، ولبسهم الحرير، واتخاذِهم القينّاتِ، وأكلِهم الربا، وقطيعةِ الرحم، وخصلةٍ نسيها جعفر»[1].

ومما ورد من الأحاديث في تغليظ تحريم الربا وبشاعته وسوء فعل مرتكبه الحديثُ الذي رواه الطبراني وأحمدُ عن عبدالله بن حنظلةَ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «درهمُ رِباً يأكلُه الرجلُ وهو يعلمُ أشدُّ عندَ الله من ستّةٍ وثلاثينَ زَنْيَـةً»[2].

❒ ❒ ❒

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ١٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (٥٦١٤)، وأشار إلى ضعفه المنذري في «الترغيب» (١/ ٢٩٠). ولم أجده في المسند، وقد عزاه في «كنز العمال» (١٦/ ١٢٠) إلى عبدالله في «زوائد المسند». والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٨٢)، وقوَّاه الحافظ في القول المسدد (ص ٤١).



١٩ ـ حفظ السمع والبصر واللسان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]؛ أي فلا تتبع ما ليس لك به علمٌ؛ فلا تقلْ: رأيتُ، ولم ترَ، ولا تقل: سمعتُ، ولم تسمعْ، ولا علمتُ، ولم تعلم، ولا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم، ولا تنقل خبراً لم تعتقد صحتَه، فإنك مسؤول عن سمعك وبصرك ولسانك وقلبك يوم القيامة، فالسمعُ يُسأل، والبصر يسأل، والفؤاد يُسأل ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤].

فعلى المسلم أن يحفظ سمعَه ولسانه عن الغِيبة والنميمةِ والكلام المحرَّم، وأن يحفظ بصرَه عن النظر الحرام، وأن يحفظ فُؤاده عن الظن الحرام، والله يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[النور: ٣١]، ويقول تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

وإن أعظم الأعضاء خطراً: اللسان، ولهذا كان هو أولَ الشاهدين على المرء يوم القيامة، وهو ليس كغيره من الأعضاء، فهو يجول في

كل شيء، ولهذا قال ـ عليه الصلاة وأزكى السلام ـ: «وهَلْ يكبُّ الناسَ في النارِ على وجوههم إلا حصائِدُ ألسنتهم؟»[1]، وفي حديث رواه أحمد عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه»[2].

إذاً فواجبٌ على المسلم المكلّف أن يحفظ لسانه عن كل كلام إلا ما ظهرت فيه المصلحة الدينية؛ كأمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو دفاع عن عرض، أو دفاع عن دين، أو إرشاد، أو ذكر، أو ظهرت فيه المصلحة الدنيوية؛ ككلام في بيع أو شراء، أو تعليم أو سياسة، أو كلام مباح في مجلس؛ ولكن قد يجر المباحُ أحياناً إلى مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، فعلى المؤمن أن يحذر، ولا ينسى قولَ الله ﷻ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[قٓ: ١٨]، ومن خاف سلم.

روى البخاري، ومسلم في «صحيحه»: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ العبدَ ليتكلّمُ بالكلمةِ من رضوانِ الله لا يُلقي لها بالاً يرفعُه اللهُ بها درجاتٍ، وإن العبدَ ليتكلّمْ بالكلمة من سَخَطِ الله لا يُلقي لها بالاً يَهْوي بها في جهنَّمَ»[3].

---

(١) رواه أحمد وغيره عن معاذ بن جبل. (المؤلف). [أخرجه أحمد (٥/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»].

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وهو حديث حسن بطرقه. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٨٦٤).

(٣) أخرجه البخاري(٦٤٧٨)، ولم أجده في مسلم، وإلى البخاري وحده عزاه الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح(٤٨١٣). والله أعلم.

أما الآن، فإننا نأسف إذا قلنا: إن المسلمين قد كثر فيهم خطأ اللسان، وعدم المبالاة في الكلام، حتى إننا نرى المتكلمَ يتكلم في المجلس العام أو الخاص؛ رجلٌ قصدهُ إضحاكُ السامعين، ولو كان في ذلك هلاكُه، أو هلاكُ مَنْ سمع، أو هلاكُ مَنْ سمع عنه، ومن كانت هذه صفته، فهو اللطيف الخفيفُ الدمِ والروح، وهو أفضلُ الرجال، وهو المقدَّمُ في المجلس كائناً من كان.

ومن محرَّمات الكلام: الفجوُر في المخاصمة، والإخبار بما لم يقع، وفي الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عبدالله ابن عَمْرِو بن العاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِن خان، وإذا حدَّثَ كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ»[1].

ومن محرَّمات الكلام: السباب، وقد نهى الإسلام عنه، وبين ﷺ أنه فسوق، وأن من تعود السب كان فاسقاً؛ فقد روى البخاري، ومسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «سبابُ المسلمِ فُسوقٌ، وقتالُه كفرٌ»[2].

ومنه اللعنُ: وقد شدّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في النهي عنه؛ لحديث رواه أبو داود عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ: أن النبي ﷺ قال: «لا تَلاعَنُوا

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٦)، ومسلم (٦٤).

بلعنةِ اللهِ ولا بغضبِه ولا بالنار»[1]، والحديث الذي رواه أبو داود عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن العبدَ إذا لعنَ شيئاً، صَعِدَتِ اللعنةُ إلى السماء، فتغلق أبوابُ السماءِ دونَها، ثم تأخذُ يميناً وشمالاً، فإن لم تجدْ مَسَاغاً، رجعتْ إلى الذي لُعِنَ؛ فإن كان أهلاً، وإلا رجعتْ إلى صاحِبِها»[2].

فالكذب، والفجور، والمخاصمة، والسباب، واللعنُ صفاتٌ تحرم في كل شيء، وعلى كل شيء، لا على ابن آدم فقط، بل على جميع شأنك: عملك، وأمتعتك، وحيوانك؛ فلا يليق بالمسلم المؤمنِ أن يكون فَحّاشاً بلسانه، شديداً على أهله، بذيئاً على حيوانه، كذوباً في أقواله، مُدَّعياً بما ليس فيه أو عنده؛ فإن المؤمن هيّن ليّن، وآلفٌ مألوف، والرسول ﷺ أخبرنا في حديث رُوي عن أنس ابن مالك، قال: «ما كانَ الرفقُ في شيءٍ إلا زَانَه، ولا نُزِعَ من شيء إلا شَانَه»[3]، وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ الله؛ فإن كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعدَ الناسِ من الله القلبُ القاسي»[4]، وإن الله تعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦)، وقال: «وهذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود، وهو حديث حسن. انظر: «صحيح الترغيب» (٢٧٩٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٥١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤١١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

﴿قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٢٢]، ويقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[الكهف: ٢٨].

ومن عثرات اللسان والقلب: النفاق، وهو أن تقول بلسانك ما ليس بقلبك، وذلك هو الخداع، أو التزلف، وقد يكون نتيجةً لحسد، وقد يكون نتيجة لمكر؛ بدليل قول النبي ﷺ ـ كما روى الشيخان ـ: «وتجدونَ شَرَّ الناسِ ذا الوجهينِ الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاءِ بوجهٍ، ومن كان له وجهان في الدنيا، كانَ له يومَ القيامةِ لسانانِ من نار»[١].

ومما روي من الأحاديث المرغِّبة في حفظ اللسان والسمع والبصر والقلب، والمُرَهِّبة من إطلاقها فيما لا يحلُّ من الكلام: ما رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والظنّ؛ فإن الظنّ أكذبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدَابَروا، وكونوا عبادَ الله إخواناً كما أَمركم، المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُه، ولا يخذلهُ، ولا يحقرهُ، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ـ، بحسب امرئٍ من الشَّرّ أن يحقرَ أخاه المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ: دمهُ، وعرضُه، وماله»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٣)، ومسلم (٢٥٢٦) بالشطر الأول فقط، دون قوله: «ومن كان له وجهان...»، وقد أخرجه أبو داود (٤٨٧٣)، والدارمي (٢٧٦٤)، وابن حبان (٥٧٥٦) بالشطر الثاني دون الأول، وسنده حسن؛ كما في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣) مختصراً، ومسلم (٢٥٦٣) مفرَّقاً في حديثين.

وروى البخاري عن أَبي بكرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضَكم حرامٌ عليكم، كحرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، ألاَ هَلْ بلّغتُ؟»[(١)].

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! أخبرْني بعمل يُدخلني الجنة، ويُباعدني عن النار، قال ﷺ: «لقد سألتَ عن عَظيمٍ، وإنه ليسيرٌ على مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تعالى عليه، تعبدُ الله لا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيتَ إن استطعْتَ إليه سبيلاً»، ثم قال: «أَلا أدلّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنّة، والصدقةُ تُطفىء الخطيئة كما يطفىء الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجل في جوفِ الليل»، ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦ ـ ١٧]، ثم قال: «ألا أخبرُك برأسِ الأمرِ وعمودِهِ وذِرْوةِ سَنَامه؟»، قلت: بلى يا رسول الله! قال: «رأسُ الأمر: الإسلام، وعمودُه: الصلاة، وذروةُ سنامه: الجهاد»، ثم قال: ألا أخبرُك بمِلاكِ ذلك كلّه؟» قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، ثم قال: «كُفَّ عليك هذا»، قلت: يا رسول الله! وإنّا لَمُؤاخَذون بما نتكلَّم؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وهلْ يكبُّ الناسَ في النارِ على وجوهِهم إلا حَصائدُ ألسنتهم؟»[(٢)].

---

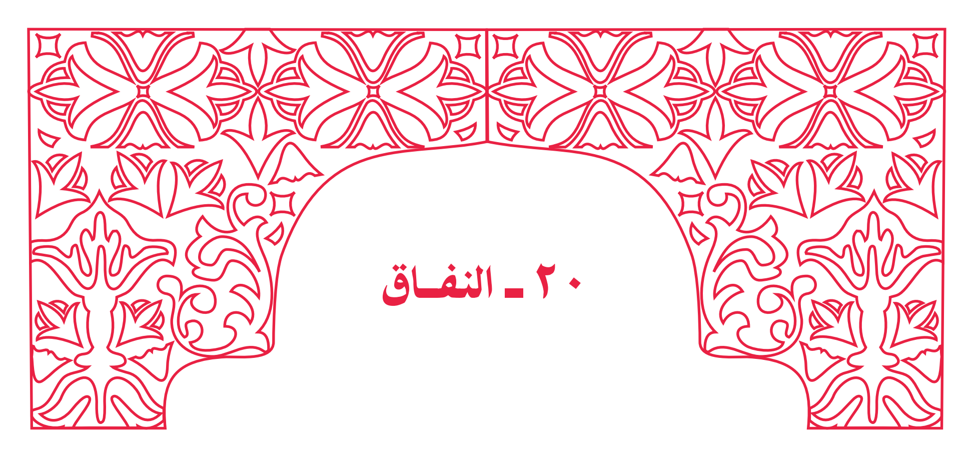
(١) أخرجه البخاري (٦٧)، وهو عند مسلم (١٦٧٩) بنحوه.

(٢) سبق تخريجه في (ص١٦٢)، وهو هناك مختصر، وقد ساقه هنا بتمامه.

فمن هذا الحديث الجامع نفهم أن اللسان فارسُ الميدان: يجولُ ويصولُ في كل شيء، وأن خطأه قد يؤدي إلى الهلاك، كما قال الأعرابي: لسانك لسانك إن صنته صانك، وإن هنته هانك، وإن عثراتِ اللسان أشدُّ على المرء من وَقْع السِّنان، وكم كلمةٍ فصلت رؤوساً عن أجساد، وكم كلمةٍ أودعَتْ قائلها غياهب السجون، وأوقعت صاحِبَها في المهالك، وكم كلمةٍ قالت لصاحبها: دعني!

فليجتهدِ العاقلُ في حفظ لسانه، وليتق اللهَ في نفسه، وليتقيدْ في كلماته، وليحذر من هفواته؛ فإن الله مع المتقين.

❐ ❐ ❐



٢٠ ـ النفـاق

قـال اللـه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣].

إنَّ المنافقين يخادعون رسولَ الله وأولياءه؛ لأنهم يُخفون غيرَ ما يُظهرون، ومن يخادع الله ورسوله، فهو أولى بمخادعة الناس؛ فهم إن صَلَّوا، راؤوا بصلاتهم، ولم يصلُّوها لله، وإنما صلَّوها للناس، وإذا كانـوا بمعـزل، تركـوها، ولا يذكـرون الله إلا إذا كانـوا فـي الناس، فلا هم مع المسلميـن فـي شيء، ولا مع الكـافريـن فـي شيء ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقـرة: ١٤]، وربما أخفى بعضهم مخادعـةَ الناس؛ خوفاً من شرٍّ يصيبه، أو أَذىً يلحقُ به، فهو يخشى الناس، واللهُ أحقُّ أن يخشاه، ولكن الله خادعُهم، ولا شك أن الغلبة لله سبحانه.

هـذا شأنُ المنافقيـن فـي كـل ملَّـة، وفـي كـل أُمَّـة: يخادعـون، ويَكذبون، ويَكيدون، ويَمكرون، ويَغشون، ويخونون، ويتولون أعداء

أمتهم ودينهم، ويتخذون لهم يداً عندَهم، يستميلونهم بها إذا دالتِ الدولةُ على قومهم لعدوِّهم، ولكن حالَهم لا يخفى على الأمتين.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِىءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فالمنافقون يخادعون قومَهم، ويخادعون أعداء قومهم، وربما أخلصوا للأعداء طمعاً فيما يصيبونه من حطام زائل، ولكنهم يهدمون بناء الثقة بهم بأيديهم، وكم من منافق كانت خيانته لأمته ومساعدتُه لأعدائها عليها سبباً في هلاكه بيد أولئك الذين ساعدهم في إهلاك أمته، وكأنهم يقولون: لو كان في هذا خير، لكان قومُه أولى بخيره، فإن كان قد خانهم، فستكون خيانته لنا أشدَّ. وكتبُ التاريخ ملأى بحوادث المنافقين الذين ساعدوا الأعداء على قومهم، ثم هلكوا، وخلَّد التاريخُ لهم سُبَّةً يتحدث بها الخلفُ عن السلف، ولا يمحوها كَرُّ السنين.

والمنافقون طلابُ منافع، ولو فيما يضر أمتهم، أو الناسَ أجمعين؛ فهم كما قال الشاعر:

كَرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ مُرْسَلَةٍ لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ

وهم لا تروج تجارتُهم إلا في وقت ضعف الأمة وقوة أعدائها: «إذا الريح مالت، مالَ حيثُ تميل». والمنفعةُ تلتمس من الأقوياء؛ فهم يطلبونها، ويسعون لها، ويعملون في سبيلها، وإن اقترن التماسها بالعار، والذلةِ والصَّغار؛ لأنهم كما قال المثل: خدامُ مصلحة.

وصَف لنا رسولُ الله ﷺ المنافقَ لنحذره، ونتباعد عنه بهذا

الحديث الذي أخرجه البخاري، ومسلمٌ عن عبدالله بنِ عمرِو بنِ العاص: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافِقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّث كذبَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ»(١).

فالنفاق إذاً وصفٌ عام لمن اجتمعت فيه هذه الخصال الشائنة: الكذب، والخيانة، والغدر، والفجور.

فالنفاق إذاً أعمُّ من الكذب؛ لأن الكاذبَ يخبر بالقول عن وقوع أمر ليس بواقع، أما المنافقُ، فإنه يخبر بلسان قوله تارة، وبلسان حاله تارة أخرى عن أمر يزعم أنه منطوٍ عليه، وثابتٍ في نفسه، والحقيقةُ ضدُّ ذلك، ثم هو يوهم الناسَ ويُقنعهم زوراً بحسن حاله، وطيبِ سريرته؛ فكأنّه عاهدَهم على الثقة به، والاعتماد عليه؛ فيبقى خائناً لهم إلى ما شاء الله، ويبقون هم مخدوعين به ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[التوبة: ٥٦ ـ ٥٧]، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ٦٢].

ولهذا نرى القرآن الكريم لم يحمل على خُلُق من مساوىء الأخلاق مثلَما حملَ على النفاق، ولم يتوعَّدْ على منكرٍ كما توعَّدَ عليه، حتى إنه جعلَ منزلةَ المنافقين في نار جهنم تحتَ منزلة

(١) تقدم تخريجه في (ص١٦٣).

المشركيـن، فقـال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: ١٤٥].

وذلك كلُّه لِما للنفاق من قبيح الأثر في الإفساد، وإن الناس العائشين في نفاق تراهم في نهارٍ من ظواهرهم، ولكنهم في ليلٍ أَلْـيَلَ من بواطنهم، تحسبُهم أيقاظاً في أحاديثهم وأمانيهم، وهم رُقودٌ في هِمَمِهم، نيامٌ عن خدمة مصالحهم العامة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقين: ٤].

يقضون حياتهـم فـي الغَفَـلات، وجـرِّ المصالح لخاصةِ أنفسِهم، ويُمَنُّون أُمتهـم وقومَهـم بالأمانـي الباطلـة؛ لكي يُسندوا لهـم أمراً، أو يحفظـوا لهـم صوتـاً فـي كرسيٍّ انتخـاب، أو مركـز بارز، ثـم هـم لا يعرفون إلا أنفسَهم إذا فازوا، فإذا تولوا الأمور يوماً ما، قضوا علـى الأمـة المسكينـة بالمواثيـق الغاشمة، والمعاهـدات الكاذبـة، والأمـاني المزورة، حتى يقضيَ الله فيهم أمره، وينفذَ فيهم سنّته.

وربما أظهر المنافقُ من نفسه أمامَ الناس أنه على علم غزير، أو أخلاق حسنة، أو أعمال صالحة، أو مساعٍ مبرورة في خدمة الدين، أو القومية، أو الوطن، أو الإنسانية، وقد يكلفه قومُه القيامَ بمسعىً مبرور في المصالح العامة، أو في المشاريع الخاصة، فيظهر لهم موافقته، وربما يرتبط معهم فيه، وهو ينوي في باطنه مخالفتهم، أو هدمَ مشروعهم، وقد يقـف هذا الموقـفَ مع آخريـن وآخريـن، فيكون مع

كل أحد، وليس هو في الحقيقة إلا مع نفسه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٦٧]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

قال بعض الحكماء القدماء: إن لله عباداً ألسنتُهم أحلى من العسل، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصَّبِر، لبسوا للناس جلودَ الضأن من اللين؛ ليجروا الدنيا بالدين. هذا هو النفاق الاجتماعي.

أما النفاق الديني، فقد تقدم الكلامُ عليه في الدرس الأول، وهو أن يُسِرَّ المرءُ من دينه غيرَ ما يظهره.

ومن النفاق: أن يلتمس المرء رضاء الناس بما يُغضب ربه؛ فيوافق الظالم على ظلمه لمصلحته، ويكون دائماً على الضعيف مع القوي؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرَة: «أعاذك اللهُ من إمارة السفهاء»، قال كعب: وما إمارة السفهاء يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنّتي؛ فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا منّي، ولستُ منهم، ولا يَرِدُون على حوضي؛ ومن لم يُصَدّقهم بكذبهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم، فأولئك منّي، وأنا منهم، وسَيَرِدُون على حوضي، يا كعبُ بنَ عجرةَ! الصيامُ جُنَّة، والصدقة تطفىء الخطيئةَ، والصلاةُ قربان، يا كعبُ بنَ عجرةَ! الناسُ غاديان:

فمبتاعٌ نفسَه فمعتقُها، وبائعٌ نفسَه فموبقُها»[1].

وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن، يقولون: نأتي الأمراءَ فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا، ولا يكونُ ذلك؛ كما لا يُجْتنى من القَتادِ إلا الشوك، كذلك لا يُجتنى من قربِهم إلا الخطايا»[2].

❒ ❒ ❒

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢١)، وابن حبان (٤٥١٤)، والحاكم (٢٥٦٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٥)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (١/ ٩٣).



٢١ ـ النّميمة والحسد

[عن كتاب «الأخلاق والواجبات» للشيخ عبد القادر المغربي، بتصرف].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦].

والنميمةُ من عثرات القلب واللسان، وهي أن ينقل شخص لآخر من أحوال ثالث وأخباره ما يسوءُهُ ويغضبه، أو يفسد عليه أمراً دبـَّرَه، أو مصلحةً يحاول قضاءها. ولا يخفى ما ينتجه ذلك من فساد وشرّ وتباغض بين الأحبّاء؛ ولهذا حرم الدين الإسلامي النميمة، وعابها القرآنُ، وذمَّ من كان هذا خلقه، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: ١٠ ـ ١١].

وبيّن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن النميمة من الأخلاق الدنيئة التي تبعد صاحبها عن الإيمان، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ليسَ مِنِّي ذو حَسَدٍ ولا نميمةٍ ولا كهانةٍ، ولا أنا منه»[1].

---

(١) رواه الطبراني عن عبدالله بن بسر. (المؤلف). [عزاه إلى الطبراني الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٧٢)، وذكر أن فيه متروكاً؛ فالحديث ضعيف جداً].

ومن النميمة: التجسس، وهو نقلُ أخبار الناس إلى الحكام وذوي السلطة للإيقاع بهم، أو مصادرة أملاكهم، أو نفيهم، وهذا أفحشُ النمائم، وأشدّها ضرراً؛ نهانا عنها القرآن بقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات: ١٢]، وذم مَنْ يفعلها بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

ومن كريم خلق المصطفى ﷺ، وشدّة مقته لهذا الخلق الشائن: ما رواه أبو داود عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أنه قال: «لا يبلّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً؛ فإنّي أحبُّ أن أخرجَ إليهم وأنا سليمُ الصدر»(١)، كما بيّن ﷺ أن صاحب هذا الخلق الشائن معذّبٌ في البرزخ، موعودٌ بحرمانه من النعيم في الآخرة؛ فقد روى البخاري، ومسلم: أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ النبي ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ مر بقبرين، فقال: «إنّهما لَيُعَذَّبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدُهما، فكان لا يستترُ من البول، وأما الآخرُ فكان يمشي بين الناسِ بالنميمة»(٢)، كما رويا عن حذيفة ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «لا يدخل الجنة قَتَّات»(٣)، وفي رواية: «نمَّام»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأشار إلى ضعفه بقوله: «هذا حديث غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢)، وليس عندهما: «بين الناس».

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٤) أخرجها مسلم (١٠٥).

وإنّما كان إثمُ المتجسّسِ عظيماً؛ لأنه يعمد إلى أناس ابتُلوا بزلات أو هنات ارتكبوها، واستَخْفَوا بها عن أعين الناس؛ خوفاً من الفضيحة، أو رهبةً من الحكام، ولا يزال المتجسسُ يدأب ويسعى، حتى يقع على خبرهم، ويهتك السترَ عن مكتومِ أمرِهم، ثم ينقل ذلك إلى الحكام، وهذا لا يجوز في الإسلام كما علمت.

ويحذّرنا الله ـ جل جلاله ـ من أن نصغي إلى نقل الناقل، أو نأخذ خبره على ظاهره؛ لأنه فاسق بطبعه، وقد يكون فاسقاً بخبره، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]؛ ناهياً لنا أن نصدِّقَ ذلك المتجسّسَ إلا بعد التثبت من خبره، وشدّة التفحص في صحة قوله.

وسمّى الله ـ تبارك وتعالى ـ ذلك الناقلَ فاسقاً؛ لسوء صنيعه، وفساد خلقه، ثم إن تتبعَ السلطانِ لعورات الناس، وبحثَه عن أسرارهم أمرٌ مذموم؛ لأنه يغير قلوبهم عليه، ويبغضهم له، وهذا ما عناه حديث رواه أبو داود، والحاكم عن أبي أمامة وغيرِه من الصحابة: أن النبي ﷺ قال: «إن الأميرَ إذا ابتغى الريبةَ في الناس، أفسدَهم»[1]، وحديث رواه أيضاً أحمد، والبخاري عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لم أُومر أن أُنَـقِّبَ عن قلوب الناس، ولا أشقّ عن بطونهم»[2].

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤)، وأبو داود (٤٨٨٩)، والحاكم (٨١٣٧)، وهو حديث صحيح. انظر: «صحيح الترغيب» (٢٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤)، والبخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، واللفظ له.

ومنشأ النميمة: الحسدُ، وهو تمني زوالِ نعمة الغير؛ فإذا تمكن هذا التمني من قلب المرء، وغفل عنه، فلم يتطهر منه، بقي في نكد إلى الأبد، وقد قيل: الحسد مبراة الجسد؛ لأن صاحبه دائماً في غمّ يضعفه، وحزن يؤلمه، ومرض يهدم صحته، وكمد يذوي جسده. ورُوي عن الإمام علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ قولُه: «صحةُ الجسد من قلّة الحسد».

وقد أمر الله نبيه أن يستعيذ من الحاسد والحسد بقوله في سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[الفلق: ٥]، كما ذمّ الباري ـ **جل جلاله** ـ في كتابه العزيز أولئك الذين يتمنون زوال نعمة الله عن عباده حيث قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

فالحاسد دائماً يخفي من نفسه الغدر، ويترقب الفرص ليكيد بالمحسود الغافل الذي آتاه الله من نعمه، وأمدَّه بواسع فضله، فهو دائماً في سهر للكيد، وفي كدرٍ مما يرى من نعم الله على غيره، فإذا واتته الفرص، كاد لصاحبه. ونعمُ الله على العباد لا تنقطع، وأنواعُها متعددة، وكمدُ الحاسد ينقطع بانقضاء أجله.

وضررُ الحسد بالحسود أشدُّ منه بالمحسود؛ لأنه يأكل من قلبه، ويحرق في دمه، والمحسودُ في غفلة من متاعب الحاسد وهمومه؛

فهو في راحة، والحاسدُ في تعب، وما أصدقَ قولَ الشاعر إذ يقول:

إِنِّي لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لَحَرِّ مَا ... ضَمَّتْ صُدُورُهُمُ مِنَ الأَوْغَارِ

نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعُيُونُهُمْ ... فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ

والحسدُ خُلُق ذميم، ومركزه دائماً نفسُ لئيم؛ لأن الحسود ـ عادة ـ لا يحسدُ البعداء عنه، وإنما يحسد أصدقاءه، وأقرباءه، وذوي الفضل عليه على عيشهم الهنيِّ ورزقهم الرغيد، وإذا تجددت لأحدهم نعمةٌ، أو جاءه حظ من دنيا، حسدَه عليه، ولا يألو جهداً في إيصال الشر إليه، ولكن سنة الله في خلقه أن الحسود خائبٌ خاسر، وفي الأثر: «لله دَرُّ الحسدِ ما أَعْدَلَه! بدأ بصاحبه فقتلَه»، وقيل أيضاً: «الحسود لا يسود».

ومن الأحاديث الواردة في ذم هذا الخلق المذموم الممقوت ما رواه أبو داود عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والحسدَ؛ فإنّ الحسد يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ»[(1)]، وما رواه أحمد، والترمذي عن الزبير رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: البغضاءُ والحسدُ، هي الحالقةُ؛ حالقةُ الدين، لا حالقةُ الشعر، والذي نفسُ محمدٍ بيده! لن تؤمنوا حتى تَحَابُّوا؛ ألا أنبئكم بشيء إذا أنتم فعلتُموه تَحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[(2)].

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، وقال البخاري: «لا يصح». انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣١).

(2) أخرجه أحمد (١/ ١٦٤)، والترمذي (٢٥١٠)، والبزار (٢٢٣٢)، وإليه =

وقوله ﷺ: «ليس منّي ذو حسد»[1] دليلٌ على أن الحسد من الأخلاق التي تُباعد عن الإيمان، وما أهلكَ قابيلَ ابنَ آدم وأبعدَه عن رضوان الله ورضاء أبيه، وجعلَه يقتل أخاه، ويتحمل خطايا القاتلين من الناس إلا الحسدُ، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[النساء: ٣١]؛ لأن هذا من الحسد.

وفي الحديث الذي رواه الشيخان، وأحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نظرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المال والخلق، فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه»[2]، فهذا أنجعُ دواء للحسد.

وما أحسنَ مَن وصفَهم القرآنُ بسلامتهم من هذا الداء المهلِك، والخلقِ الذميم، والخَصْلَة الشائنة ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ٩ ـ ١٠].

أخبرنا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن المؤمن يَغْبِط، والمنافق يَحْسُد، والغبطةُ هي أن تتمنى نعمةً مثلَ نعم الآخرين، لا أن تتمنى زوالها؛ وذلك هو الحسد.

= عزاه الهيثمي، وقال: «وإسناده جيد».

(١) ضعيف جداً سبق تخريجه (ص١٧٥).

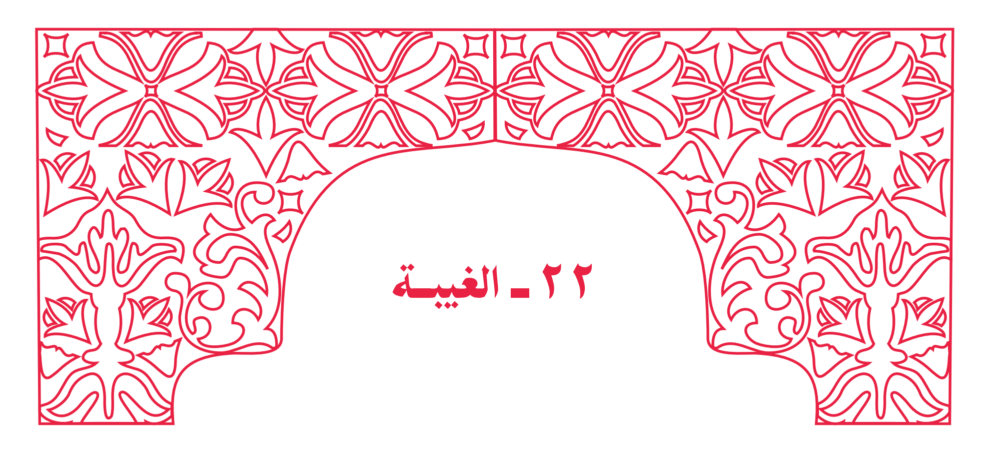
(٢) أخرجه أحمد(٢/ ٣١٤)، والبخاري(٦١٢٥)، ومسلم(٨).

وتقدّم أن شرَّ الناس ذو الوجهين، الذي يكيد لك من حيث لا تعلم، يُشهد اللهَ على ما في قلبه أنه محبٌّ مخلصٌ يريد الخيرَ لك، ويتمنى النجاحَ لمستقبلك، والفوز لك في مساعيك، وهو ألدُّ الخصام. وقد حذرنا ﷺ ممن كان هذا خلقه؛ فقد روى البخاري، ومسلم عن رسول الله ﷺ قال: «وتَجدون شَرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[(١)].

وروى أبو داود، وابنُ حِبان عن عمارِ بنِ ياسرٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار»[(٢)].



(١) (٢) سبق تخريجه في (ص١٦٥).



٢٢ ـ الغيبـة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

نهانا الله تعالى أن يغتاب المسلمُ أخاه المسلم، وقد فسر لنا النبي ﷺ الغيبة ما هي؟ فقال في حديث رواه مسلم: «أتدرون ما الغيبة؟»، قلنا: الله ورسولُه أعلم، قال: «ذكرُك أخاك بما يكره»، قيل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكنْ فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[(١)]؛ أي: كذبت عليه، واغتبته في نفس الوقت، وارتكبتَ وِزْرَيْن: وزرَ الغيبة، ووزر الكذب.

وقد شبّه الله ﷻ الغيبة بأشدّ ما ينفر منه طبعُ الإنسان، وهو أكلُ لحم بشر ميت؛ فالمُستغابُ غافل لا يعلم كالميت، وما تناوله المغتاب من استطالة في عرض المستغاب نهشٌ للحمه، والقرآنُ صور الغيبةَ بهذا الشكل البشع؛ لينفِّر الناس منه، وليطهروا أخلاقهم،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).

ولينزهوا ألسنتهم منه، وتقوى الله تعالى أساسُ الطهارة؛ لأنها طهارة الباطن، والله تواب على من تاب، رحيمٌ لمن أناب.

حرم الدين الإسلاميُّ الغيبةَ؛ لما لها من عواقبَ سيئة على المجتمع؛ فهي تسبب العداوة والبغضاء بين الناس، ثم هي مضيعة للوقت الثمين بالاشتغال بما يضر ولا ينفع، ويَسوء ولا يَسُرُّ، ثم هي اعتراضٌ على الخالق ـ جل جلاله ـ؛ فإن المغتاب أولَ ما يغتاب من المستغاب خِلْقته: طوله، أو عرضه، مشيته، أو شكله؛ وكل ذلك من صنع الله، وليس للمستغاب فيه شأن!

ومهما كانت بشاعةُ الغيبة، فإن وقعَها على النفس سارٌّ، ولاسيما إذا كان المستغاب مكروهاً أو عدواً، لكن قلْ للمغتاب: هل ترضى من عدوك هذا أن يغتابك، ويظهر من مساويكَ ما سترتَ، كما أظهرت ما ستر من مساويه؟ هل تفرغت من عيوبك فأصلحتها؟ ومن نفسك فهذبتها؟ ومن سيئاتك فحسنتها؟ ومن غلطاتك فصححتها؟ هل ربّيت بنيك؟ وأدبّت ذويك؟ وهل أصلحتَ فسادك، وسددت أخطاءك؟ هل أصلحت عيوبك حتى تذكر عيوب غيرك؟

إن نبيك ﷺ يقول: «طوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوب الناس»[(١)]، ويقول أيضاً: «عاملِ الناسَ بما تحبُّ أن يُعاملوك به»[(٢)].

---

(١) رواه الديلمي عن أنس. (المؤلف). [وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٥٦٣)، وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٤٩)].

(٢) لم أجده.

لقد تساهل الناسُ في الغيبة؛ لأنها بطبيعتها سهلـةٌ ليّـنة، لا تكلّفهم مشقةً سوى تحريكِ اللسانِ في الفم، لا سيما إذا كان المستغابُ عدواً لمن في المجلس، أو لبعضهم؛ لأنهم يتشفّون بذكر معايبه، ويتلذّذون بما يسمعون عنه من سوء، أو يُذكر به من نقص، كما يتلذّذ الظمآن بالماء ليطفىء به حرارة جوفه، ويبل به صداه، لكنها في الحقيقة انتقامُ عاجز، وسلاحٌ في يد جبان؛ لأن المغتاب دائماً ينهزم عندما يعلم بحضور المستغاب، أو أحدِ مُحبيه، وربما أبدلَ هجاءه بمدح، وذمَّه بثناء. وما أحسنَ قولَ القائل:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَـا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى ... وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُـكَ صَـيِّنُ

لِسَانُكَ لاَ تَذْكُرْ بِهِ عَـوْرَةَ امْـرِىءٍ ... فَكُلُّكَ عَـوْرَاتٌ وِللنَّـاسِ أَلْـسُنُ

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبْـدَتْ إِلَيْـكَ مَـسَاوِئاً ... بِقَوْمٍ فَقُلْ يَـا عَـيْنُ لِلنَّـاسِ أَعْـيُنُ

فَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِـالَّتِي هِـيَ أَحْـسَنُ

والغيبةُ تباعد صاحبَها عن الإيمان الحقِّ، لأن من شروط الإيمان أن تعامل الناس بما تحبُّ أن يعاملوك به، ومن يغتبْ، فقد خالف ذلك.

وقد حرم الإسلام الغيبة، وشدَّد في تحريمها، إلا في المصالح الشرعية مما يتوقف تحققها على ذكر عيوب الآخر وقبح أعماله؛ وهذه إما أن تكون في مصلحة خاصة؛ كأن يظلمك رجل، فتصفَ مَنْ ظلمك لأولياء الأمر حتى يُنصفوك منه، أو في مصلحة عامة؛ كأن يكون الرجلُ مجاهراً بأعمال منكرة، أو قائماً بدعوة مخالفة، ومزاعمَ

باطلة؛ مما ينشأ عنها فسادٌ في العقيدة، أو في البلاد، أو فتنة بين المسلمين؛ فلك أن تصف من أعماله ومفاسده وسوء مقاصده للحكام والرأي العام، حتى تساعدَ على تدارك أمره، وكشف ستره، وكفِّ شرّه، وهذا ما عناه القرآن الكريم بقول الله ﷻ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[النساء: ١٤٨].

فالله لا يحبّ من عباده أن يجهر بعضُهم بسيّئات البعض الآخر؛ لأن في ذلك فساداً للمجتمع، وتشتيتاً للشمل، وتفكّكاً في الوحدة، ثم إن الجهر بالسوء على مسامع السامعين يؤثر في النفوس تأثيراً ضاراً؛ لأن الإنسان مقلِّد، ومن سمع شخصاً يذكر آخر بسوء؛ لكرهه إياه، أو بغضه له، أو لاستيائه منه، قلَّده في ذلك القول، وربما زاد فيه من عنده شيئاً لم يقلْه ذلك القائل.

والتقليدُ من أكبر أمراض الهيئة الاجتماعية، ولاسيما في الأحداث والعوامِّ؛ لأن الحدث يقلد مَنْ هو أكبرُ منه سنّاً، والعاميُّ يقلّد من هو أكبر منه قدراً ومقاماً. وإذا ظهرت المفاسدُ والمنكرات في الخواصّ، فلا تلبث أن تفشوَ في العوامّ، وسماعُ السوء كعمل السوء، فإنه يؤثر في نفس السامع كتأثير العمل في نفس الناظر.

وقد جهل كثيرٌ من الناس مبلغَ تأثير الكلام في نفوس السامعين وقلوبهم، فلم ينزِّهوا ألسنتَهم عن قول السوء، ولا أسماعَهم عن الإصغاء إليه، وكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نهانا عن الجهر بسيىء القول، نهانا عن الإسرار به أيضاً، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ

﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[المجادلة: ٩].

ومن الأحاديث الواردة في التحذير من الغيبة ما رواه الديلمي عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن شَغَلَه عيبُه عن عيوب الناس، وأنفقَ الفضلَ من ماله، وأمسكَ الفضلَ من قوله، ووسِعَتْهُ السنَّةُ، فلم يعدلْ عنها إلى البِدعة»[١].

وقد نظم بعضهم ذلك فقال:

لاَتَهْتِكَنْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا ... فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْراً مِنْ مَسَاوِيكَا

وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ... وَلاَ تَعِبْ أَحَداً مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

ولقد علَّمنا نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أَلاَّ نلقي أنفسنا في تيار الغيبة الجارف مع الذين يغتابون الناس، ولتكنْ فينا حميةٌ دينية نقف فيها موقفَ الحق أمام المغتاب المعتدي؛ فقد روى ابنُ أبي الدنيا عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا وُقِعَ في الرجل وأنت في ملأ، فكن للرجلِ ناصراً، وللقوم زاجراً، أو قُمْ عنهم»[٢].

ودخلت امرأة على النبي ـ ﷺ ـ في بيت عائشة تستفتيه في أمر، فلما خرجت، قالت عائشة: يا رسول الله! ما أقصرها!. فقال ﷺ:

---

(١) سبق تخريجه في (ص١٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٤٢)، وفي «الغيبة والنميمة» (١٠٧)، وهو حديث ضعيف. انظر: «ضعيف الجامع» (٧٣٠).

«مَهْلاً، إيّاكِ والغيبةَ!»، فقالت: يا رسول الله! إنّما وصفتُها بأمرٍ هو فيها، فقال ﷺ: «أجل! ولولا ذلكَ لكانَ قولك بهتاناً»[1].

وقال ميمونُ بنُ سيار أحدُ العباد المعروفين: بينما أنا نائم، إذا بجيفة زنجي، وقائل يقول: كلْ يا عبدالله، قلت: وما آكل؟ قال: كل بما اغتبت عبد فلان، قلت: واللهِ! ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً، قال: ولكن استمعتَ، ورضيتَ؛ فكان ميمونٌ بعدها لا يغتاب أحداً، ولا يدعُ أحداً يغتاب أحداً عنده.

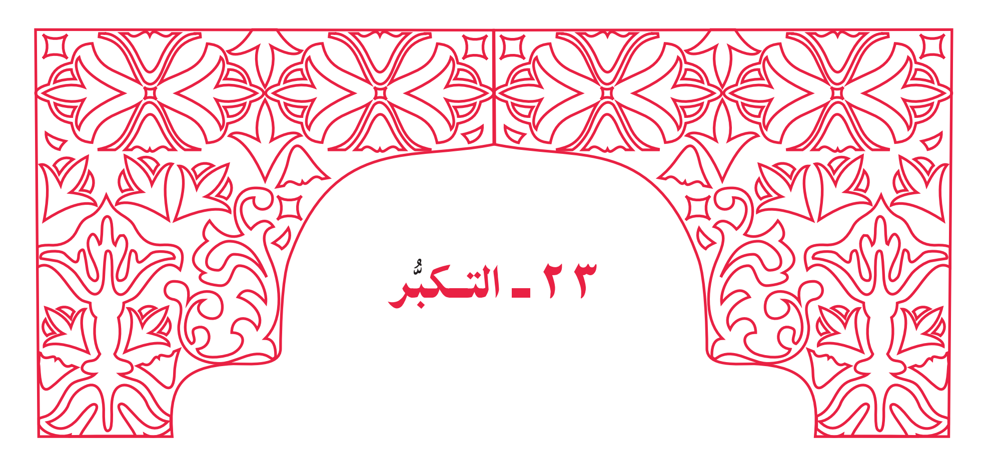
وقد بيّن لنا نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أن اللسان عدوٌّ لدود إذا تُرِك وشأنَه، وأنه صديق نصوح إذا قُـيِّد، فلا يكب الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم، وإن كلمتين خفيفتين يقولهما الإنسان يرفعانه عند الله درجاتٍ، وإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، والإرشاد إلى سبيل الخير والتعليم: من ثمار اللسان؛ كلها ترفع الإنسان إلى درجات الأبرار؛ ولهذا قال عليه السلام في حديث رواه البيهقي عن أبي حنيفة: «أحبُّ الأعمالِ إلى الله حِفْظ اللسانِ»[2].

❒ ❒ ❒

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٩٥٠)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٦١٥).



٢٣ ـ التكبُّر

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء: ٣٧].

أي: لا تمش في الأرض مختالاً متكبراً على الناس، فخوراً عليهم، متطاولاً فيهم، بل عليك أن تقصد في مشيك بين الإسراع الذي هو نوع من الخُيَلاء، والتأني الذي هو ضعف وخَوَر؛ فإنك مهما بالغت في كبريائك، فلن تخرقَ الأرض؛ لأنك غيرُ قادر على ذلك، ولا متطاولاً على الجبال، فهي أقوى منك مادةً، وأشدُّ صلابة، وأعلى هامَةً.

وقال الله على لسان لقمانَ إذ يقول لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٨ ـ ١٩].

والكِبْر: هو التعالي على الغير، وإظهارُ احتقارهم، وهو خلقٌ ممقوتٌ يُكسب صاحبه كرهَ الناس، ويوغر عليه صدورَ إخوانه، ويُخفي أعماله المبرورة، ويبرز مساويه المستورة، ويُعميه عن اتّباع

سبيل الحق كما أعمى عظماء قريش لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الدين واتّباعه، فقالوا أنفة واستكباراً: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾[الأحقاف: ١١]. يعنون بذلك الضعفاءَ الذين اتبعوه.

وشرطوا على محمّد ﷺ أن يطرد عنه أصحابه المستضعفين؛ كبلال، وعمار؛ ليستمعوا إليه؛ لأن التكبر الذي ملأ نفوسهم أعماهم، وأصمَّ أسماعهم عن الاهتداء بهديه، واستماع نصائحه، واتباع رشده، ومجالسة من اتّبعه من فقراء القوم ومواليهم ظناً منهم أنهم من طينةٍ غيرِ طينتهم، أو جنسٍ غيرِ جنسهم؛ فكان نصيبهم الحرمانَ في الدنيا، والعذابَ في الآخرة، ومثلُ ذلك كانت عاقبة جَبَلَةَ بنِ الأيهم الذي منعَه تكبُّره عن أن ينقاد إلى الحق، فعاش طريداً، ومات شريداً في بلدٍ غيرِ بلده، وبين قومٍ غيرِ قومه.

إن المتكبّر لا يشعر بخطئه؛ فهو يرى سيئه حسناً، وباطله حقاً، وضلالَه هدىً؛ فينصرف عنه الناس، وتتعطل مصالحه، وتضيع ثروته؛ فتقف أسباب معيشته، ويضيق رزقه، ويقل ماله، وتسوء حاله، ولا ترى أحداً يحترمه عن رغبة وإخلاص، ولكن ربما عن رهبة وخوف؛ فإذا تزعزع مركزه، ونزعت عنه صولته، أظهر له الناس كرهاً، وكانوا عليه بدلَ أن يكونوا له؛ لأن النفوس البشرية خُلقت حرة تكره الذل، وهذا المتكبّر يريد إذلالها، وتأبى الضيم، وهو يريد ضيمها.

والتكبّر داء خبيث، يسببه مُرَكَّبُ نقصٍ عند المتكبر، وأسبابه كثيرة:

منها: العلم: فقد يتكبّر العالم بعلمه، فيحتقر الناس، ويطلب منهم خدمته وتعظيمه، ويرى في نفسه أنه أعلمُ منهم بالله، وبما يقرب إلى الله. وهذا ليس بعالم حقيقة؛ لأن العلم هو الذي يعرف الإنسان بنفسه، ويعلمه حجة الله عليه، فيزيده تواضعاً واحتراماً للناس؛ لأن الناس عبادُ الله، وأقربُهم من الله أبرُّهم بعباده.

ومنها: كثرةُ العبادة والتهجُّد: فقد يتكبر العابدُ بعبادته، ويرى أنه الولي الوحيدُ لله، وأنه وارث الجنة، فيحتقر الناسَ، لأنهم أقلُّ منه عبادة، ويعظمونه، ويحترمونه؛ لما يرونه من انقطاعه لها، وهذا فعل جهلة المتعبدين، والرسول ﷺ ـ الذي كان أتقى الناس، وأورعَهم، وأكثرَهم عبادة لله، وأعرفَهم به ـ كان يأكل على الأرضِ، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويجيب دعوة المملوك، ويزور المرضى، ويقضي حاجة مَنْ يستعين به على قضاء حاجته، ويشتري بنفسه حاجته، ويحملها بيده، ومع ذلك، فهو يعلم أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومنها: شرف النفس: فقد يتكبر الحسيبُ النسيبُ بنسبه وحسبه، وينسى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]. قال ﷺ: «ثلاثٌ مُهْلِكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوىً مُتَّبع، وإعجابُ المرءِ بنفسِه»(١).

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٥٤)، وحسنه المنذري في «الترغيب» (١/ ١٠٨ = صحيحه) بمجموع طرقه].

ومنها: الغِنَى: فقد يتكبر الغني بغناه، والمالُ يُطغي، والناسُ تعبدُ المال، ولو عرف الإنسان آفاتِ المال، لما تكبر.

ومنها: ادعاء المرء بما ليس فيه: وذلك كذب وتكبر، ولاسيما إذا جالس مَنْ هم أقلُّ منه معرفة، وهو من عناه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[البقرة: ٢٠٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج: ٨ ـ ٩]، خصوصاً إذا كان لا يقصد بذلك وجه الله والفضيلة، وربما يخلو له الجو، فيعجبه ادعاؤه، ويرى نفسه أعلمَ العلماء، وأفقهَ الفقهاء، ثم يصير نفسه للإفتاء والقضاء، ويتعالى عن قول: «لا أدري»؛ فيفتي، ويقضي بغير علم، فَيَضِلُّ ويُضل غيرَه، ويحشرُ نفسه في زمرة أولئك الذين قال عنهم رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم عن عبدالله بن عمرو بنِ العاص، عن النبي ﷺ: أنه قال: «إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه من العباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقَبْض العلماء، حتّى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتَّخَذَ الناسُ رؤساءَ جُهّالاً؛ فسُئِلوا، فَأَفْتَوْا بغير علمٍ، فضلّوا وأضلّوا»[1].

وما أحسنَ قولَ القائل:

إِذَا لَـبِسَ الْعِمَامَـةَ غَيْـرُ أَهْـلٍ ... يُرِيـدُ فَخَارَهَـا عَـادَتْ ذَمَامَـهْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

ومنها: مخالطةُ غيرِ الأكفاءِ من خَدَمٍ وخَوَل: لأنهم يرون ممن يخالطهم ـ إذا كـان سيداً لهم، أو أغنى منهم ـ تواضعـاً وذلـة، ويخيل إليه أنه أشرفُ الناس نفساً، وأزكى منبتاً، وأكرم طينة، وأعلى قدراً، ثم يطول الزمن، ويتحكم فيه هذا الداء، ثم يصبح طبيعة، وهذا ما نراه في أولاد الأمراء، أو من يُسمون أنفسهم الأشرافَ، ولله درّ القائل:

رَأَيْـتُ الْفَتَـى يَـزْدَادُ نَـقْـصاً وَذِلَّـةً إِذَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعُجْبِ وَالْكِبْرِ
وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعُجْبَ مِنْ كِبْـرِ هِمَّـةٍ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْعُجْبَ مِنْ صِـغَرِ الْقَـدْرِ

ولو كانت مضارّ الكبر قاصرة على المتكبر، لهان الأمر، ولكن تكبّر الملوك يقتل الحرية في نفوس الرعيّة، وتكبّر الأمراء يقتل الهمة والشرف والفضيلة في نفوس المأمورين، وتكبّر الرؤساء يقبر إخلاص المرؤوسين، حتّى إنه ربما ظلمهم وهم ساكتون، وتكبّرُ المعلّم على تلامذته يضعفُ مواهبهم العلمية، ويزرع في نفوسهم كرهَ معلمهم، وإذا كره الطلبة معلمهم، كرهوا درسه، وهناك الطامة الكبرى؛ إذ تضيع الفائدةُ التي وضعت لأجلها المدرسةُ والدرس، وتكبّرُ الرجل على أولاده وأهله يميت نفوسهم، ويعودهم على الاستكانة والخضوع، ويضع في قلوبهم كرهه.

ومن شؤم التكبّر على المتكبّر: أن العابد المتكبّر يُعْجَب بعبادته، ويرى أن له مكانةً عند ربه، فيذهب خشوعُه، وما فائدةُ عبادةٍ بلا خشوع؟! والعالمُ المتكبّر يُعجب بعلمه، ويمنعه عُجبه من الازدياد،

فيجهل، والحسيبُ يعجب بنسبه وحسبه، فيحبّ أن يعظمه الناس، ويقوموا له احتراماً وتبجيلاً، ثم يأنف من مجالسةِ مَنْ هم أقلُّ منه نسباً، وأدنى حسباً، ويغضب إذا لم يحترمْه الناس، والناسُ لا يحترمون إلا من يحبونه.

ويظهر الكبْر ـ غالباً ـ في حركات المتكبّر؛ كجلوسه، ومشيته، ولبسه، وكلامه.

ألا فليعلمْ هذا المتكبّر: أنه خُلق كسائر البشر من مواد غذائية تكونت من تراب الأرض؛ أكلها أبوه، فحولت إلى نطفة قذرة تقلبت في ظلمات الأرحام بين دم وفَرْث، ثم غذي بلبن خُلق منها، وعاش ضعيفاً لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أذاها في أدوار تعافُها النفس، ثم يكون بعد ذلك جيفةً تأبى النفوسُ النظرَ إليها، ثم تكون هذه الجيفةُ طعمةً للديدان المتخلقة منها ومن أقذارها، ثم هو في هذه الحياة وعاء لأقذار وأعذار[1] ودماء، لا يستطيع فصلَها عنه؛ لأنها حياته التي لا بد له منها؛ فهل إذا عرف المتكبّر ذلك في نفسه يتكبر؟

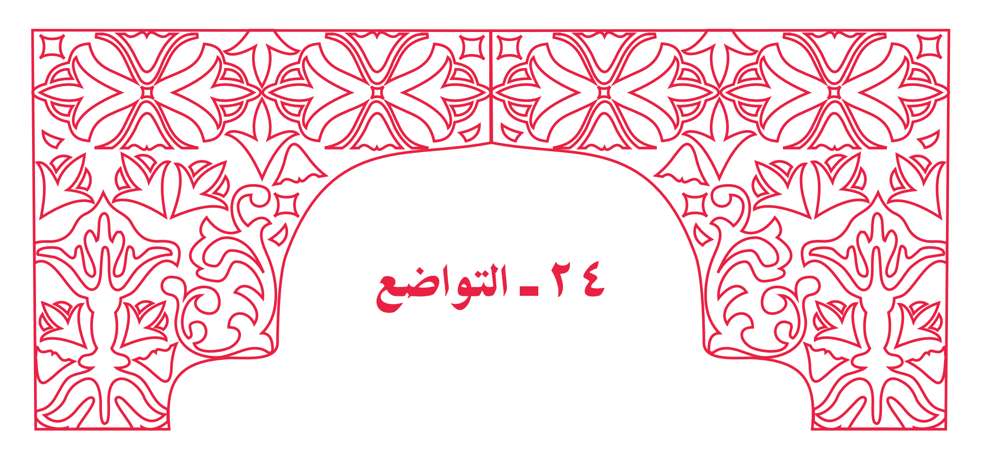
روى البخاري في «التاريخ»، والطبراني، وغيرُهما عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «طوبى لمن تواضَعَ في غير مَنْقَصَة، وذلّ في نفسه من غير مَسْكَنَة، وأنفقَ من مالٍ جَمَعَه في غيرِ مَعْصية، وخالط أهلَ الفقهِ والحكمة، ورحمَ أهلَ الذلّ والمسكنة. طوبى لمن ذلّت

(١) كذا، ولعل الصواب: «عذرات».

نفسُه، وطابَ كسبُه، وحَسُنَتْ سريرتُه، وكرمت علانيتُه، وعزلَ عن الناس شرّه. طوبى لمن عملَ بعلمِه، وأنفقَ الفضلَ من ماله، وأمسكَ الفضلَ من قولِه»[1].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٣٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٦١٥)، وضعفه الذهبي، وابن حجر، وغيرهما. انظر: «كشف الخفاء» (٢/ ٦٥٦).



٢٤ ـ التواضع

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الإسراء: ٣٧ ـ ٣٨]، وتقدم تفسير الآية في الدرس السابق.

وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٢١٥]؛ أي: ألن جانبك لمن اتبعك وصدَّق برسالتك من المؤمنين؛ رفقاً بهم، كما نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء والكفار الجبارين بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[الكهف: ٢٨].

والتواضع خلق حميد، وفضيلة محببة تظهر في شمائل المرء: في لين قوله، وطلاقة وجهه، وابتسامته لمن عرف ومن لم يعرف، ولطفه بالفقير، وكلامه مع خادمه، وجلوسه مع العامة، وإفشائه السلام؛ لذا ترى المتواضع قريباً من الناس، محبباً لهم، قد اجتمعت حوله قلوبُهم؛ فهم يتألمون لألمه، ويحزنون لمصابه، ويفرحون لفرحه؛ فكأنما خيرُه خيرُهم جميعاً، وكأنما مُصابه مصابُهم جميعاً؛

لأنه اتصف بصفة أفادت المجتمع؛ خالطه، فكان عضواً عاملاً فيه، استفاد منه، وأفاده بما عنده من علم ومال.

ومن التواضع المشهور ما رُوي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ مَرَّ ويَدُهُ على المعلى بنِ الجارود، فلقيته امرأةٌ من قريش، فقالت له: يا عمر! فوقف لها، فقالت: كنا نعرفك مرةً عُميراً، ثم صرت بعدَ عمير عمرَ، ثم صرتَ بعدُ أميرَ المؤمنين، فاتقِ الله يا ابنَ الخطاب، فانظرْ في أمور الناس؛ فإنه من خاف الوعيد، قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت، خشي الفوت. فقال لها المعلى: إيهاً إليك أمةَ الله، لقد أبكيتِ أميرَ المؤمنين، فقال له عمر: مَهْ أتدري مَنْ هذه ويحك؟ هذه خولةُ بنتُ ثعلبةَ التي سمع الله قولَها من سمائه؛ فعمرُ أحرى أن يستمع لقولها، ويقتدي به[1].

وأعجب من هذه قصته مع أم الصبيان التي حمل لها كيسَ الدقيق ووعاءَ السمن على كتفه، وأوقد النار، وطبخ لصبيانها بنفسه، وأطعمهم حتى أشبعَهم، ولم يسترحْ حتى سمع غطيطَهم في نومهم، ولا غرابة على عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن يكون متواضعاً، وقد تعلم في مدرسة رسول الله، وكان له فيه أسوة حسنة.

والرسول ﷺ كان أكثر الناس تواضعاً؛ وهو البشير النذير، المبعوثُ رحمةً للناس كافة، والعالمُ يقيناً أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والعالمُ يقيناً أنه أفضلُ الخلق على الإطلاق، ومع هذا،

---

(١) ذكر هذه القصة الحافظ في «الإصابة» (٧/ ٦٢٠)، وضعّف إسنادها.

فقد باع واشترى، وسابق وصارع، وخدم أهله، وعمل مع أصحابه في بناء مسجده، وفي حفر الخندق، وجاع وشبع، وشَيَّعَ الجنائزَ، وعاد المرضى، وأضافَ واستضافَ، وقبلَ الدعوة، وقال: «لو دُعِيتُ إلى كُراعٍ لأجبتُ»[1]، ومشى في حاجة أهله، وحمل حاجته بيده، وخصف نعله، ورقع ثوبه ودلوه، وعمل في بيته، ومشى مع أصحابه، تارةً أمامهم، وتارة معهم، وتارة خلفهم، وقال: «خَلّوا ظهري للملائكة»[2]، وربما توكّأ على بعضهم؛ فأحرى بالمسلم أن يكون في خُلقه متأسّياً بنبيّه الذي أمره ربُّه أن يكون قدوة له في جميع شأنه.

روى البزار عن طلحةَ بنِ عُبيدِ الله، عن رسول الله ﷺ قال: «من تواضعَ لله، رفعَه، ومن تكبّر، وضعَهُ الله، ومن اقتصدَ، أغناه الله، ومن بذّر، أفقره الله، ومن أكثرَ من ذكر الله، أحبّه الله»[3]، وروى نحوه أحمد عن أبي سعيد[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧)، والدارمي (٣٥)، وهو حديث صحيح. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٥٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٩٤) من حديث عائشة بنحوه، وإسناده ضعيف جداً، فيه نعيم بن مورع، وهو منكر الحديث. انظر: «لسان الميزان» (٦/ ١٧٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٧٦)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «ضعيف الترغيب» (١٧٣٣)، ولكن قوله: «من تواضع لله رفعه» يشهد له ما أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة، وفيه: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

ومن لطيف ما يُروى: أن الفضلَ بنَ يحيى البرمكيَّ دخل على أبيه يوماً وهو يتبختر في مِشيته، فقال له أبوه: يا أبا عبدالله! إن البخل والجهل مع التواضع أزينُ بالرجل من الكِبْر مع الجود والعلم، فيالها من حسنة غطَّت على عيبين عظيمين، ويالها من سيئة غطَّت على حسنتين كبيرتين، ثم أومأ له بالجلوس. قال أحد الشعراء:

تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اَللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعُ

وقال آخر:

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً وَعَلَوْتَ قَدْراً فَفِيكَ تَوَاضُعٌ وَعُلُوٌّ شَانِ

والتواضع خلق وسطٌ بين التكبر والمذلَّة، وأحبُّ الأمور إلى الله أوساطُها، فمن تواضعَ لمن هو أقلُّ منه قدراً؛ كرئيس دائرة مثلاً تنحى عن مكانه لفرَّاش، أو كبيرِ عائلةٍ قامَ لصغيرها عند دخوله عليه، أو عالمٍ مشى خلف حَمَّال: فهذا تخاسُسٌ وتذلُّل، ولا يُقال له: تواضع، والنبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «طوبى لمن تواضعَ في غير مَنْقَصَة»[1]؛ أي: تواضع بين أقرانه وأمثاله، ولم يتذلل لمن هم أقلُّ منه قدراً؛ بحيث يسبب لنفسه المذلةَ والمهانةَ.

ومن حمل متاعه، واعتقل بعيره، وساق سيارته، وخدم في بيته، وساعد أقرانَه على بعض أعمالهم، فقد تواضع، ولم يتخاسَسْ، ومن تقدم على أقرانه، وتعاظم عليهم، واستخدمَهم، فقد تكبّر.

---

(١) سبق تخريجه في (ص١٩٥).

وربما دخل الرياء في التواضع؛ وهو أن يتواضع أمام الجمهور، ويتكبر على مرؤوسيه وخدمه، وتواضعُه مع سائر الناس حسنٌ، وفي خلوته وبين خدمه أحسنُ وأولى بالحمد. ومن عرفَ الشَّر اتقاه، ومن تباعدَ عنه سلمَ، ومن حامَ حول الحمى يوشك أن يقعَ فيه.

وفي كتاب «الإحياء للغزالي» ما يأتي:

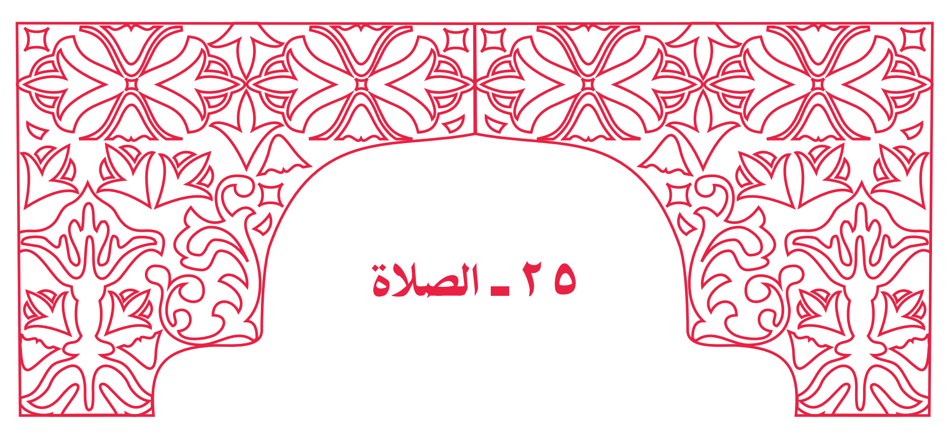
التواضعُ في الخلق كلِّهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح. لا عزةَ إلا لمن تذلل لله، ولا رفعةَ إلا لمن تواضع لله، ولا أمنَ إلا لمن خاف الله، ولا ربحَ إلا لمن ابتاع نفسه من الله.

وفيه أيضاً: قال أبو علي الجوزاني: النفسُ معجونة بالكبرِ والحرصِ والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكَه، منع منه التواضعَ والنصيحةَ والقناعةَ، وإذا أراد به خيراً، لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نارُ الكبر، أدركها التواضعُ مع نصرة الله، وإذا هاجت في نفسه نارُ الحسد، أدركتها النصيحةُ مع توفيق الله، وإذا هاجت في نفسه نارُ الحرص، أدركتها القناعةُ مع عون الله.

وفيه أيضاً: عن عمر بن شيبةَ، قال: كنتُ بمكةَ بين الصفا والمروة، فرأيت رجلاً راكباً بغلة، وبين يديه غِلْمان، وإذا هم يعنفون الناس، ثم عدتُ بعد حين، فدخلت بغداد، فكنت على الجسر؛ فإذا أنا برجل حافٍ حاسرٍ طويلِ الشعر؛ فجعلتُ أنظر إليه وأتأمله، فقال لي:

مالكَ تنظر إليَّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيتُه بمكة، ووصفت له الصفة، فقال: أنا ذلك الرجلُ! فقلت له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: إني ترفَّعْتُ في موضع يتواضعُ فيه الناس، فوضَعَني الله حيثُ يترفع الناس.

❏ ❏ ❏



٢٥ ـ الصلاة

روى البخاري، ومسلم عن عبدالله بنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمّداً رسولُ الله، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاة، والحجّ، وصومِ رمضان»[١].

شبّه الرسول ﷺ الإسلامَ بالبيت الذي يقوم على دعائمَ أو أركانٍ، غيرَ أن هذه الأركان لا تقوم إلا على أُسس وقواعد، إذا نقص شيء منها، بطلَ هذا البناء، وانتقض.

هـذه الأركـان هـي: الشهـادتـان، والصـلاة، والزكـاة، والحـج، والصوم.

وقد تقدّم في الدرس الأول ما يكفي القارىء عن إعادة القول في توحيد الله تعالى، وإخلاصِ العبادة له، ويقتصر كلامنا في هذا الدرس على الصلاة.

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[البقرة: ٢٣٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

والصلاةُ الوسطى هي الفُضْلى، ولم يذكر عينها؛ لكيلا يقتصر الناسُ عليها؛ فلو بدأنا بالفجر، لكانت الوسطى العصر، والفجر أول النهار، ولو بدأنا الصلوات بالمغرب، لكانت الوسطى الفجر، والمغرب أول النهار، ولو بدأنا الصلوات بالمغرب، لكانت الوسطى الفجر، والمغرب أول الليل، ولو بدأناها بالعصر، وهو وقت نزول الملائكة، لكانت الوسطى العشاء، ولو قلنا: إنها الظهر، فالظهر وسط النهار.

وعلى كلّ، فالصلاة الوسطى هي الفضلى، ولم يذكرها؛ تعظيماً لشأنها.

والقنوتُ هو الخشوع، وغايتُه هو عدم انشغالِ الفكر في أثناء الصلاة بما يُخرج الإنسانَ عن التفرغ لها.

والصلاةُ عمادُ الدين؛ لما ورد في ذلك من الأحاديث، منها: قولُه ﷺ: «الصلاةُ عمادُ الدّين» رواه البيهقي عن عبدالله بنِ عمرَ[1].

وقوله ﷺ: «رأسُ هذا الأمر الإسلامُ، ومن أسلمَ سَلِمَ، وعمودُه الصلاة، وذِرْوَةُ سَنَامِه الجهاد، لا يناله إلا أفضلُهم» رواه الطبراني عن معاذ بن جبل[2].

وجعل ﷺ تركَ الصلاة كفراً؛ للحديث الذي رواه أحمدُ، ومسلمٌ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٨٠٧)، وهو حديث ضعيف. انظر: «كشف الخفاء» (٢/ ٦٠٨).

(٢) أخرجه الطيالسي (٥٦٠)، والطبراني (٩٦)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٤٣٦).

عن جابرِ بنِ عبدِالله ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «بينَ الرجلِ وبينَ الكفر تركُ الصلاة»(١)، وللحديث الذي رواه أحمد، والنسائي عن بُريدةَ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

«العهدُ الذي بيننَا وبينهم الصلاةُ، فمن تركَها، فقد كفر»(٢).

وقد أجمع أَئمةُ المذاهب على قتلِ مَنْ ترك الصلاةَ متعمداً، واختلفوا في حقيقة كفرِه، والله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾[التوبة: ١١]؛ إذن، فإن لم يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فليسوا إخواننا في الدين.

والأحاديثُ في معنى هذه الآية كثيرة، منها: ما رواه أحمدُ، والبخاريُّ عن ابن عمرَ: أن النبي ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتلَ الناسَ حتّى يشهدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمّداً رسولُ الله، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا، عصموا منّي دماءهم، وأموالهم، إلا بحقّ الإسلام، وحسابهُم على الله»(٣)، وما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر أيضاً: أن النبي ﷺ ذكر الصلاة يوماً، فقال: «مَنْ حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يومَ القيامة، ومن لم يحافظ عليها؛ لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاة، وكانَ يومَ القيامة معَ قارونَ وفرعونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٠)، ومسلم (٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٦)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه أحمد (٥٠٢)، والبخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

وهامانَ وأُبيّ بنِ خَلَفٍ»[1]. وهؤلاء رؤوسُ الكفر، وأشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة.

وكان أصحابُ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومن تبعهم بإحسان لا يرون شيئاً من الأعمال تركُه كفرٌ إلا الصلاة، ولكننا نرى في هذا الزمان كثرةَ المعرِضين عنها ممن ينتسبون للمسلمين، حتى كثر المارقون عن الدين، وأصبح الإسلام دعوى (جنسيّة)، لا عقيدة دينيّة، وأصبح الاستمساكُ بهذه الدعوى مدحَ الكبراء والحكام، ولو غفلوا عن إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام الإسلامية، فالذي يلغو بمدحهم، أو يذم عدواً لهم يُعدّ أكبرَ مناصر للإسلام، وإن كان لا يعرف حقيقة عقيدته، ولا يقيم أركانه، ولا يحفل بأوامره ونواهيه.

ولقد كان مِنْ أثرِ تركِ الصلاة والتهاونِ بأمور الدين: أن فشت الفواحشُ والمنكرات، وغصّت بالناس بيوتُ الفجور، ومواخيرُ القمار، وكثرت حاناتُ الخمور، وتجاهر الناسُ بشربه وبيعه، وعبد الناسُ المال، فلا يبالون من أين يأتي، ولا أين يصرف، وقُبضت الأيدي عن أعمال الخير، وانبسطت في أعمال الشر، وزال التعاطف والتراحم، وقلّت الثقةُ بين المسلمين، وصدق فينا قولُ الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٨٢٣)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «ضعيف الجامع» (٢٨٥١)، ولم أجده في المسند.

ومن آثارِ تركِ الصلاة: انحلالُ رابطة الدين، حتى زال ذلك التكافلُ بالمصالح، والتعاونُ على الأعمال التي تحفظ وحدةَ المسلمين، وتعود عليهم بالنفع العميم.

ومن آثاره: فقدُ الأمن بالمدن والقرى، حتى كثر الاعتداء بالقتل والسرقة، وكثر الغشُّ في البيع والشراء، وتطفيفِ الميزان، وأصبح الإنسان يحتاج لحفظ حقوقه إلى صكوك وعقود مقيّدة بإثبات وشهود، وموقّعة من قبل جهات رسمية، ومع ذلك، فكم منها ما أنكرت، وكم من حقوق فيها هدرت! ولو حافظ الناس على الصلاة، لنهتهم عن الفحشاء والمنكر، ولكن أضاعوا، فضاعوا.

وكان من أثر ترك الصلاة أيضاً: أنْ آمن كثيرٌ من الناس (تقليداً) بما وجدوا عليه آباءهم، واعتقدوا أن لا نجاةَ لهم من عذاب الله إلا أن ينضموا إلى أحد الأولياء؛ فيتقدّموا لضريحه بالذبائح والهدايا؛ ظناً منهم أن ذلك يُنجيهم من عذاب الله، وإن فعلوا ما فعلوا من المعاصي، وقد رأينا ذلك في كثير من العواصم والمدن الإسلامية وغيرها.

ومنهم مَنْ يتعلم كيفيتها وأعمالَها، ويؤديها غيرَ مبال بها، ولا بوقتها، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون: ٤ ـ ٥].

ومنهم من لا يبالي بها، ولا بمن يؤديها، بل ربما استهزأ بالمصلين، أو وافق المستهزئين بهم، فويل لهم مما يصنعون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة: ١٥].

أما المحافظةُ على الصلاة، فهي دليل الفلاح؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٢].

والمحافظُ على الصلاة لا يرضى أن يكون حِلْساً[1] في بيوت القمار، أو كلباً من كلاب بيوت الدعارة.

والمحافظُ على الصلاة يبذل رِفْدَه للمستحقين، ولا يُخْلِف وعداً، ولا يلوي في حقِّ غيره.

والمحافظُ على الصلاة يعظم الحقَّ وأهله، ولا يرضى لنفسه ولا لأمته الذلةَ والهوان، ولا يغتر بأعداء دينه، ولا يوالي أهلَ البغي والعدوان.

والمحافظ على الصلاة لا يجزع من نائبة تنزل به، أو مصيبة تحلُّ به، ولا تُبطره نعمةٌ، ولا تخيب النقمةُ رجاءه بربه، ولا تعبث بعقله الخرافاتُ والأوهام.

والمحافظ على الصلاة هو المسلمُ الذي يسلم الناس من يده ولسانه، وهو المؤمن الذي يأمن الناس من شروره وأذاه؛ فهو الذي يُرجى خيرُه، وهو الذي يُستعان به عند الاحتياج إليه.

ولو أن فينا طائفةً من هؤلاء المحافظين على الصلاة، لأقمنا بها الحجة على الملحِدين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم؛ فيضلون غيرهم، ويجادلون على غير هدى ولا دليل عقلي ولا شرعي

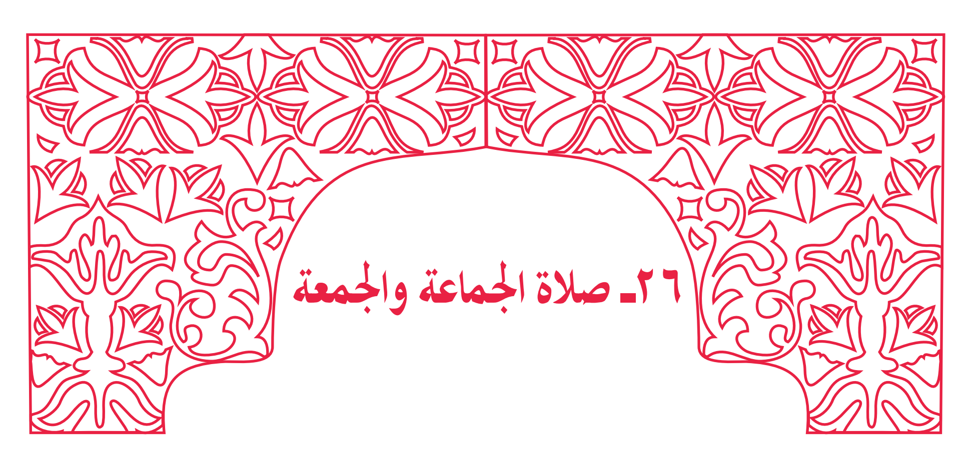
---

(١) الحِلْس: يقال: فلانٌ من أحلاس البيت: إذا كان لا يبرح البيت. انظر: «اللسان» (حلس).

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[التوبة: ٩].

إن الله فرض علينا الصلاة، وأوجب علينا أن نطيعه في أدائها تعبداً وإيماناً بأنه لم يوجب علينا شيئاً إلا ولنا فيه النفعُ العظيم دنيا وأخرى، وأن لذلك حِكماً بالغة، وأسراراً غامضة لا يعلمها إلا هو، وقد بيّن لنا ـ **سبحانه وتعالى** ـ منها أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ أي: أنها تذكر الغافلين المنهمكين في أعمالهم بمولاهم، وتهذب النفوس، ولا سيما نفوس المتكبرين الذين يأنفون من مس الأرض بأرجلهم، فضلاً عن جباههم، والله تعالى أعلمُ بحكمةِ ما أوجبَ.

ثم إن الناس بانهماكهم في معايشهم، واشتغالهم بلذة الدنيا ونعيمها؛ محتاجون إلى مذكِّرٍ يذكرهم بمولاهم المنعمِ عليهم بالحسِّ والعقل والحياة، والمتفضلِ عليهم بكمال حقيقتهم الإنسانية: هذا المذكرُ هو الصلاة، فهي التي تخلع الإنسانَ من تلك الشواغل التي لا بدَّ منها، وتوجهه إلى ربه، فتكثر مراقبتُه له، وتزكو نفسُه، وترتفع عن البغي والعدوان، وتتنزه عن دناءة الفسق والمعصية، ويحبب إليها الإحسان والعدالة والرحمة؛ لأن الصلاة بإقامتها تنهى صاحبها عن النقائص، وتحبب إليه المعالي، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾[المعارج: ١٩ ـ ٢٢].



٢٦ـ صلاة الجماعة والجمعة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

بهذه الآية الكريمة استدلَّ بعضُ العلماء المسلمين على وجوب الجماعة على الرجال الأحرار، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن أم مكتوم ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أن الرسول ﷺ قال له: «إذا سمعتَ النّداءَ، فأجبْ ولو حَبْواً»[(١)]، وكذا في الحديث الذي رواه أحمد عن معاذ بن أنس: أن النبي ﷺ قال: «الجفاءُ كلُّ الجفاء، والكفرُ والنفاقُ مَن سمعَ مناديَ الله ينادي إلى الصلاة، فلا يجيبهُ»[(٢)].

وقال بعضهم: إنها سنة مؤكَّدة، وليست هي شرطاً لصحة الصلاة عند مَنْ قال بوجوبها إلا في الجمعة والعيد؛ فإنهما لا يصحّان إلا بها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧) بإسناد ضعيف، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٦٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «هل تسمع النداء؟»، قال: نعم. قال: «فأجب».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والطبراني (٣٩٤)، وهو حديث ضعيف. انظر: «ضعيف الترغيب» (٢٣٣).

وأخبرنا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن صلاة الجماعة أفضلُ من صلاة المنفرد، وأنها وسيلةٌ لرفع الدرجات، واستنزالِ الرحمة، وأن الإنسان في صلاة مادام في مصلاه ينتظر الجماعة؛ فقد روى الشيخان عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه قال: «صلاةُ الرجلِ في جماعة تضعف صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضّأ، فأحسنَ الوضوءَ، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاةُ، لم يَخْطُ خطوةً، إلا رفعت له بها درجة، وحطّ عنه بها خطيئة، فإذا صلّى، لم تزلِ الملائكةُ تصلّي عليه مادام في مصلاّه ما لم يُحْدِثْ، اللّهمَّ صَلّ عليه، اللّهم ارحَمْه، ولا يزال الرجلُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصلاةَ»(١).

وروى الشيخان عن ابن عمر ـ **رضي الله تعالى عنهما** ـ: أن النبي ﷺ قال: «صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاة الفذّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً»(٢).

ومن فوائد الجماعة تمرينُ النفوس على الطاعة، وإرشادُهم إلى التعاون والتعاضد المبني على الاجتماع، وتعويدُ الإنسان على المساواة التي هي غاية ما يدعو إليه الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

ولا يعذر بترك الجماعة رفقةُ السفر، فمتى اجتمعوا، صَلّوا جماعة، فقد روى أحمدُ، والنسائي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من ثلاثةٍ في قرية ولا بدوٍ لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٩)، ومسلم (٦٥٠).

استحوذَ عليهمُ الشيطان؛ فعليكمْ بالجماعة، فإنما يأكلُ الذئبُ من الغنمِ القاصيةَ»[1]، إلا أن فعلها في المسجد أفضلُ، وجارُ المسجد بذلك أولى؛ فقد روى الدارقطني عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاةَ لجارِ المسجدِ إلا في المسجد»[2].

والإمامُ الراتبُ أولى بالإمامة من غيره، فإن لم يكن راتباً، فأولى بها الأقرأُ العالمُ فقهَ صلاته، ولا تصحُّ إمامةُ الأمي الذي لا يحسن قراءة الفاتحة إلا بمثله.

وليست الجماعة بواجبة على النساء، أو مؤكدة عليهن، ولكنها تُستحب لهن إذا اجتمعن؛ لأن النبي ﷺ أمر أم وَرَقَة أن تؤمّ أهلَ دارها، ويجوز لهن حضورُ المسجد بإذن أزواجهن؛ إذا كان في المسجد محلٌّ خاص لهنّ، ولا خوفَ عليهنَّ ولا منهنَّ.

وحضور المسجد الكثير الجماعة أفضل؛ فقد روى أحمدُ، وأبو داودَ من حديث أُبَيِّ بنِ كعب، عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أنه قال: «وإنَّ صلاةَ الرجلِ مع الرجل أزكى من صلاته وحدهَ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وكلّ ما كثر، فهو أحبُّ إلى الله»[3]، وكان

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦)، وأبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٠٦٧).

(٢) أخرجه الدارقطني (١/ ٤٢٠)، والحاكم (٨٩٨)، وقال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٢/ ٣١): «وهو ضعيف، ليس له إسناد ثابت».

(٣) أخرجه أحمد (١٤٠)، وأبو داود (٥٥٤)، والنسائي (٨٤٣) وصححه العقيلي، والحاكم، وغيرهما. انظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ٢٦).

السلف الصالح ـ **رضي الله تعالى عنهم** ـ يرون ترك الجماعة خطباً جسيماً، وخسراناً عظيماً، وبلاء كبيراً؛ للحديث الذي رواه مسلم عن ابن مسعود ـ **رضي الله تعالى عنه** ـ: أنه قال: «من سرَّه أن يلقى اللهَ غداً مسلماً، فليحافظْ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهنَّ؛ فإن الله شرعَ لنبيكم سننَ الهُدى، وإنهنّ من سنن الهدى، ولو أنّكم صلّيتم في بيوتكم كما يصلّي هذا المتخلّف في بيته، لتركتم سُنّة نبيّكم، ولو تركتم سنّة نبيّكم، لضللتم، وما من رجل يتطهَّر فيحسنُ الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتبَ الله له بكلّ خطوة يخطوها حسنةً، ويرفعه بها درجة، ويَحُطُّ بها عنه خطيئةً، ولقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلومُ النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتّى يُقامَ في الصف»[١].

ومن السنّة المؤكدة إعادةُ الجماعة ثانيةً وثالثةً إذا انتهت الجماعة الأولى؛ لما روي أن رجلاً دخل المسجد، وكان النبي ـ ﷺ ـ قد فرغ من الصلاة، فقال: «مَنْ يتصدَّقُ على هذا فيصلِّي معه؟»؛ يعني: يأتم به. رواه أحمد، وأبو داودَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ[٢].

ويحرم ابتداءُ الإنسان في نَفْل بعدَ الإقامة؛ للحديث الذي رواه الشيخان عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا أُقيمتِ الصلاةُ، فلا صلاةَ إلا

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥)، وأبو داود (٥٧٤)، والترمذي (٢٢٠)، وقال: «حديث حسن».

المكتوبة»[١]، ولو شرع بها قبلَ الإقامة، وجب عليه إتمامُها؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

ومن دخل المسجدَ والإمامُ يصلِّي، وجبت عليه السكينةُ والوقارُ حتى لا يشوش على المصلين، بل يتبع قول النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «إذا سَمِعْتُم الإقامةَ، فامشوا إلى الصلاةِ وعليكم السكينةُ والوقارُ، ولا تسرعوا؛ فما أدركتم، فَصَلُّوا، وما فاتَكُم، فَأَتِمُّوا»[٢].

وعلى الإمام أن يراعي خواطرَ الجماعة، فلا ينفِّرهم بفعل، أو قول، أو تطويلٍ مُمِلّ، وعليه أن يستجلب رضاهم عليه، ويتباعد عن كرههم له؛ حتى لا يشمله قولُ النبي ﷺ: «مَنْ أَمَّ قوماً وهم له كارهون، فإن صلاتَه لا تجاوِزُ تَرْقُوَتَه» رواه الطبراني عن جُنَادَةَ بنِ أمية[٣].

ومن الأمور التي نهى النبي ﷺ عنها: أن يُطيل الإمامُ الصلاة؛ فلعلّ أن يكون بين المقتدين به مريض، أو ذو حاجة، أو ضعيف لا يستطيع الوقوف الطويل، أو السجود الطويل؛ لهذا قال ﷺ فيما روى البخاري: «يا أيها النّاسُ! إن منكم مُنَفِّرين، فمن صلّى بالنّاس، فليخفّفْ؛ فإنّ فيهم المريضَ، والضعيفَ، وذا الحاجة»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٠)، وعزوه إلى البخاري وهم؛ فقد قال ابن الجوزي في «التحقيق» (٤٤٩): «انفرد بإخراجه مسلم». والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠).

(٣) أخرجه الطبراني (٢٨٢)، (٢١٧٧) بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٥٩)، ومسلم (٤٦٦) بنحوه، وعند البخاري: «الكبير» بدل «الضعيف».

وإن في صلاة الجماعة من الفوائد الاجتماعية الشيء الكثير؛ حيث يقف المسلمون بجانب إخوانهم المسلمين صفاً واحداً إلى قبلة واحدة، يعبدون رباً واحداً، لا يشركون به معبوداً سواه؛ وكلهم أمام الله سواء، وفيها تتحقّق المساواة الإسلامية؛ لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأمير على سوقة، ولا لغني على فقير، ولا لحر على عبد إلا بالتقوى، والتقوى لا يعلم بها إلا الله؛ لأن التقوى من خبايا القلوب.

روى الإمام مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرئٍ مسلم تحضره صلاةٌ مكتوبة، فيحسن وضوءَها وخشوعَها وركوعَها، إلا كانت كفارةً لما قبلَها من الذنوب، ما لم تؤتَ كبيرةٌ؛ وذلك الدهرَ كلَّهُ»(١).

وصلاةُ الجمعة واجبة على الرجال القادرين الذين لا عذرَ لهم، والأعذارُ مذكورة في كتب الفقه، ويجب على مَنْ حضر الجمعة الإنصاتُ وقتَ الخطبة، ومن لغا والإمامُ يخطب، فلا جمعةَ له.

ومن شروط الجمعة: الخطبتان، والغرضُ منهما تنبيهُ الناس وإرشادُهم إلى ما فيه نفعُهم دنيا وأخرى، وتذكيرُهم بما كان عليه أسلافهم من دولة عظيمةِ الشأن مهيبةِ السلطان، وإعلامُهم أن التمسك بالدين والعملَ به وسيلة من وسائل النجاح، وأن الله مع مَنْ عمل بأوامره، وانتهى عن نواهيه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨).

وليس الغرضُ من الخطبة تضييعَ الوقت فيما لا فائدةَ فيه؛ لأن ذلك سرقةٌ للوقت، وسرقةُ الوقت أعظمُ إثماً من سرقة المال.

ويُسن التبكير للجمعة، وقراءةُ سورة الكهف قبلَها، ويُسن لمن حضرها أن يُكثر الدعاء في يومها؛ رجاءَ إصابة ساعة الإجابة؛ لما روى البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إنّ في يوم الجمعة ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه»(١).

ويكره لمن حضر الجمعة أن يتخطَّى رقابَ الناس؛ لما في ذلك من سوء الأدب والإيذاء. روى أحمد: أن النبي ﷺ - وهو على المنبر - رأى رجلاً يتخطَّى رقابَ الناس، فقال له: «اجلسْ فقد آذيتَ وآنيتَ»(٢)؛ أي: تأخرت.

ويسنّ الغسلُ يوم الجمعة، والتطيبُ، ولبسُ جميل الثياب لها. وقد ورد في فضل يوم الجمعة الكثيرُ من الأحاديث؛ من ذلك ما رواه أحمد، وابنُ ماجه عن أبي لبابةَ بنِ عبد المنذرِ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ يومَ الجمعة سيّدُ الأيّام، وأعظمُ عند الله من يوم الأضحى، ويومِ الفطر، وفيه خمسُ خلال: خلقَ اللهُ فيه آدمَ، وأهبطَ اللهُ فيه آدمَ إلى الأرض، وفيه تَوَفّى الله آدمَ، وفيه ساعةٌ لا يسألُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٧)، ومسلم (٨٥٢)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٨)، وأبو داود (١١١٨)، والنسائي (١٣٩٩)، وابن ماجه (١١١٥)، وهو حديث صحيح. انظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ٧١).

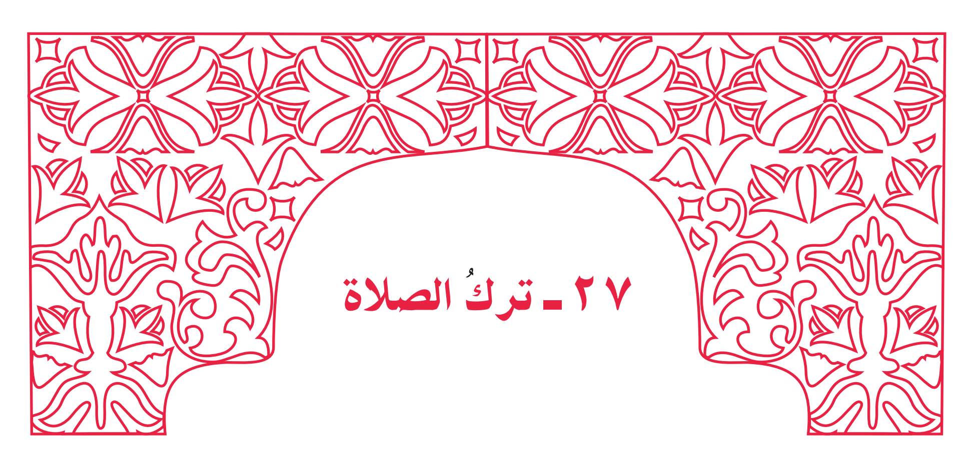
العبدُ شيئاً إلاّ أعطاهُ إيّاه، ما لم يسألْ حراماً، وفيه تقوم الساعةُ، وما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا سماءٍ ولا أرضٍ، ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ، إلا وهُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة»[1].

وروى الإمام مالكٌ عن عبيد بن السبّاق، وروى ابن ماجه عنه، وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في جمعة من الجمع: «يا معشرَ المسلمين! إن هذا يومٌ جعله الله عيداً، فاغتسلوا، ومَنْ عنده طيبٌ فلا يضرّه أن يمسّ منه، وعليكم بالسواك»[2].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠)، وابن ماجه (١٠٨٤)، وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٤٤): «إسناده حسن».

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٤٤)، وابن ماجه (١٠٩٨)، وهو حديث صحيح. انظر: «مشكاة المصابيح» (١٣٩٨).



٢٧ ـ تركُ الصلاة

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر: ٣٨ ـ ٤٨].

معناه: كلّ نفس رَهينةٌ بكسبها، مأخوذةٌ بعملها، إلا أصحابَ اليمين الذين فكّوا رقابهم بأعمالهم الحسنة كما يفكّ الراهنُ رهنه؛ أولئك هم المؤمنون المخلصون الذي يفوزون بالجنات، ويتساءلون عن المجرمين، ثم يقولون لهم: ما سلككم في سقر؟ وما حبسكم في النار؟ فيجيبونهم: إننا تكبرنا على ربنا، ولم نطع أمره؛ فما صلينا، ولا تصدقنا على المسكين؛ مكذبين بيوم الدين، معتقدين أنها هي الموتة التي لا بعثَ بعدها، حتى أتانا الموت ونحن لاهون، ومن كانت حالتهم هذه، فما تنفعهم شفاعة الشافعين.

والشفاعةُ نافعةٌ بعد الموت كلَّ أحد، إلا هؤلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

وإنّ الشريعة الإسلامية قد حثّت على إقامة الصلاة؛ لما فيها من أسرار وحكم، وفوائد عظيمة تنفع العبدَ في دنياه وأخراه، كما شدّدت الشريعة النكيرَ على تاركِها حتى حكمت عليه بالكفر، وقد تقدمت الآيـةُ الكريمـة في الدرس الخامس والعشرين، وهي: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[التوبة: ١١]، وقول النبي ﷺ: «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر»، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «بينَ الرجلِ وبينَ الكفر تركُ الصلاة»[(١)].

وقد اختُلف في حكم تارك الصلاة؛ فبعضهم أخذ بظاهر الحديث، وقالوا بارتداده، وأنه لا يصلَّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وبعضهم قال: يُقتل حدّاً، وحكمه بعدَ الموت كالمسلم، وأمره إلى الله.

يقول بعضُ تاركي الصلاة: إن الله غنيٌّ عن صلاتنا، وفاتَهم أن الله لم يأمرهم بالصلاة إلا لمصلحتهم؛ لأن الله ﷻ لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصيةُ العاصي، وإنما الناس مَرْضى، ودواؤهم في طاعة الله، وطبيبهم يأمرهم بتناول هذا الدواء، فإن هم امتنعوا، وقالوا للطبيب: أنت غنيّ عن استعمالنا هذا الدواء، فقد استعجلوا الهلاك لأنفسهم، ومثلُ هؤلاء القوم يحتاجون إلى تهذيب وتذكير، والصلاة كفيلةٌ لهم بذلك، كفيلة بأن تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وإن كان الله غنياً عنهم وعن صلاتهم.

ويقول بعض تاركي الصـلاة: إن الدين حُسْنُ الخُلُق، وإن الدين

(١) سبق تخريجهما في (ص٢٠٥).

حسنُ المعاملة، وإننا لم نؤذِ أحداً، ولم نسء معاملة أحد، فماذا تريدون منا أكثر من ذلك؟ ولكن الله ﷻ أمر الناس بعبادته، وإن الذين يستكبرون عن عبادته سيدخلون جهنم داخرين، وإن لم يمتثلوا أوامر الله، فلا يفيدهم حسنُ معاملتهم وحسنُ أخلاقهم شيئاً، ومن كفر بعبادة الله، واستكبر على أوامر الله، فليس من الله في شيء.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩].

قال جماعة من المفسرين: المراد بذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة: الصلوات الخمس، فمن شغله ماله وولده عنها، أو شغلته تجارتهُ وصنعته عن أدائها في وقتها، فقد خابَ وخسر، وفي الحديث الذي رواه الطبراني عن عبدالله بن قرط ﵁: أن النبي ﷺ قال: «أولُ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامة من عملهِ الصلاةُ؛ فإن صَلحتْ صلحَ سائرُ عمله، وإن فسدَتْ، فسدَ سائرُ عمله»(١).

ففي هذا الحديث ما يؤيد قولَ المفسرين الآنفَ الذِّكر، والله ﷻ يقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

وأيّ وقاية لأولادنا وأهلينا أكثرُ من أن نأمرهم بإقامة عماد

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٨٥٩) بسند جيد. انظر «كشف الخفاء» (١/ ٣٠٩).

الدين، ولكنّا نرى المسلمين في هذا الزمان إذا أخلّ ولدُ أحدِهم بأمر دنيويٍّ، وَبَّخَه، وعَنَّفَه، وربما ضربَه، وإذا أخلّ بأمر من أمور دينه، تغافلَ، وتعامى عنه؛ فما لهؤلاء لا يبالون بأوامر الله، وهم المسؤولون عن أنفسهم وأهليهم أمامَ رب الأرباب؟ وكلّ راع مسؤول عن رعيته، والنبي ﷺ يقول: «مُرُوا أولادكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرِ سنينَ»[1]، إلا أن استحواذ الدنيا على القلوب ـ والإنسانُ يطغى إذا استغنى ـ، وعدمَ الاهتمام بأمر الدين، والاشتغالَ بجمع المال، وعدمَ المبالاة بطريقة الاستيلاء عليه، وتحري حلاله وحرامه، وإيثارَ الدنيا على الأخرى؛ كلُّ ذلك أمرضَ بصائرَ الناس، وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقد سهّل الشارع ﷺ الطريق إلى الصلاة حتى لا يكون عذر لتاركها؛ فأجاز التيمم لمن تعذر عليه الماء، وسوغ التحري لمن اشتبهت عليه القبلة، وأجاز القعود لمن عجز عن القيام؛ فإن عجز، ففي الاضطجاع، حتى اكتفى منه بالإشارة، وجوز القضاء لمن تعذر عليه أداؤها في وقتها، والله تعالى ما جعل علينا في الدين من حرج، ولله درّ من قال:

خَسِرَ الَّذِي تَـرَكَ الـصَّلاَةَ وَخَابَـا ... وَأَبَـى مَعَـاداً صَـالِحاً وَمَآبَـا

إِنْ كَـانَ يَجْحَـدُهَا فَحَـسْبُكَ أَنَّـهُ ... أَضْـحَى بِرَبِّـكَ كَـافِراً مُرْتَابَـا

أَوْ كَـانَ يَتْرُكُهَـا لِنَـوْعِ تَكَاسُـلٍ ... غَطَّى عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ حِجَاباً

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، والترمذي (٤٠٧) بنحوه، وقال: «حديث حسن».

وقد مدح الله تعالى في محكم تنزيله أولئك الذين حافظوا على صلواتهم؛ فلم يشغلهم عنها تجارة رابحة، ولا دنيا مقبلة، فقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[النور: ٣٧ ـ ٣٨]، وذم آخرين فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[الجمعة: ١١].

وكان آخر كلام تكلم به ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في حديث رواه أحمدُ، والخمسةُ عن أنسِ بنِ مالك، وعبدالله بن عمر: أنه ﷺ قال: «الصّلاةَ وما ملكت أيمانُكم، الصّلاةَ وما ملكت أيمانُكم»، حتى كان يُلَجْلِجُها في صدره، وما يفيض بها لسانه[1]. قالت أم سَلَمَةَ: «وكانتْ عامّةَ وصيّةِ رسولِ الله ﷺ»[2].

ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساءُ والطيبُ، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة» رواه أحمد، والنسائي، وغيرهما عن أنسِ بنِ مالكٍ[3].

ويعني بالصلاة: ذات الركوع والسجود؛ لما فيها من خضوع

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٠)، وأبو داود (٥١٥٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٠٩٤)، وابن ماجه (٢٦٩٧)، واللفظ لأحمد، وهو عندهم من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٠٩٧)، والحديث صحيح. انظر: «إرواء الغليل» (٧/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٣٩٣٩)، والطبراني (٥٢٠٣)، والحاكم (٢٦٧٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ودعاء ومناجاة لله ﷻ.

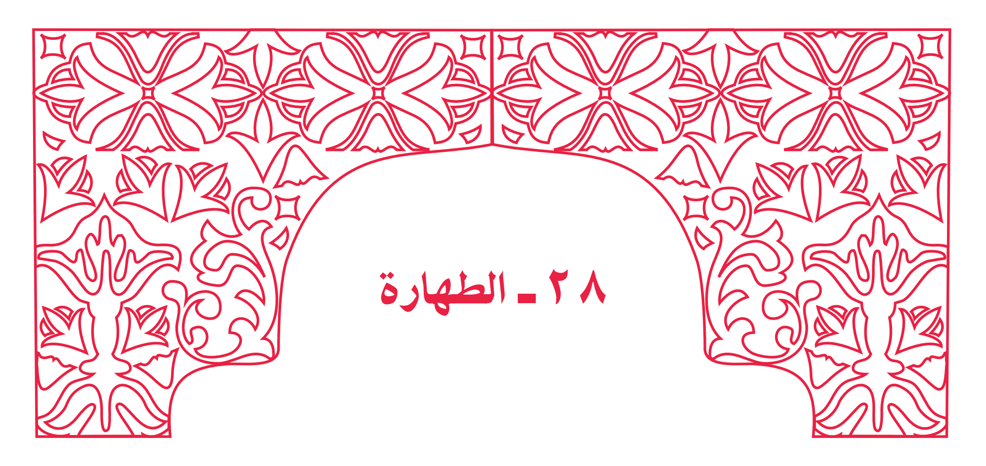
وفي الصلاة يكون العبد متوجهاً لربه، خالياً من شواغل دنياه، مخاطباً ربه بأحبِّ الأوصاف إليه، حامداً شاكراً له على نعمه، معظماً له، ويقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجدٌ، فأكثروا من الدعاء» رواه مسلم عن أبي هريرة(١).

والصلاةُ دعاءٌ وابتهال، وخشوعٌ وامتثال لأوامر الآمر؛ تُوَثِّقُ صلةَ العبد بربه؛ فيفيض عليه خيره، وتُطهر نفسَه من دَنَس المخالفة والسيرِ وراء الشهوات، والتكالبِ على عَرَض هذه الحياة، وتعوِّده الإخلاصَ، وتُباعده عن النفاق، وتبعث في جسمه النشاطَ والبهجة، وتمرنه على المحافظة على المواعيد، وأداء الأمور في أوقاتها.

يقرأ العبد فيها كتابَ ربه وهو خاشعُ القلب، حاضرُ الذهن، فيعلم من علوم القرآن ما يفتح الله له قلبه؛ فيهتدي بهداه، وتصفو نفسه، ويستنير عقله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤].

تلك الصلاة دعامة الإسلام الكبرى، فأَقِمْها تُقِمْ دينك وتُوَفَّق بإقامتها إلى إقامة سائر الأركان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

(١) أخرجه مسلم(٨٤٢)، وعنده: «فأكثروا الدعاء».



٢٨ ـ الطهارة

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

المعنى: إذا قمتم إلى الصلاة، وأنتم على طهارة، فتوضؤوا، والوضوءُ الوارد عن رسول الله ﷺ: أن يغسل الوجه من منابت شعر الرأس إلى أسفل الذقن، وما بين شحمتي الأذنين، وأَن يغسل اليدين مع المرفقين، وأن يمسح الرأس، ثم يغسل الرجلين إلى الكعبين.

ودليلُ ذلك ـ حسبما رواه مسلم، والترمذي عن أبي هريرة ـ **رضي الله تعالى عنه** ـ: أن النبي ﷺ قال: «إذا توضّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمن، فغسل وجهه، خرجَ من وجهه كلُّ خطيئة نظرَ إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قَطْرِ الماء، فإذا غسلَ يديه، خرج من يديه كُلُّ خطيئة كان بَطَشَتْها يداه مع الماء، أو مع آخر قَطْرِ الماء، فإذا غسلَ رجليه، خرجَتْ كلُّ خطيئة مَشَتْها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قَطْرِ الماء، حتّى

يخرجَ نقيًّا من الذنوب»[1].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ السلميِّ رضي الله عنه: أنه قال: فقلت: يا نبي الله! فالوضوء، حدثني عنه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ما منكم رجلٌ يُقَرِّبُ وضوءَه، فيتمَضْمَضُ، ويستنشقُ فيستنثر، إلا خرّت خطايا وجهه من فيه وخَيَاشِيمِه، ثم إذا غسلَ وجهَهُ كما أمره الله، إلا خَرَّتْ خطايا وجهه من أطرافِ لحيتِه مع الماء، ثم يغسلُ يديه إلى المِرْفقين، إلا خرّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسحُ رأسه، إلا خرّت خطايا رأسِه من أطرافِ شعرِه مع الماء، ثم يغسلُ رجليه إلى الكعبين، إلا خرّت خطايا رجليه من أناملِه مع الماء، فإن هو قام وصلّى، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجّده بالذي هو له أهل، وفرّغ قلبه لله تعالى، إلا انصرف من خطيئته كيومَ ولدَتْه أمّه»[2].

والسنَّة أن يغسل كل عضو ثلاث مرات، إلا الرأس، فإنه لم يرد في السنة مسحُه أكثر من مرة، روى الإمام أحمد، والترمذي عن عثمان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم «توضأ ثلاثاً ثلاثاً»[3]، وروى أحمد أيضاً: أن أعرابياً جاء إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، وقال: «هذا الوضوءُ، فمن زاد على هذا،

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤)، والترمذي (٢).

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٥٧)، ومسلم (٢٣٠) من حديث عثمان، والترمذي (٤٤) من حديث علي رضي الله عنهما.

فقد أساءَ وتعدَّى وظلمَ»[1].

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[المائدة: ٦] بالغسل عن الجنابة، والجنابة كما عَرَّفها الفقهاء: وصفٌ يقوم بالبدن من نحو جِماع، أو خروج منيٍّ، أو من نحو حيضٍ أو نفاس. والغسلُ عنها أمرٌ تعبدي، وصفة الغسل كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «إنّ النّبيَّ ﷺ كان إذا اغتسلَ من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم يُفرغ بيمينه على شِماله، فيغسلُ فرجَهُ، ثم يتوضَّأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعَه في الماء يُخَلّل بها أصولَ شعره، ثم يصبّ على رأسه ثلاثَ غرفاتٍ بيديه، ثم يُفيض الماءَ على سائرِ جسدِه»[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[المائدة: ٦].

والمعنى: وإن كنتم مرضى تخافون تمكُّنَ المرض باستعمال الماء، أو خوف الهلاك منه، أو كنتم على سفر، وعَسُرَ عليكم حصولُ الماء، أو لامستم النساء، فلم تجدوا الماء، أو لم تستطيعوا استعمالَه لمانعٍ شرعي؛ فتيمموا من ترابٍ طهورٍ من وجه الأرض؛ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه؛ لأن الله ﷻ لم يرد أن يُضَيِّق عليكم، وإنما

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠)، وأبو داود (١٣٥)، والنسائي (١٤٠)، وابن ماجه (٤٢٢)، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥)، وهو عند مسلم (٣١٦) أيضاً، واللفظ له.

يريد أن يُطهركم من أوساخ الذنوب، وأدرانِ الخطايا، وليتمَّ نعمته عليكم بالتسهيل؛ فإنه ما جعل عليكم في الدين من حرج.

روى الشيخان البخاريُّ، ومسلم من حديث عمار بن ياسر - رضي الله تعالى عنه -، قال: أجنبتُ فلم أصِب الماء، فتَمَعَّكْتُ في الصعيد، وصلَّيْتُ، وذكرت ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: «إنما كانَ يكفيكَ هكذا»، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض، ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفّيه[1].

والطهارةُ شرط من شروط الصلاة، لا تصحّ الصلاة بدونها؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «لا يقبلُ اللهُ صلاةً بغيرِ طَهور»[2].

وهي قسمان: طهارة من الأحداث، وهي الوضوء، وطهارة من النجاسات الظاهرة في الثوب والجسم والمكان، ومنها الدم والبول والغائط والخمر ونحوها، ويجب غسلُها سبعَ مرات بالماء الطهور الذي لم يتغير لونُه ولا طعمُه ولا ريحه، ولم يُستعمل في طهارة عن وضوء وغسل.

والطهارة من الحدث واجبةٌ على من يريد الصلاة، أو لمسَ المصحف، أو الطوافَ بالكعبة؛ لأن هذه الثلاثة تحرم على المحدث حتى يتطهر بوضوء وغسل.

أما الجنب، فيحرم عليه معها قراءةُ آيـة من القرآن، ويحرم عليـه

---

(١) رواه البخاري (٣٣١)، ومسلم (٣٦٨).

(٢) رواه مسلم عن ابن عمر. (المؤلف). [أخرجه مسلم (٢٤٤)].

اللبثُ في المسجد حتى يغتسل، وإن لم يتوضأ.

ومن نواقض الوضوء: ما خرج من السبيلين؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[المائدة: ٦]، وقوله ﷺ: «لا وضوءَ إلا من صوتٍ أو ريح»[(١)].

ومنها: خروج النجاسة من بقية البدن؛ كالدم والقيء؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ **لفاطمة** رضي الله عنها وقد خرج منها دم: «إنه دمُ عرق، فتوضئي»[(٢)]، ولقول أبي الدرداء رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ قاءَ فتوضأ»[(٣)].

ومنها: زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم، ودليل ذلك ما رواه البيهقي عن معاوية، عن النبي ﷺ قال: «العَيْنُ وِكَاءُ السَّـهِ، فإذا نامَتِ العينانِ، استطلقَ الوِكاءُ»[(٤)]. ومعنى السَّهِ: الاستُ.

ومنها: الردَّةُ ـ **أعاذنا الله منها** ـ؛ لأنها تُحبط جميعَ الأعمال، حتى الغسلَ والوضوءَ.

ومن موجبات الغسل: خروجُ المني؛ لحديث: «إنّما الماءُ من

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة. (المؤلف). [أخرجه أحمد (٢/ ٢٧١)، والترمذي (٧٤)، وابن ماجه (٥١٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح].

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥)، وأبو داود (٢٣٨١)، والترمذي (٨٧)، وهو صحيح. انظر: «إرواء الغليل» (١/ ١٤٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٩٦)، والدارمي (٧٢٢) من حديث معاوية، وأحمد (١/ ١١١)، وأبو داود (٢٠٣)، وابن ماجه (٤٧٧) من حديث علي، وحسنه المنذري وغيره. انظر: «التلخيص الحبير» (١/ ١١٨).

الماء»(1)، والجماع، لقول الله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[المائدة: ٦]، والنفاس.

وفرضُ الغسل تعميمُ الجسد بالماء.

ويُسن إسباغ الوضوء، ويفهم منه أن يزيد في الغسل من غير وسوسة، أو أنه يتوضأ لكل صلاة؛ فقد روى الترمذي عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «من توضَّأَ على طُهْرٍ، كُتِبَ له عشرُ حسناتٍ»(2).

ويسن للمتوضىء أن يصلّي ركعتين بعدَ الفراغ من وضوئه؛ للحديث الذي رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان النبيُّ ﷺ إذا توضّأ، صلّى ركعتين، ثم خرج إلى الصلاة»(3).

ومن السنّة أن يتعهد الإنسان طهارته، بحيث يبقى دائماً على طهارة؛ لما روي في الحديث عند ابن خزيمة عن عبدالله بن بريدة عن أبيه: أن النبي ﷺ أصبح يوماً، فدعا بلالاً، وقال: «يا بلال! بما سبقتني إلى الجَنَّةِ إني دخلتُ البارحةَ الجنةَ، فسمعتُ خَشْخَشَتَكَ أمامي؟»، فقال بلال: يا رسولَ الله! ما أَذَّنت قَطُّ إلا صليتُ ركعتين، ولا أصابني حَدَثٌ قَطُّ إلا توضأت عندَه، فقال ﷺ: «بهذا!»(4).

---

(1) أخرجه مسلم (٣٤٣).

(2) أخرجه أبو داود (٦٢)، والترمذي (٥٩)، وابن ماجه (٥١٢)، وقال الترمذي: «هذا إسناد ضعيف».

(3) أخرجه ابن ماجه (١١٤٦)، وصحَّحه البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٦٢).

(4) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤)، والترمذي (٣٦٨٩)، وابن خزيمة (١٢٠٩)، =

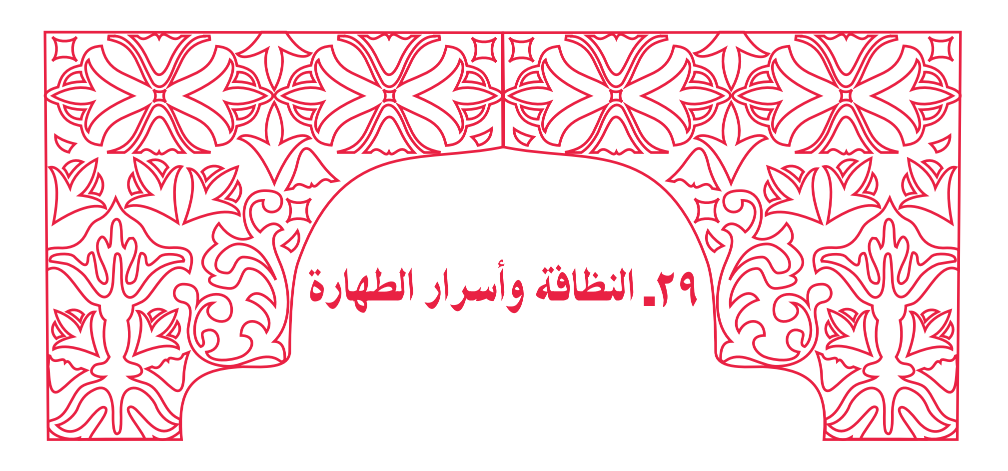
وأما من لم يهتمَّ بأمر وضوئه، فهذا لا شك كمن لم يهتم بأمر صلاته؛ لأن مَنْ لا وضوء له لا صلاةَ له، روى الطبراني عن ابن عمر: أنّ النبي ﷺ قال: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا صلاةَ لمن لا طهورَ له، ولا دينَ لمن لا صلاةَ له»[1]. وموضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد.

فالصلاة عماد الدين، والوضوء هو الطريق لها، وهو الذي يُعِدّ المرءَ للوقوف بين يدي خالقه للقيام بأشرف عملٍ أمر به؛ فإذا غفل عنه، كان من الخاسرين.

❐ ❐ ❐

= وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب».

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٢٩٢)، وفي «الصغير» (١٦٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢١): «تفرد به الحسين بن الحكم الحبري». وفي إسناده مندل ابن علي العنزي، وهو ضعيف؛ كما في «التقريب» (٦٨٨٣)، ولشطره الأول شاهد سبق تخريجه في (ص١٤٢).



٢٩ـ النظافة وأسرار الطهارة

قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاةَ أحدِكم إذا أحدثَ حتّى يتوضَّأَ»(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

وتقدم الكلام في الدرس السابق على بعض أحكام الطهارة، وفهمنا من دروسنا السابقة أن واجب المسلم امتثالُ أمر دينه تعبداً، وأَلاَّ يخوض فيما خاض فيه المتعقلون الذين جعلوا العقلَ سلطاناً على أحكام الدين؛ لأن أمر الله ﷻ فوق العقل، وحكمه فوق الإدراك، وكلما ذكرنا شيئاً من المنافع الدنيوية لما فرض الله علينا، فإن إدراكنا لا يصل إلى شيء من ذلك، إلا كما يأخذ منقار الطائر من البحر، ولعلنا نأخذ من هذا المنقار شيئاً نفيضه على هذه الصفحات، ونذكر فيه فائدتين: دينية، ودنيوية:

فمن الدنيوية ـ والله أعلم ـ: أن مجردَ استعمال الماء يفيد صاحبه نشاطاً وهِمَّة، ويزيل ما يعرض له من فُتور واسترخاء مما يسببه الحدث، أو التعب من اتصال العمل، فيقيم الصلاة على وجهها

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥)، ومسلم (٢٢٥).

نشيطاً؛ لأن أسباب الحدث إذا تعاطاها الإنسان، نال لذةً أعقبها فتور وتعب، فإذا استعمل الماء، انتعش، وزال عنه الفتور والتعب.

ومنها: أن الوضوء والغسل من النظافة، والنظافة ركن الصحة، والرسول ﷺ أخبرنا أن الإسلام بُني على النظافة كما قال: «النظافةُ من الإيمان»[(١)]، وروى البيهقي عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُبغض الوَسِخَ الشَّعِث»[(٢)]، كما أنه ﷺ أرشدَ متبعيه إلى العناية بتنظيف أجسامهم وأثوابهم ومساكنهم، حتى يكونوا جميلي المنظر محبوبين؛ فقد روى الحاكم عن سهل بن سعد: أنّ النبي ﷺ قال: «أَحْسِنوا لباسَكم، وأَصْلِحوا رِحَالكم حتّى تكونوا كأنكم شامَةٌ في الناس»[(٣)].

يريد بذلك ﷺ أن تكون نظافتهم ملفتَ الأنظار، ومبعثَ السرور، ومركز الجمال؛ كالشامة التي تقع موقعها الحسنَ من الوجه الجميل.

ولِما للنظافة من أثر صحي في الجسم أوجبَ الدين الإسلامي

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٣١١)، بلفظ: «والنظافة تدعو إلى الإيمان». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٤١): «وفيه إبراهيم بن حيان، قال ابن عدي: أحاديث موضوعة».

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٦٨)، (٦٢٢٦)، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٢٥): «موضوع».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٨٩)، والطبراني في «الكبير» (٥٦١٦)، والحاكم (٧٣٧١) من حديث سهل بن الحنظلية، لا سهل بن سعد، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٥/ ٩٩).

الاستنجاءَ، وأوجبَ الختان، وحبب لمتبعيه الاستحدادَ، وتنظيفَ الإبط، وتقليمَ الأظفار، وترجيلَ شعر الرأس واللحية، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كان له شعرٌ، فليكرمْه» رواه الدارقطني عن أبي هريرة[1]. وإكرامُ الشعر: غسلُه، وتسريحُه حتى لا يتشعّث.

كما أن النبي ﷺ أمرنا بغسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده، وأمرنا بتعهد أطرافنا، وأمرنا بالسواك، ومن ذلك قولُه ﷺ: «لولا أن أَشُقَّ على أُمتي، لأمرتُهم بالسواكِ عندَ كلِّ صلاة» رواه الشيخان، وغيرُهما عن أبي هريرة[2]، والنسائي عن زيد بن خالدٍ الجهني[3]، وقوله ﷺ: «لولا أن أشقَّ على أمتي، لأمرتهم بالسواكِ والطيبِ عندَ كلِّ صلاة».

رواه ابن منصور عن مكحول[4]، وروى نحوه الشافعيُّ، والبيهقيُّ عن أبي هريرة، والطبرانيُّ عن علي رضي الله عنه، ولفظه: «لولا أن أشقَّ على أمتي، لأمرتُهم بالسواك مع كل وضوء»[5].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٨٥)، وإسناده حسن؛ كما في «فتح الباري» (١٠/ ٣٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٠٤١).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٣٢١)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «ضعيف الجامع» (٤٨٥٣).

(٥) أخرجه مالك (١٤)، والشافعي (٤٠)، وأحمد (٢/ ٤٦٠)، والبيهقي (١٤٧) عن أبي هريرة، والطبراني في «الأوسط» (١٢٣٨) عن علي، وصححه ابن خزيمة (١٤٠).

ومن ذلك: قولُه ﷺ لقوم دخلوا عليه قد اصفرَّتْ أسنانُهم: «اسْتاكوا، مالَكُم تدخلونَ عَلَيَّ قُلْحاً؟!» رواه ابن عساكر عن تمام[(١)].

ومنها: تكريمُ المسلم نفسَه في نفسه، وفي أهله وفي قومه؛ لأن من كان نظيف البدن والثياب، كان أهلاً لحضور كل مجتمع، وجديراً بلقاء كل إنسان، ويرى نفسه حرياً بكل كرامة، أما القذِر، فإنه يكون محتقراً في نفسه فضلاً عن غيره.

يؤيد ذلك ما روي أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكد غُسلَ الجمعة، وأمر بلبس جميل الثياب لها؛ لأنه يوم عيد جعله الله للمسلمين، وقال: «فمن جاءَ الجمعةَ، فليغتسلْ»[(٢)]، وأمر مَنْ كان عنده طيبٌ أن يمسّ منه، وأوجبَ بعضُهم الغسلَ للجمعة؛ لقوله ﷺ: «غسلُ يومِ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ» رواه مالك، وأحمد، وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه[(٣)].

أما الفوائد الدينية: فإن الله عز وجل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، وأثنى على أهل مسجد قباء؛ فقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾[التوبة: ١٠٨].

وإنّ الطهارة الخارجية تسوق المرء إلى تطهير روحه بصرفها عن

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٨)، والبزار (١١٦٢)، والطبراني (١٢٨٦) عن تمام بن العباس، وضعّفه ابن التركماني في «الجوهر النقي» (١/ ٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١١٤٦٨)، وفي «الأوسط» (٧٣٥٥)، وحسنه المنذري في «الترغيب» (١/ ١٧٢ = صحيحه).

(٣) أخرجه مالك (٢٣٠)، وأحمد (٣/ ٦)، والبخاري (٨٢٠)، ومسلم (٨٤٦).

مشاغل الحياة، واحتساب أعماله في طاعة الله؛ بحيث يصرفها حسب أوامر الله ليدرك السعادة المطلوبة التي هي غاية مطلب الإنسان، فإذا فعل ذلك، طهر أخلاقه؛ فأصبح طاهراً في بدنه وثوبه، طاهراً في روحه، طاهراً في خلقه. وهنا يصبح موضعَ نظر الله ﷻ؛ كما في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم»[(١)]؛ لأن أعمال القلوب هي المصحّحة لأعمال الجوارح ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

ثم إن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا في آخر آية من سورة المائدة: أنه إنما يريد ليطهرنا، وليتم نعمته علينا؛ لعلنا نشكره على إسباغه الفضل علينا، فهو يريد أن يطهر أجسامنا بالنظافة من الأقذار والأوساخ، وليطهر أرواحنا من الرذائل والعقائد الفاسدة؛ فنكون حينئذ أنظفَ الناس أبداناً، وأزكاهم نفوساً، وبذلك نكون أصحّ الناس أجساداً، وأرقاهم أرواحاً، ويصدق علينا حينئذ قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة: ١٤٣]؛ لأنه متى زكت النفوس، ورقت الأرواح، كانت عاملة مع خالقها، تنفذ أمره، وتتباعد عن نهيه، فتأمر بالمعروف عاملة به، وتنهى عن المنكر وتنتهي عنه، وتكون خير الأمم.

فإذا كنا كذلك، أتمَّ اللهُ نعمتَه علينا بأن قبلَنا للوقـوف بين يديـه في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

أحبِّ الأعمال إليه: ذلك هو الصلاة التي هي عماد الدين، كما أن الروح عماد الجسد، والصلاة تطهِّر وتزكِّي النفسَ، وتعوِّد المرءَ مراقبةَ ربه في السر والعلن، وخشيتَه عند الإساءة، ورجاءَه عند الإحسان، ومتى عرفنا ذلك، عرفنا كيف نشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، ونسأله المزيد من فضله.

روى البيهقي، وغيرُه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من توضّأ فأبلغَ الوضوءَ، ثم قام إلى الصلاة، فأتمّ ركوعَها وسجودَها والقراءَة فيها؛ قالت: حفظَكَ اللهُ كما حَفِظْتني، ثم يصعد بها إلى السماء، ولها ضوءٌ ونور، فتُفتح لها أبوابُ السماء حتى يُنْتَهى بها إلى الله تعالى، فتشفع لصاحبها، وإذا لم يُتمّ ركوعَها ولا سجودَها، ولا القراءة فيها، قالت: ضَيَّعَكَ اللهُ كما ضَيَّعْتني، ثم يُصعد بها إلى السماء وعليها ظلمةٌ، فتُغْلَق دونها أبوابُ السماء، ثم تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلَق، ويُضرب بها وجهُ صاحبها»[1].

وروى البخاري، ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: واللهِ! لأحدثنكم حديثاً لولا آيةٌ في كتاب الله ـ يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩] ـ ما حدثتكموه: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يتوضّأ رجلٌ، فيُحسن وضوءه، ثم يصلِّي الصلاةَ، إلا غفرَ الله

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٨٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣٠٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣١٤٠)، وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٠٠).

له ما بينها وبين الصلاة التي تليها»[1].

والدينُ الإسلامي حَذَّرنا من جميع الأقذار، وحتى من رذاذ البول عندما يجلس الإنسان لحاجته؛ فقد روى الطبراني عن أبي أمامة ﵁ عن النبي ﷺ، قال: «اتّقوا البول فإنّه أَوّلُ ما يُحاسب به العبدُ في القبر»[2].

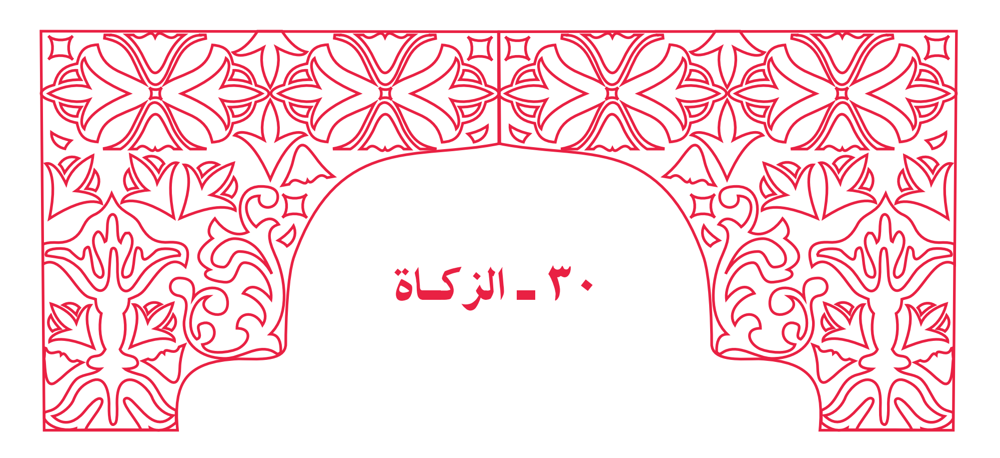
وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما: أنه ﷺ مر بقبرين، فقال: «إنّهما يعذّبان، وما يعذّبان في كبير ـ بلى إنّه كبير ـ أمّا أحدُهما، فكان يمشي بالنّميمة، وأما الآخر، فكان لا يستنزِهُ من البول»[3].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه البخاري (١٥٨)، ومسلم (٢٢٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٦٠٥)، وهو حديث موضوع. انظر: «الضعيفة» (٤/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٥)، ومسلم (٢٩٢)، وفيهما: «يستتر»، بدل: «يستنزه». ورواية «يستنزه» عند النسائي (٣١)، وابن ماجه (٣٤٧).



٣٠ ـ الزكـاة

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

أمر الله نبيه ﷺ قائلاً له: خذ من أموال المؤمنين ـ على اختلاف أنواعها ـ صدقةً معينةً تطهرهم بها من دَنَس البخل والطمع والدناءة، وغيرِ ذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها، فترفعها إلى الفضائل الخلقية حتى تكون أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[النور: ٢١].

فالرسول ﷺ هو المربِّي الأكبرُ الذي بعثه الله ﷻ إلينا؛ ليعلمنا الكتابَ والحكمة، ويتلو علينا آياتِ الله التي تزكينا، فإذا آمنا بها، وفهمناها حق المعرفة، وعلمنا أن ما جاءنا به هو الحقُّ من عند الله، وعملنا بأوامره، وانتهينا عن نواهيه، فقد زكينا أنفسنا بتزكية النبي ﷺ التي جاءنا بها من عند الله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وقد تقدم الكلام على الزكاة في الدرس الرابع تحت عنوان «الصدقات المفروضة». والزكاةُ هي الركنُ الثالث من أركان الإسلام

الخمسة، وهي ـ وإن كانت عبادة مالية ـ إلا أنها مع ذلك عبادة روحية؛ بدليل الآية المتقدمة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣]، ولعل الناحية الروحية بها أكبرُ من الناحية المادية؛ كالصلاة، والصيام، وأداؤها واجب على كل مسلم ملكَ النصابَ، ومن امتنع عن أدائها، قاتله خليفةُ المسلمين، ولا تسقطُ عن المسلم متى وجبت في ماله، وتجب على مَنْ ملك نصاباً شرعياً فَضَلَ عن نفقته ونفقة عياله وديونه وحاجته، وعلى الصبي والمجنون من المسلمين، ولا تجبُ على غير مسلم، ولا على من لا يملك نصاباً يفضل عن ديونه وحاجاته.

وهي ربعُ العشر؛ أي: من كل مئة اثنان ونصف، في الذهب والفضة وعروض التجارة؛ فنصابُ الذهب عشرون مثقالاً، وهي ما يقارب ٨ توله ونصف بالوزن الهندي ذهباً صرفاً، ونصابُ الفضة مئتا درهم، وهي ما يقارب ٥٨ توله بالوزن الهندي فضةً خالصة، أما العروض التجارية، فالعمدة في أثمانها، وأما الزكاةُ في الحبوب وفي الثمار وفي المواشي، فقد بين الفقهاء مقدارَ أنصابها، وما يؤخذ منها مفصلاً في كتبهم.

ومصارفُها ووجوهُ إنفاقها محددةٌ بحدّ معروف، ولا تُصرف إلا لمن ذكرهم الله في كتابه العزيز في الآية الستين من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦٠]، وقد عرفهم الفقهاء بنحو ما يأتي:

١ ـ الفقراء: من تكون نفقاتُهم أكثرَ مما يملكون، أو كبعض الموظفين

والعمال الذين يصرفون أكثَر من دخلهم، أو كبعض مستوري الحال.

٢ ـ المساكين: مَنْ لا يملكون مالاً، ولا عملاً.

٣ ـ العاملون عليها: وهم موظفو الدولة في جباية الزكاة وتوزيعها، يأخذون أجورهم منها.

٤ ـ المؤلّفة قلوبهم: وهم قوم يُطمع في إسلامهم، ويرى أولو الأمر في التودّد إليهم استمالتهم للإسلام.

٥ ـ في الرّقاب: وهم الأرقّاء يُعْطَون من مال الزكاة؛ ليعتقوا أنفسهم، أو تُشترى رقابهم من مال الزكاة، فتعتق.

٦ ـ الغارمون: المَدينون.

٧ ـ في سبيل الله: الجهاد وقتال الكفار.

٨ ـ وابن السبيل: هو المسلم المسافر المنقطع عن أهله وماله.

فإنْ لم يكن من هذه الأصناف الثمانية أحد، دُفعت إلى بيت مال المسلمين؛ ليحفظها، وتُصرف عند الحاجة في أوجهها.

روى البخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه اللهُ مالاً فلم يُؤَدّ زكاتَه مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعاً ـ حية عظيمة ـ أقرعَ له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيْه ـ شِدْقَيه ـ، ثم يقول: أنا مالُكُ، أنا كنزك». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ١٨٠][(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٩٨٨) من حديث جابر بنحوه.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الأمرَ بإيتاء الزكاة بإقامة الصلاة في كثير من آيات كتابه الكريم، ومن أقام الصلاة على وجهها لا ينسى الله، ولا يغفل عن رجاء فضله، ومن كان كذلك، كان جديراً ببذل المال في سبيله؛ مواساة لعياله؛ لأن «الخلق كلّهم عِيَال الله، وأحبّهم إلى الله أبرّهم بعياله»(١)؛ فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بالسعي في سبيله، وبالعمل معهم، فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم، فإذا عجز بعضُهم عن الكسب بسبب مّا، وجب على بني دينه الأخذُ بيده ومعاونتُه؛ حفظاً للمجموع الذي ترتبط مصالحُ بعضه بمصالح البعض الآخر.

إنّ الغني في حاجة دائمة إلى الفقير، كما أن الفقير في حاجة ماسة إلى الغني، ولكن النفوس تمرض، فتغفل عن المصلحة في بذل المال؛ حباً في المال، وشُحّاً به؛ لهذا جعل الله تعالى بذلَ المال والإنفاقَ في سبيل الخير علامةً من علامات زكاة النفس، وآية من آيات الإيمان، وجعل البخلَ آيةً من آيات النفاق ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر: ٩].

روى البخاري، ومسلم، وغيرُهما عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن في السنة العاشرة من الهجرة والياً ومعلّماً وقاضياً: «إنك ستأتي قوماً أهل

---

(١) حديث رواه أبو يعلى عن أنس، والطبراني عن ابن مسعود (المؤلف). [أخرجه أبو يعلى (٣٣١٥)، والطبراني (١٠٠٣٣) بإسنادين ضعيفين جداً؛ فيهما متروكان. انظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٤٩)].

كتاب؛ فإذا جئتَهم، فادْعُهم إلى أن يشهدوا أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمّداً رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لكَ بذلك، فأخبرْهُم أن الله فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لكَ بذلك، فأخبرْهم أن الله قد فرضَ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم، فَتُرَدُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لكَ بذلك، فإيّاك وكرائِمَ أموالِهم، واتّق دعوةَ المظلوم؛ فإنّها ليسَ بينَها وبينَ الله حجابٌ»[1].

وروى البخاري، ومسلم، وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما تُوفي رسولُ الله ﷺ، واستُخلف أبو بكر بعدَه، وكفر مَنْ كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف نقاتلُ الناسَ وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتلَ النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها، عصمَ منّي مالَه ونفسَه إلا بحقّه، وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ! مَنْ فرّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حقّ المال، والله! لو منعوني عنَاقاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فو الله! ما هو إلا أن شرح الله صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[2].

ثم بعد ذلك لام أبو بكر عمر رضي الله عنهما: فقال له: «أجبارٌ في الجاهلية، خَوَّارٌ في الإسلام؟ يا عمر! إنه قد انقطع الوحي، وتمّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (٩).

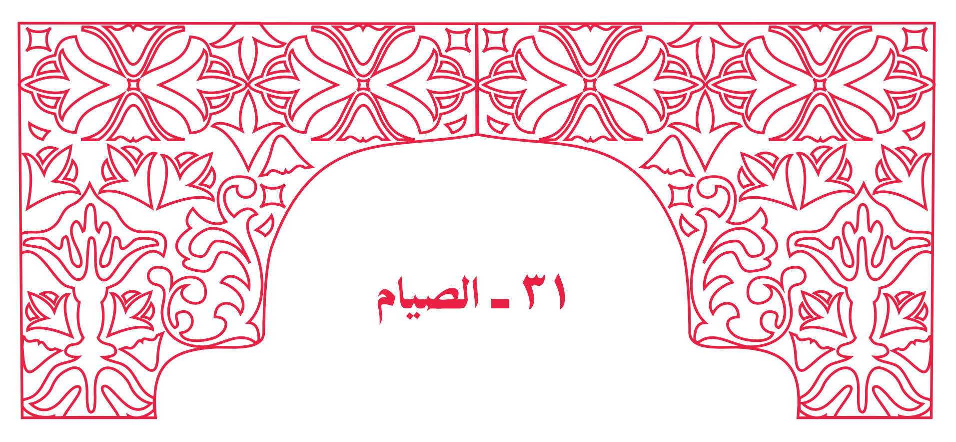
(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٥)، ومسلم(٢٠).

الدين، أو ينقصُ وأنا حي؟ يا عمر! والله! لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة»[1].

وعقد أبو بكر أحدَ عشرَ لواءً لقتال هؤلاء المانعين للزكاة المرتدين عن الإسلام، فانتصر عليهم، ونصر الله به الإسلام.

❒ ❒ ❒

(١) رواه رزين؛ كما في «مشكاة المصابيح» (٣١٣).



٣١ ـ الصيام

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾[البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤].

والصيام ـ كما عرفه الفقهاء ـ: إمساكٌ مخصوص، في وقت مخصوص، عن أشياءَ مخصوصة. وهو: حبسُ النفس عن الشهوات، وعما أَلِفَتْه من بعض العادات. أو هو: إمساكٌ عن المُفَطِّرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النيّة.

والصومُ عبادة قديمةٌ عُرفتْ في الأديان التي قبلَنا على اختلاف أنواعها؛ فمنه صيامُ مريم لما قالت: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾[مريم: ٢٦]. وكان إمساكاً عن الكلام.

وصيامُ اليهود يوماً وليلةً بلا طعام ولا شراب، وصيام النصارى على اختلاف مذاهبهم عن بعض أصناف الطعام في موسم معين من السنة.

والله ﷻ كتب الصيام على الأمة الإسلامية كما كتبه على مَنْ قبلَها من الأمم مع اختلاف في التشريع، وجعله في الإسلام ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[البقرة: ١٨٧].

وفُرض الصومُ على الأمة الإسلامية في السنة الثانية من الهجرة، وكان فرضه تخييراً كما يدل عليه ظاهرُ الآية، ثم حُتِم بنزول الآية الثانية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥].

والصيامُ عبادة بدنية روحية، وترويضٌ للنفس على الصبر عند تحمُّل المشاق؛ لأنه كَفٌّ لها عمَّا ألِفَتْه من العادات، والنفسُ شديدٌ عليها أن تُحرم مما في يدها.

لهذا كان الأمر بالصيام أمراً لطيفاً، دعا الله عباده المؤمنين إليه بأحبِّ الصفات إليهم، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة: ١٨٣]، كما قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[التوبة: ١٢٣]، ولأن الصيام شاقٌّ على النفس حقيقة، قال ﷺ: «الصيامُ نصفُ الصَّبر، والصبرُ نصفُ الإيمان»(١).

روى أحمد، ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ قال:

---

(١) أخرج الشطر الأول من الحديث ـ الصيام نصف الصبر ـ: أحمد (٤/ ٢٦٠)، والترمذي (٣٥١٩)، وابن ماجه (١٧٤٥)، وضعفه البوصيري في «الزوائد» (١/ ٥٥٥). والشطر الثاني: أخرجه الطبراني (٨٥٤٤)، والحاكم (٣٦٦٦) موقوفاً على ابن مسعود، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأما رفعه إلى النبي ﷺ، فلا يثبت؛ كما قال الحافظ في «الفتح». (١/ ٤٨).

«قالَ اللهُ ﷻ: كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له، إلاّ الصيامَ، فإنه لي، وأنا أَجْزي به»، ثم قال ﷺ: «الصيامُ جُنَّة، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم؛ فلا يرفثْ، ولا يصخَبْ، ولا يجهلْ، فإن شاتَمَهُ أحدٌ، أو قاتله، فليقلْ: إني صائم، إني صائم، والذي نفسُ محمّدٍ بيده! لَخُلوفُ فمِ الصائم أطيبُ عندَ الله من ريح المسك، وللصائمِ فرحتان يفرحُهما: إذا أفطرَ فَرِحَ بفطره، وإذا لقيَ ربَّه فرحَ بصومه»[1].

أسند الله تعالى الصومَ لنفسه من دون سائر العبادات؛ لأن أكثر العبادات ـ بدنية أو مالية ـ ربما يدخلُها الرياء؛ لاطّلاع البشرِ عليها، ولكن الصوم سرٌّ بين العبد وربه، لا يَطَّلع عليه أحدٌ سواه، ولا يدخله رياء؛ ولأنه صبر وجهاد، فلذا كان جزاؤه خاصاً به، فقال: «الصومُ لي وأنا أجزي به، يترك طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلي»[2].

ويجب على الصائم وجوباً حتميّاً أن يحفظ جوارحَه من الآثام؛ فينزه لسانَه عن الكذب والغيبة والنميمة، والرفَثِ والفحش، ويطهر نظرهَ عن الحرام، وسمعَه عن اللغو والاغتياب؛ لما رواه البخاري عن النبي ﷺ: أنه قال: «مَنْ لم يدعْ قولَ الزورِ والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣)، والبخاري (١٨٠٥)، ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٩٥)، ومسلم (١١٥١)، واللفظ مركَّب من روايتيهما.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٤).

وللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في أنه يحفظ على الجوارح صحّتها، ويُعيد إليها نشاطها، ويُعوضها ما استلبته منها أيدي الشهوات، وفي الحديث الذي رواه ابنُ السُّنِّيِّ عن أبي هريرة: أن النبيَّ ﷺ قال: «صوموا تَصِحُّوا»(١) خيرُ دليل على ذلك، كما أن في المشاهدة أقوى برهان، وفي التجربة أقوى دليل.

وروى أحمدُ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «الصيامُ والقرآنُ يَشفعان للعبد يومَ القيامة، يقول الصيام: أيْ رَبّ! منعتُه الطعامَ والشهواتِ، فَشَفِّعني فيه، ويقول القرآنُ: منعتُه النومَ بالليل، فشفِّعْني فيه؛ فيشفعان»(٢).

وروى أحمدُ وغيره عن أبي أُمامة الباهليِّ، قال: أتيت النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله! مرني بعمل يُدخلني الجنة، قال: «عليكَ بالصومِ؛ فإنّه لا عِدْل له». ثم أتيته الثانية فقال: «عليكَ بالصيام»(٣).

والصوم قسمان: نفل، وفرض: فالنفل منه تطوعٌ، ومنه سنة، والتطوع لم يعتبر بأيام معلومة، والنفل؛ كصيام يوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة. وسيأتي الكلام عليه في درس مقبل.

والفرض ثلاثة أنواع: صوم رمضان، وصوم الكفارات، وصوم النذر.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٣١٢)، وسنده ضعيف. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم (المؤلف). [أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)].

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤)، والحاكم (٢٠٣٦)، وصححه.

وصوم رمضان واجبٌ بالكتاب بقول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥]، وبالسنة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادةِ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان»[(١)]، وواجبٌ بالإجماع؛ لأن الأمة الإسلامية أجمعت على أنَ صوم رمضان أحدُ أركان الإسلام، وأن منكره كافرٌ مرتَدّ.

وفُرِض صومُ رمضان في الليلة الثانية أو الثالثة من شهر شعبان في السنة الثانية للهجرة، وثبت أن النبيَّ ﷺ صام تسعةَ رمضانات فقط، ولما حضر رمضان، قال ﷺ: «قد جاءكم شهرٌ مبارك، افترضَ الله عليكم صيامَه، تُفتح فيه أبوابُ الجنة، وتُغلق فيه أبوابُ الجحيم، وتُغَلُّ فيه الشياطينُ، وفيه ليلةٌ هي خيرٌ من ألف شهر، مَن حُرِمَ خيرَها، فقد حُرِم»[(٢)].

وأمّا الآية الكريمة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة: ١٨٥]؛ فإنها تحبّبنا في الصوم، وأنه أيّامٌ معدودات هي كلُّها شهر رمضان، وهو شهر مبارك ميمون، شرفه الله بأن أنزل فيه القرآن الذي هو هدًى

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٩)، والنسائي (٢٢٢٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٩٣)، وابن حبان (٣٤٢٦)، والحاكم (١٥٣٣)، وصححه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠)، والنسائي (٢١٠٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣٦٠٠)، وهو في «صحيح الترغيب» (٩٩٩).

للناس، وآيات بيّنات واضحات كلُّها نورٌ لا غموض فيها ولا إشكال؛ فرّق الله بها بين الحق والباطل، وهدى بها من شاء من عباده إلى صراطه المستقيم الموصل لما يحبّه ويرضاه، وأنه أنزل هذا الكتاب في ليلة مباركة من هذا الشهر، هي ليلةُ القدر التي هي خير من ألف شهر، الليلة التي مَنْ قامها إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه. والصوم نعمة من الله، وتكليف لمصلحة العباد، فمن حضر الشهر وهو سليم معافى لا عذرَ له من مرض أو سفر، فليصمه، ومن كان مريضاً، أو على سفر فعدَّة من أيام أخر؛ لأن الله ﷻ يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر، أما من ليس له عذر، فليصمه.

ولِما للصوم من تهذيب روحي، ولا سيما في شهر رمضان، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه» رواه أحمد، وغيره[١].

وروى الترمذي، والحاكم عنه أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلّ عليَّ، ورغمَ أنفُ رجل دخلَ عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبلَ أن يُغفر له، ورغم أنفُ رجلٍ أدركَ عنده أبواه الكِبَرَ، فلم يُدخلاه الجنة»[٢]. والله أعلم.

❒❒❒

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي (٣٥٤٥)، وابن حبان (٩٠٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».



٣٢ ـ شهر رمضان وبعض أحكام الصوم

روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أفطرَ يوماً في رمضانَ من غيرِ رخصةٍ ولا مرضٍ، لم يقضِهِ صومُ الدهرِ وإنْ صامَهُ»[١].

وقد بيّن الله لنا الرخصةَ في كتابه العزيز من أنها مرض، أو سفر، وأطلق كلمةَ المرض والسفر، وبين لنا العلماء والفقهاء ـ عليهم رحمة الله ـ بأن المرض الذي يباح معه الفطرُ هو ما يتضرر به البدنُ بسبب الصوم، أو أن الصوم يُطيل مدته، أو تتلف بسببه النفسُ، أو يسبب تلفَ عضو في البدن.

وكذا يباح الفطر للحامل، والمرضع، وتَقضيانِه، وعلى وليِّ الطفل إخراجُ فدية هي إطعامُ مسكين عن كل يوم إذا خافتا على الولد، أما إذا خافتا على نفسيهما، فعليهما الإطعامُ، فإن لم يحصل خوف عليهما أو على الولد، فلا فطرَ، ويباح الفطر أيضاً لمن عطش، فخافَ التلفَ على نفسه.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٦)، وأبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٢)، وعلّقه البخاري (٢/ ٦٧٢) بصيغة التمريض إشارة إلى ضعفه.

ومن الأعذار المبيحة للفطر: السفرُ المباح، وقد ثبت عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم أفطروا في السفر، وقالوا لمن لم يفطر: قد رغبوا عن هدي محمد، وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: «غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ لِستَّ عشرةَ مضتْ من شهر رمضان، فمِنَّا مَنْ صام، ومن أفطر؛ فلم يعبِ الصائمُ على المفطرِ، ولا المفطرُ على الصائم»(١).

وأما الحائض والنفساء، فيحرم عليهما الصيام، ولا ينعقد؛ لما روى البخاري عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «كنّا نحيضُ على عهد رسول الله ﷺ، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(٢).

وأما من أفطر لكبر أو مرض قد لا يرجى برؤه، فعليه الكفارةُ، ولا قضاء عليه، والكفارة هي إطعام مسكين عن كل يوم، ومقدار الطعام مُدُّ بُرٍّ، أو نصف صاعٍ من غيره، والمُدُّ هو إناء يسعُ رِطْلاً وربعَ الرطل من الحنطة النقية، أو ٥٤٣ غرام منها؛ وهو ربعُ الصاع، والصوم الحقيقي الذي يراد به وجهُ الله تعالى يقوي النفس على الصبر، والحلم وهو تجنبُ ما من شأنه إثارةُ الغضب؛ لأن «الصومَ نصفُ الصبر، والصبر نصف الإيمان»(٣)؛ كما قال نبي الإسلام ﷺ، لما روى النسائي عن معاذ بن جبل في حديثه الطويل أن النبي ﷺ قال له: «ألا أَدُلُّك على أبوابِ الخير؟»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: الصوم جنّة»(٤).

(١) أخرجه مسلم (١١١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٥)، ومسلم (٣٣٥)، واللفظ له.
(٣) سبق تخريجه في (ص ٢٤٨).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الترمذي.

نعم إن الصوم جُنَّة، إنه جنةٌ من النار، وجنة من عذاب الله، وجنة للمؤمن من سوء الأخلاق. ومن يلاحظْ حالَ الصائمين في رمضان، وما هم عليه من تحرِّي الطاعة، وتحري سبل الخيرات، وابتعادهم عن المعاصي، ورغبتهم في الإحسان، يدركْ أن الصوم من أعظم أسباب الهداية، ويدركْ معنى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ١٨٤]، ويدركْ معنى قوله ﷺ: «الصومُ جُنَّة».

ولولا الصومُ ما عرف المترفون ألمَ الجوع؛ ولهذا يُولِّدُ الصوم في نفوس الصائمين الشفقةَ والإحسان والرأفة، ويمرنهم على الرحمة التي تدعو إلى الكرم، ويطهر نفوسَهم من الشحِّ والبخل.

وقد توهَّم كثير من الناس أن الصوم يثير الغضب، حتّى إذا أفحشَ أحدهُم بالكلام، اعتذرَ عن نفسه بأنه صائم، أو أعذروه بقولهم: لا عتبَ عليه، إنه صائم، وهذا وهمٌ باطل؛ لأنهم لم يعرفوا حقيقة الصوم بأنه جنة عن الرذائل، ولم يسمعوا قولَ النبي ﷺ: «إذا كانَ يومُ صوم أحدِكُم، فلا يرفُثْ، ولا يصخَبْ، ولا يجهَلْ، فإن شاتَمَه أحدٌ أو قاتَلَهُ، فليقلْ: إني صائم، إني صائم» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

وكثير من الناس يترقب الغروبَ أشدَّ ترقب، فإذا توارتِ الشمسُ بالحجاب، انقضَّ على طعامه انقضاضَ الوحش الجائع على فريسته؛ فملأ معدته بأنواع المأكول والمشروب؛ فكأنه لم يمسكْ نهاره عن الأكل إلا لكي يستكثرَ منه ليلاً، فيقع في الأمراض، وهذا مما ليس هو

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٥)، ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

المقصود من الصوم، بل المقصود منه تهذيبُ النفس وتطهيرُها من الأخلاق الموبوءة، وترويضُها على الطاعات، وعلى الصبر، وإعدادُها للسعادتين الدنيويةِ والأخرويةِ، ومن كان ذلك فعله، كان صومُه مخالفاً لما أراد الله تعالى.

روى البخاري، ومسلم عن ابن عباس، قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيدارسُهُ القرآنَ، وكان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخير من الريح المرسَلَة»[١]، وكان ﷺ يُكثر في رمضان من الصدقة والإحسان، ويحث الناس عليهما، ويقول: «مَنْ فَطَّرَ صائماً، كان له مثلُ أجرِه، غير أن لا ينقص من أجرِ الصائم شيء» رواه الترمذي عن زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ[٢].

وكان يُكثر من تلاوة القرآن، والصلاة، والذِّكْر، والاعتكاف، ومن واجب المسلم أن يكون له في نبيه أسوةٌ حسنة في أقواله وأفعاله حتى يكون مسلماً حقّاً.

وقد شدّد بعض الناس على أنفسهم، فظنوا غيرَ المفطِّرات مفطراتٍ؛ فكان بعضهم إذا غلبه القيء، قضى، وإذا دخل حلقَه نحو غبار، أو دخان، قضى، وبعضُهم استهان بالصوم، فكان إذا حصل له من ذلك شيء، أفطرَ، والحقيقةُ غيرُ ذلك: فمن ذَرَعَهُ القيء، أو دخل

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (١١٤)، والترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦)، وصححه الترمذي.

حلقَه غبار أو دخان من غير قصد، أو أنقذَ غريقاً فدخل جوفَه الماء، أو بالغَ في المضمضة والاستنشاق، فوجد طعمَ الماء في حلقه، لم يفطر، ولا يفطرُ كذلك إن جُرح، أو ظهر من أَسنانه الدم، أو تطيب في بدنه أو ثوبه، أو أكل أو شرب ناسياً، أو أصبح جنباً؛ فقد روى البخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ الرسول ﷺ قال: «إذا نسيَ أحدُكم، فأكلَ أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنما أطعمَه اللهُ وسقاه»[1]، وروى الشيخان عن عائشة، وأمّ سلمة، قالتا: «كان رسولُ الله ﷺ يصبح جنباً وهو صائم، ثم يغتسل»[2]، وروى أحمدُ، ومالكٌ عن بعض أصحاب النبي ﷺ: أنه قال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصبُّ على رأسه الماء وهو صائمٌ؛ من العطش، أو من الحرّ[3].

وقد أحلّ الله لنا الاتصالَ بنسائنا لياليَ رمضانَ، ومخالَطَتَهُنَّ مخالطةَ الثوب للجسد، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧].

فقد اطلّع على ما صدر منكم أيام كان الاتصالُ بالنساء ليلةَ الصوم محظوراً عليكم، وقد أُبيح ذلك، فلا مانعَ، وقد عفا الله عما سلفَ، وتابَ عليكم؛ فباشِروا نساءكم، وابتغوا ما كتب الله لكم من

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣١)، ومسلم (١١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (١١٠٩).

(٣) أخرجه مالك (٦٥١)، وأحمد (٣/ ٤٧٥)، وأبو داود (٢٣٦٥)، وهو صحيح. انظر: «مشكاة المصابيح» (٢٠١١).

النسل، وكلوا واشربوا من غروب الشمس ـ واعملوا المباحات كذلك ـ حتّى يتبيّن لكم الخيطُ الأبيض من الفجر، ثم أمسكوا إلى دخول الليل، وأوله غروبُ الشمس.

فمن هذا نفهم أن أكلة السحور فضيلةٌ إسلامية مستحبة تحصل ولو بأكل لقمة، أو شرب جرعة ماء، ووقتُه ما بين منتصف الليل وطلوع الفجر، وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «السحورُ أكلةٌ بركة، فلا تدعوه، ولو أن يَجْرع أحدُكم جرعةً من ماء؛ فإن الله وملائكته يصلّون على المتسحّرين»[1].

وبركةُ السحور أنه يقوي الصائمَ، وينشطه، ويهون عليه الصيام، ورُوي بسند صحيح عن عمرو بن ميمون قال: كان أصحابُ محمدٍ ﷺ أعجلَ الناس إفطاراً، وأبطأَهُم سحوراً[2].

إذن يُستحب للصائم أن يعجل الفطرَ متى تحقق غروب الشمس، فقد روى البخاري، ومسلم عن سهل بن سعد: أن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ الناسُ بخير ما عَجَّلوا الفطرَ»[3].

ويُستحب الدعاءُ عند الإفطار، فقد روى ابن ماجه عن عبدالله بن عمرِو بنِ العاص: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ للصائم عندَ فِطْره لدعوةً

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢)، وقال المنذري: «وإسناده قوي». «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٥٨ = صحيحه).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧٩١٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٥٦)، ومسلم (١٠٩٨).

ما تُرَدّ»، وكان عبدُالله بنُ عمرٍو هذا إذا أفطرَ يقول: اللّهمَّ إني أسألك برحمتك التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ أن تغفرَ لي[1]، وثبتَ عن النبي ﷺ أنه يقول عند الفطر: «ذهبَ الظمأُ وابتلَّتَ العروقُ وثبتَ الأجرُ إن شاءَ الله تعالى»[2]، وكان يقول: «اللّهمَّ لكَ صمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ»[3]، وروى أحمد، والترمذيُّ بسند حسن عن أبي هريرة: أنه ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم: الصائمُ حين يُفطر، والإمام العادلُ، ودعوةُ المظلوم يرفعها الله تعالى فوقَ الغمام، وتُفتح لها أبوابُ السماء، ويقولُ الربُّ تباركَ وتعالى: وعِزَّتي! لأنصرَنَّكِ ولو بعد حين»[4].

لهذا كان على الصائم أن يُكثر من سؤال ربه العفوَ والمغفرة، وأَحسنُ الدعاء: اللّهمَّ إنك عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عني.

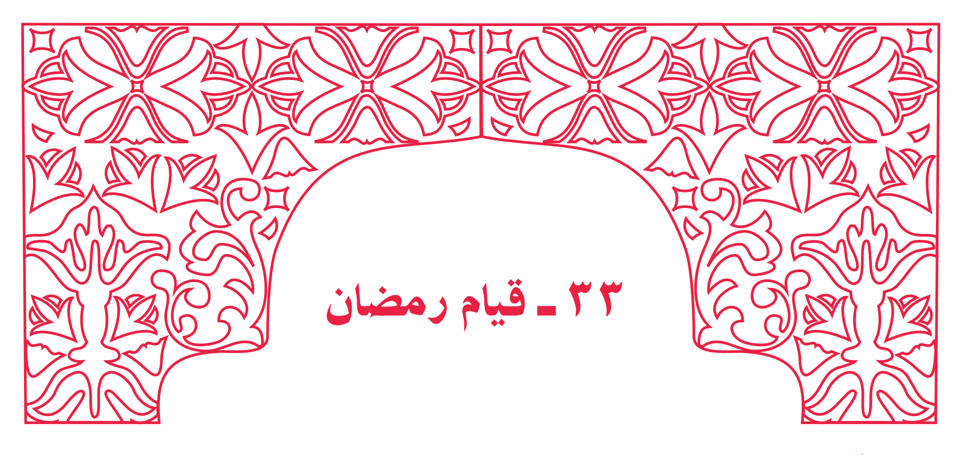
❐ ❐ ❐

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣)، وهو حديث ضعيف. انظر: «الإرواء» (٤/ ٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧)، والدارقطني (٢/ ١٨٥)، وقال: «وإسناده حسن».

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٥٨)، وإسناده ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥)، والترمذي (٣٥٩٨)، وقال: «هذا حديث حسن».



٣٢ ـ قيام رمضان

سنة التراويح:

روى البخاري، ومسلم عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قامَ رمضانَ إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تْقدَّمَ من ذنبه»[(١)].

يُرغِّب ﷺ في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة؛ لكيلا يشدِّد على أمته.

وأخبرتنا عائشةُ رضي الله عنها كيف شُرعت التراويح، فقالت: إنّ رسولَ الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل، فصلّى في المسجد، وصلّى رجالٌ بصلاته، فأصبح الناس، فتحدّثوا، فاجتمع أكثر منهم ـ يعني: في الثانية ـ فصلّوا معه، فأصبح الناس، فتحدّثوا، فكثر أهل المسجد في اللّيلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ، فصلّى، فصلّوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة، عجز المسجد عن أهله، حتّى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر، أقبل على الناس، فتشهد ثم قال: «فإنه لم يَخْفَ عليَّ مكانُكم، ولكن خشيتُ أن تُفرض عليكم، فتعجِزوا عنها»

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (٧٥٩).

رواه البخاري[1]، وغيرهُ بلفظ مختلف، ومعناه واحد.

قال ابن شهاب: فتوفي رسول الله ﷺ والأمرُ على ذلك، ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنه.

وروى البخاري عن عبد الرحمن بن القاري، قال: خرجتُ مع عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه ليلةً في رمضان إلى المسجد، فإذا الناسُ أوزاعٌ متفرقون، يصلّي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي الرهط بصلاته، فقال عمر رضي الله عنه: لو جمعتُ هؤلاء على قارىء واحد، لكان أَمْثَلَ، ثم عزم، فجمعهم على أُبَيِّ بنِ كعبٍ، ثم خرجتُ معه ليلةً أخرى، والناس يصلون بصلاة قاريهم، قال عمر: «نِعْمَتِ البدعةُ هذه، والتي تنامون عنها أفضلُ من التي تقومون»، يريد: أن الذين يصلونها آخرَ الليل أفضلُ من الذين يصلونها في أوله[2].

وهي سنة مؤكدة للرجال والنساء.

قيل: كان علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ يأمر بها في رمضان، ويجعل للرجال إماماً، وللنساء إماماً، قال عَرْفَجَة: «فكنت أنا إمامَ النسـاء»[3].

واختلف في عددها، هل هي ثمان، أو إحدى عشرة، أو عشرون؟ والذي عليه الجمهور أنها عشرون ركعة غير الوتر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٨)، وهو عند مسلم أيضاً برقم (٧٦١).

(٢) أخرجه مالك (٢٥٠)، وعنه البخاري برقم (١٩٠٦).

(٣) أخرجه البيهقي (٤٣٨١).

قال الترمذي: «وأكثرُ أهلِ العلم على ما رُوي عن عمرَ، وعلي، وغيرهما من أصحاب النبي ﷺ أنها عشرون ركعة». قال: «هكذا أدركَتُ الناسَ بمكة يصلون عشرين ركعة»[(١)].

ولم يرد في قراءة التراويح شيء، وإنما ثبت عن السلف الصالح أنهم كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: «يُقْرَأُ في القوم في شهر رمضان ما يخف على الناس ولا يشق عليهم».

وقال القاضي عياض: «لا يستحب النقصان من ختمة في الشهر؛ ليسمع الناس جميع القرآن، ولا يزيد على ختمة؛ كراهيةَ المشقة عليهم». ولو اتفق الجماعة على التطويل، كان أفضل، ومراعاة المأمومين أولى بشرط أَلاَّ يخل بالصلاة.

ويجب فيها الاطمئنان؛ لأن الطمأنينة ركنُ الصلاة، روى الطبراني عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ رأَى رجلاً لا يُتم ركوعه، وينقر في سجوده، فقال ﷺ: «لو مات هذا على حالته هذه، مات على غير ملة محمد»، ثم قال: «مثلُ الذي لا يُتِمُّ ركوعَه، وينقرُ في سجوده مثلُ الجائعِ يأكلُ التمرةَ والتمرتينِ لا يُغنيان عنه شيئاً»[(٢)].

---

(١) هذا قول الشافعي، وقول الترمذي أورده المصنف بتصرف. انظر: «سنن الترمذي» (٣/ ١٦٩ تحت الحديث: ٨٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٣٨٤٠)، وأبو يعلي (٧١٨٤)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب» (١/ ١٢٧ = صحيحه).

ورأى حُذَيفة بنُ اليمان رجلاً يصلي، ولا يُتم ركوعَه ولا سجوده، فلما قضى صلاته، قال له حذيفةُ: «ما صليتَ، إنّك لو متَّ على هذا متَّ على غير سنّة محمّدٍ ﷺ»[1]. وأدنى حدٍّ للطمأنينة أن يمكث بعد الانتقال بمقدار تسبيحة، فلو ركع، ثم رفع، اطمأنَّ، ثم قال: ربنا لك الحمدُ، ثم سجد، فإذا اطمأن، سبح للسجود، ثم رفع منه، ثم يطمئن، ثم يقول: ربِّ اغفر لي، ثم يسجد... وهكذا، أما إذا كانت الصلاة خالية من الاطمئنان، فقد خلت من الخشوع، ولا خيرَ في صلاة خلت من خشوع.

وروى البيهقي وغيره عن عبادة بن الصامت ـ **رضي الله تعالى عنه** ـ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من توضّأ فأبلغَ الوضوءَ، ثم قام إلى الصلاة، فأتمَّ ركوعَها وسجودَها والقراءةَ فيها، قالت: حفظك اللهُ كما حفظتني، ثم يصعدُ بها إلى السماء ولها ضوءٌ ونور، فتُفتح لها أبوابُ السماء حتى يُنتهى بها إلى الله تعالى، فتشفعُ لصاحبها، وإذا لم يُتِمَّ ركوعَها ولا سجودَها ولا القراءةَ فيها، قالت: ضَيَّعَكَ اللهُ كما ضيّعتني، ثمّ يُصعد بها إلى السماء، ولها ظُلْمَة، فتُغلق دونها أبوابُ السماء، ثم تُلف كما يلفُّ الثوبُ الخَلَقُ، ويُضرب بها وجُه صاحبها»[2].

وروى البزار عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: إنّما أتقبلُ الصلاةَ لمن تواضعَ بها

(١) أخرجه البخاري (٧٧٥).

(٢) سبق تخريجه في (ص ٢٣٨).

لعَظَمَتي، ولم يَسْتَطِل على خَلْقي، ولم يَبِتْ مُصرّاً على معصيتي، وقطعَ النهارَ في ذكري، ورحمَ المسكينَ وابنَ السبيل والأرملةَ، ورحم المصابَ، ذلك نورُه كنور الشمس؛ أَكْلَؤُه بعزتي، وأستحفظهُ ملائكتي، وأجعلُ له في الظلمة نوراً، وفي الجهالة حِلْماً، ومثلُه في خلقي كمثل الفردوسِ في الجنة»[1].

والاطمئنان في الصلاة دليلُ الإيمان، وليس الإيمان بالشيء اليسير يدَّعيه الإنسان وهو خالٍ منه. إنّ الإيمان عقيدةٌ تدخل القلب، وترسخ في النفس، وتمازج الدم، وتخالط اللحم والعظم، ثم تجري بعد ذلك في سائر الجسد، وتسيطر على كافة الجوارح، فتسخر لها الباطن والظاهر، وتظهر علامتها في كلام الإنسان وحركاته وسكناته، وفي كل شأنه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤].

والمؤمن يعلم أنه خلق لعبادة خالقه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]؛ فهو إن وقف في صلاته، فهو واقف أمام المُطَّلِع على سره وجهره، والعالمِ بخائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فإذا خشع فيها، فقد أفلح؛ كما أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم

(١) عزاه إليه الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٤٥)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٩٥٠).

خاشعون؛ لأن إيمانه جعل من نفسه رقيباً على نفسه في صلاته؛ لأنه يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإن الله يراه.

ثم إن الصلاة التي تكون بهذه الصفة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ لأنها طَهَّرت نفسَ صاحبها بالإيمان الذي يراقبه أينما كان، وحيثما توجه، ومن كانت هذه صفته، كان مع الله في معبده، وفي متجره، وفي بيته، وفي وظيفته، ولا يرى شرعاً إلا شرعَ الله، ولا قانوناً إلا قانونهَ، ولا حكماً إلا حكمهَ، ولا طاعةً غيرَ طاعته، ولا يطيع المخلوقَ إلا في حدود طاعة الله، ومن كان مع الله، كان الله معه؛ قال الله تعالى يصف الطائعين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[النساء: ١٣ ـ ١٤].

بهذا الإيمان سجل التاريخ صحائفَ بيضاء للمسلمين السابقين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والتاريخُ لا يظلم أحداً، سجل لهم صحائفَ لم يسبق له أن سجل مثلها، ولن يستطيع أن يسجل، فكانوا خير أمة أخرجت للناس: يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، ويدلون الناس على الله.

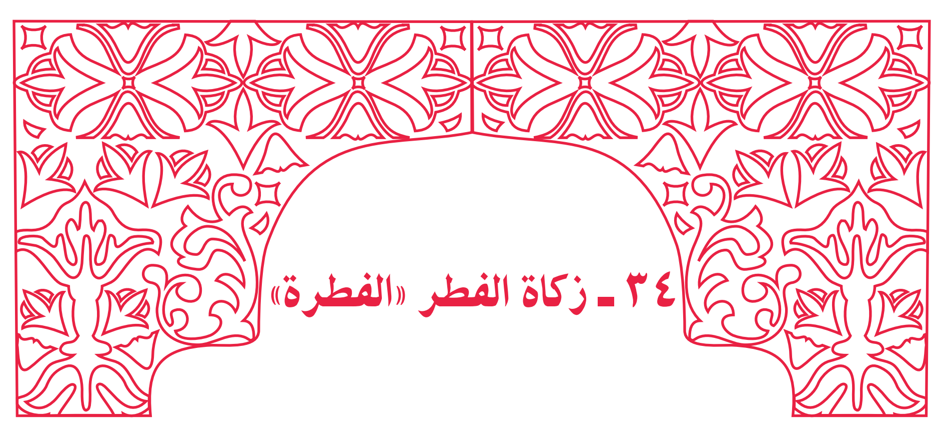
كل ذلك نالـوه بإخـلاصهم مع ربهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣].

أولئك الذين وقفوا أمام الله متذللين ساجدين راكعين، ووقفوا أمام عدو الله أشداء، وأمام بعضهم أحباء رحماء.

أولئك الذيـن وقفوا في الصلاة خاشعيـن مطمئنين، ووقـفوا أمام عدوهم غيرَ هَيَّابين ولا وَجِلين، وأحبوا لأخيهم في الدين ما أحبوه لأنفسهم.

وقد خَلَّد الله ذكرَهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

❐ ❐ ❐



٣٤ ـ زكاة الفطر «الفطرة»

روى الشيخان عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال: «فرضَ رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدّى قبل خروج الناس إلى الصلاة»(١).

وزكاة الفطر هي الزكاة التي تجب يوم الفطر من رمضان، وهي واجبة على كل مسلم مكلَّفٍ أو غيرِ مكلفٍ، ولو يتيماً، فيُخْرِج عنه وليُّه، وشُرعت في شعبان من السنة الثانية للهجرة؛ لتكون طُهْرَة للصائم مما عسى أن يكون وقع فيه من لغوٍ ورفَثٍ، ولتكون يوم العيد عوناً للفقراء والمعوزين من المسلمين.

روى أبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «فرضَ رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفطر طُهْرةً للصائم من اللّغو والرَّفَث، وطُعْمةً للمساكين؛ فمن أَدَّاها قبلَ الصلاة، فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعدَ الصلاة، فهي صدقة من الصدقات»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٩٨٤)، واللفظ للأول.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والدارقطني (٢/ ١٣٨)، =

ومصرِفُها كمصرف الزكاة، ولكنها للفقراء والمساكين أَوْلى؛ لقوله ﷺ بأنها «طُعْمَةٌ للمساكين»، ولما رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أَغْنوهم عن طوافِ هذا اليوم»[1]؛ فهي إذن لهم بمثابة: «هديّة العيد».

وتجب بغروب شمس آخر يوم من رمضان، وهذا ما عليه جمهور المسلمين، وقيل: تجب بطلوع فجر يوم العيد؛ فمن أسلم بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان، أو ولد، أو تزوج، أو كان معسراً، فأيسر، لم تلزمه (الفطرة)، وإن وجد قبل الغروب، وجبت عليه، ومن مات قبل الغروب، أو أعسر، أو طلق زوجته، لم تجب عليه، وإن فعله بعده، وجبت.

فتجب إذا فضل عن قوته وقوت عياله يومَ العيد وليلَتَه صاعٌ أو أقلُّ، بعد ما يحتاجه لنفسه، ولمن تلزمه مؤونته؛ من مسكن وخادم ودابة وثياب، ودارٍ يؤجرها لنفقته ونفقة عياله، وسائمة يحتاج إلى نمائها، وآلةِ صناعة يحتاج إلى ربحها، وكتبِ علم يحتاجها للنظر والحفظ، وحُلي امرأته للبسها، أو لكراءٍ يحتاج إليه.

فيلزم أن يخرج هذا الصاعَ الفاضلَ عن نفسه؛ لحديث: «ابدأْ بنفسك فتصدَّقْ عليها، فإن فضلَ شيء، فلأهلك» رواه النسائي عن

= والحاكم (١٤٨٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٥٢)، والبيهقي (٧٥٢٨)، وهو حديث ضعيف. انظر: «نصب الراية» (٢/ ٣٠٨).

جابر بن عبدالله[1]. ومن وجد مالاً يؤدي عن جميع عائلته، بدأ بنفسه، ثم بزوجته، ثم بأمه، ثم بأبيه، ثم بأولاده، ويبدأ بالأنثى، ثم الأقرب فالأقرب، ولا تجب على الجنين، وقيل: تُستحب له، ويلزم المسلمَ زكاةُ مَنْ يمونهم من المسلمين، ولو كان خادم زوجته إذا أنفق عليه؛ لما روي عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: «أنّه أمرهم بصدقة الفطر عن الكبير والصغير، والحر والعبد ممّن تمونون، إلا ظِئْراً أُجِّرَت بطعامها وكسوتها، أو بدراهم، فلا تلزم من استأجرها زكاتُها إلا إذا تبرّع بها»[2].

ومن تبرّع بمؤونة مسلم شهر رمضان كله، لزمته زكاتُه؛ لما روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «أَدُّوا صدقةً عمّن تمونون»[3] ولا تلزم الزوجَ زكاةُ الفطر عن زوجته الناشز وقتَ الوجوب، ولو حاملاً، ولا مَنْ عَقَدَ عليها ولم يتسلَّمْها.

ومن لزم غيرَه زكاتُهُ، فأخرج عن نفسه بإذنه، أو بغير إذنه، أجزأ، ومن تبرع بزكاة أو أكثرَ لغريب بإذنه، أجزأ، وإلا فلا.

والواجب فيها صاعٌ من تمر، أو بُرٍّ، أو شعير، والصاعُ أربعةُ أمداد، والمدُّ ملء كفَّي الرجل المعتدل، ومقدارُ الصاع من الحنطة النظيفة كما يأتي: بالوزن الهندي مئة وخمس وتسعون توله، وبالوزن

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٧)، والنسائي (٢٨٤٦).

(٢) رواه الشافعي (٤١٣)، والدارقطني (٢/ ١٤١)، وضعفه، وقال: «والصواب موقوف».

(٣) وهي رواية لا تصح. انظر الكلام عليها في «التلخيص الحبير» (١٨٣).

الكويتي أربعة أرطال وسبعة أثمان الرطل؛ أعني: خمسة أرطال إلا ثمن الرطل.

وبالوزن العراقي ست مئة وستة وتسعون درهماً، أو هو كيلوان ومئة وخمسة وسبعون غراماً؛ فالإناء الذي يملؤه هذا الموزون من الحنطة النقية من كل عيب هو الصاع عند أحمد، ومالك، والشافعي، وأما أبو حنيفة، فالصاع عنده تسع مئة وعشرة دراهم كما ذكر نعمان الآلوسي ـ رحمه الله ـ، وقال أبو حنيفة: الصاع من البر بين اثنين، أو عن اثنين، ومن غيره عن واحد؛ أي: أن الصاع من الحنطة عن صدقتي فطر، ومن غيرها صدقة فطر واحدة، وهو مذهب أبي حنيفة فقط، كما أجاز أبو حنيفة دفع الثمن، ولم يجزه غيره، وقال الحنفية: إن الثمن أنفع. لكن دفع الثمن يُذهب معنوية صدقة الفطر وهيبتها، وإظهار شأنها، واشتغال الناس بها، واستقبال العيد بمظهرها ومكانتها.

وكثير من العلماء المسلمين في هذا اليوم يرون رأي الإمام أبي حنيفة.

وقال الشافعية والمالكية: الأفضلُ إخراجُها من غالب قوتِ البلد. ولا بأس من إعطاء الجماعة فطرةَ الواحد، أو إعطاء الواحد فطرة الجماعة. وللفقير إخراجُ صدقة الفطر عنه، وإعطاؤها لمن أعطاها إياه، ما لم يكن في الأمر حيلة.

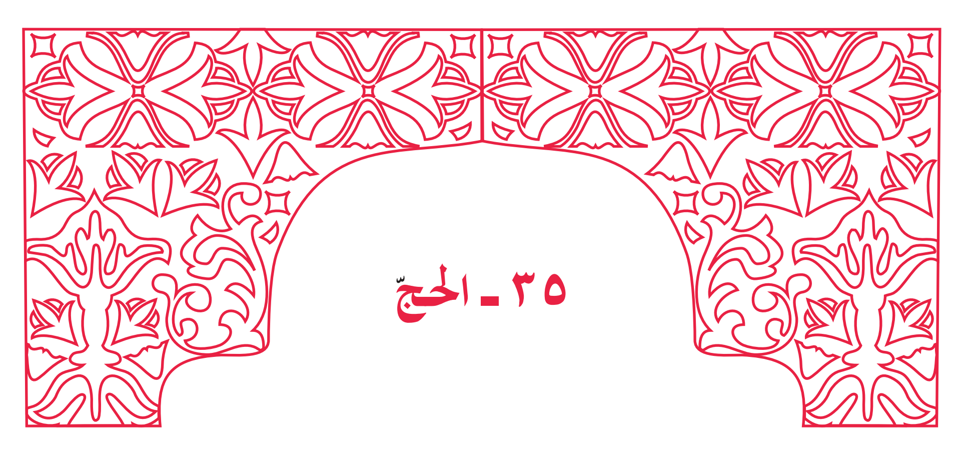
وهكذا عامل الدولة إذا اجتمعت عنده الصدقات، فردَّ بعضها إلى أهلها.

ولا يجوز إخراجُ المعيب، والمسوسِ، والمبلول، والقديمِ الذي تغير طعمُه.

روى الإمـام أحمـد، وأبـو داود عن عبدالله بنِ ثعلبـةَ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «صدقةُ الفطرِ صاعٌ من تمرٍ، أو صاع من شعير، أو صاع من بُرٍّ؛ عن كل رأسٍ، صغيرٍ أو كبيرٍ، حرٍّ أو عبدٍ، ذكرٍ أو أنثى، غنيٍّ أو فقير؛ أما غنيُّكم، فيزكّيه الله، وأما فقيركم، فيردُّ اللهُ عليه أكثرَ مما أعطى»(١).



(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٢)، وأبو داود (١٦١٩)، وقال أحمد: «ليس بصحيح». انظر: «نصب الراية» للزيلعي (٢/ ٢٩٦).



٣٥ ـ الحجّ

قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

ومعناه: أن الحجّ فرضٌ لله على الناس مَنِ استطاعوا إليه واسطةً من زادٍ ومركَب، ومصرفٍ له ولعياله بالمعروف، وصحةٍ وقدرة على السفر، ومن كفرَ، فأنكر هذا الفرضَ، أو تقاعسَ عنه مع الاستطاعة؛ إهمالاً منه؛ فالله غني عنه.

فرضَ الله الحجَّ على الأمّة الإسلامية بهذه الآية في السنة الخامسة من الهجرة، وجعله النبيُّ ﷺ خامسَ أركان الإسلام، وخصص فرضيته على من استطاع إليه سبيلاً: وهو من وجد سَعَةً وصحةً تمكّنانه من الوصول إليه، فقد روى البيهقي عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله تعالى عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «من لم تحبسْهُ حاجةٌ ظاهرةٌ، أو مرضٌ حابسٌ، أو سلطانٌ جائرٌ، ولم يحجَّ؛ فليمتْ إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً»(١).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٩٧٩) بإسناد ضعيف.

وقد تكلّم العلماء في شرح هذا الحديث، وقال بعضهم: إنّ من أَخَّر الحجَّ مع الاستطاعة، كان كاليهود والنصارى في تأخيرهم طاعةَ ربهم؛ حيث أُمروا بأوامر فأمهلوها وأهملوها، ومن وجد سَعَةً وصحة، ولم تحبسه الحاجةُ الظاهرة، ولا المرض الحابسُ، ولا السلطان الجائر، ولا خوفُ الطريق، فلم يحجَّ، فقد أهمل، ولا يسلم من كونه تركَ الركنَ الخامسَ من الأركان التي بُني عليها الإسلام استخفافاً وإهمالاً.

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَلَكَ زاداً وراحلةً تبلّغه إلى بيت الله، ولم يَحُجَّ، فلا عليه أن يموتَ يهودياً أو نصرانياً، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧]»[١].

وفي الأثر ما رواه سعيدُ بنُ منصور في «سننه»: أن عمر بن الخطاب ـ **رضي الله تعالى عنه** ـ قال: «لقد هممْتُ أن أبعثَ رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظروا كلَّ مَنْ كانَ لهُ جِدَةٌ، ولم يَحُجّ، فيضربوا عليهم الجزيةَ؛ ما هم بمسلمين»[٢].

إن الله جعل بيته حرماً آمناً، ومثابة للناس محلَّ كسبِ المثوبة، وأمناً ومباركاً وهدى للعالمين، جعل فيه من الآيات البينات التي ذكرها في الآية الكريمة: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[آل عمران: ٩٧]، وجعله

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٢)، وضعفه.

(٢) ذكره بسنده في «نصب الراية» (٤/ ٤٨٤)؛ وهو من رواية الحسن عن عمر، وهو لم يسمع منه؛ كما قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٧٧). والله أعلم.

حَرَماً لا يُسفك فيه دم، ولا يُعْضَد شجرُه، ولا يُخْتَلى خَلاه، ولا يُنَفَّر صيدُه، وجعلَ قصده مكفِّراً للذنوب، ماحياً للخطايا، وجعلَ العبادةَ التي تؤدَّى فيه لا تؤدَّى في غيره؛ كالطواف، والسعي، والوقوف، والحلق، والاستلامَيْنِ، وجعل استلامَ الحجر الأسودِ رمزاً لمبايعة الله تعالى على إقامة دينه، والإخلاصِ له فيه، وجعلَ الصلاة فيه بمئة ألف صلاة فيما سواه.

هذا البيت الذي هو أولُ بيت وضُع للناس بمكة، فرض الله حجَّه على كل مسلم عاقل بالغ، مستطيع على الزاد والراحلة، وعلى نفقة ذهابه وإيابه، ونفقة عياله إلى ما بعد عودته، وأن تكون هذه النفقة فاضلة عن ديونه وحوائجه الضرورية كما ذكر الفقهاء.

روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول اللهُ ﷻ: إنّ عبداً صحّحتُ له جسمَه، ووسَّعْتُ عليه في المعيشة تمضي عليه خمسةُ أعوامٍ لا يَفِدُ إليَّ لمحرومٌ»[1].

أما الأعمال التي يؤدِّيها الحاجُّ هناك، فيجب أن تكون مظهر التذلل والخضوع: اقتداء بمعاملة المصطفى ﷺ، ولقوله: «خُذُوا عنّي مناسِكَكُم»[2]، والمناسكُ هي أعمالُ الحج.

روى ابن ماجه والترمذي عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: «حَجَّ

---

(١) أخرجه أبو يعلي (١٠٣١)، وابن حبان (٣٧٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٣٢، ٤١٣٣)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٩٧) بنحوه.

النبي ﷺ على رَحْل رَثٍّ وقَطِيفةٍ خَلِقَةٍ تُساوي أربعةَ دراهمَ ـ أو لا تساوي ـ ، ثم قالَ: اللّهمَّ حجّة لا رياءَ فيها ولا سُمْعةَ»[1].

ويجب أن يكون أداءُ هذه الأعمال برهاناً قوياً على تمام الامتثال لأوامر الله ﷻ في كل ما أمر به، سواء أدركَ الناسُ حكمته، أو لم يدركوا؛ لأن عباد الله المخلصين يعتقدون أن الله ﷻ لم يشرع أمراً إلا وفيه الخيرُ والمصلحة، وأنه المحيط علمُه بكل شيء، يعلم من ذلك ما لا نعلم.

روى البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجّاجُ والعُمّارُ وَفْدُ الله، يُعطيهم ما سألوا، ويستجيب لهم ما دَعَوْا، ويُخلف عليهم ما أنفقوا، الدرهم ألف ألف درهم»[2]، وروى الشيخان، والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إنّ الناس في أوّل الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة، وسوقِ ذي المجاز، ومواسم الحج، فخافوا البيعَ وهم حُرُمٌ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[البقرة: ١٩٨]»[3]؛ أي: في مواسم الحج.

وروى أبو داود عن أبي أميمة التميمي ـ **رضي الله تعالى عنه** ـ،

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (ص ١٩١)، وابن ماجه (٢٨٩٠)؛ وضعفه الحافظ في «الفتح» (٣/ ٣٨١)، ولكن لقوله: «اللهم حجة...» شواهد تقويه، وتدل على صحته. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦١٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤١٠٥)، وضعّفه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٤٧)، وأبو داود (١٧٣٤)، واللفظ له.

قال: كنتُ رجلاً أكري في هذا الوجه ـ أي: أؤجر الرواحلَ للحج ـ وكان ناس يقولون: إنه ليس لك حَجٌّ، فلقيت ابنَ عمر ﷺ، فسألته، فقال: أليس تُحْرِم وتُلبي، وتطوفُ في البيت، وتفيض من عرفات، وترمي الجمار؟ قلت: بلى، قال: لك حجٌّ، سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فسكتَ عنه حتّى نزلتْ هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة: ١٩٨]؛ فأرسل إليه، وقرأها عليه، وقال: «لك حج»(١).

فهذا ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ عندما سأله التّميمي أجابه بالجواز، وأسمعه الحديث، والله ﷻ لا يريد بالناس عسراً، وإنما يريد بهم اليسر، ولا مانع من أن يكتسب الإنسان في ذهابه وإيابه إلى الحج ومن الحج، وحجّه صحيح، وإن كان الأفضل والأكمل أن يتفرّغ عن كلّ شيء من أعمال الدنيا، ويُقْبِل في حجّه على الله ظاهراً وباطناً.

روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «من أرادَ الحجَّ، فليتعجَّلْ؛ فإنّه قد يمرض المريضُ، وتضلّ الراحلةُ، وتعرِضُ الحاجةُ»(٢). قال العلماء: في هذا الحديث دليل على وجوب فوريةِ الحجِّ عند الاستطاعة، وقال بعضهم: إنه ﷺ كان مستطيعاً يوم فرض الحج في السنة الخامسة أو السادسة، وإنه ﷺ حجَّ سنةَ عشرٍ،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧٣٣)، والحاكم (١٦٤٧)، وصححه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٣) بتمامه، وضعفه البوصيري (٢/ ٩٦٢)، وأخرجه أحمد (١/ ٢٢٥)، وأبو داود (١٧٣٢)، والحاكم (١٦٤٥) من وجه آخر عن ابن عباس مختصراً، وصحّحه الحاكم.

وفي الحديث المتقدم قولُه ﷺ: «تمضي عليه خمسةُ أعوامٍ لا يفدُ إليَّ لمحرومٌ» دليل على التراخي.

روى البخاري: أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسولَ الله! نرى الجهادَ أفضلَ العمل، أفلا نجاهدُ؟ قال: «لا، لكن أفضلُ الجهادِ حَجٌّ مبرورٌ»[1] وذلك للنساء؛ لأن السائلة منهنّ، أمّا الرجال، فالجهاد لهم أفضلُ؛ بدليل قول النبي ﷺ: «لغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَـةٌ خيـرٌ من الدنيا وما فيها» رواه البخاري[2] عـن أنس، وروى البخاري، ومسلم عن أبي هريرة: أن الرسول ﷺ قال: «والذي نفسي بيده! لا يُكْلَم أحدٌ في سبيل الله ـ والله أَعْلَمُ بمَنْ يُكْلَم في سبيله ـ إلا جاء يومَ القيامةِ واللّونُ لونُ الدّم، والريحُ ريحُ المسك»[3].

وروى البزار عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ قال: «الإيمانُ ثمانيةُ أَسْهُم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وصوم رمضان سهم، وحجّ البيت سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل الله سهم، وقد خاب مَنْ لا سهمَ له»[4].

وثبت في عدة أحاديث: أن كثيراً من الأنبياء حجّوا الكعبة؛ فمن ذلك ما رواه أحمد، وغيرُه عن ابن عباس، قال: لما مرّ رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، وهو عند مسلم(١٨٨٠) أيضاً.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤٩)، ومسلم (١٨٧٦).

(٤) أخرجه البزار (٢٥٤٢) عن حذيفة، وأبو يعلى (٥٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٨٦) عن علي، ورجَّح البيهقي أنه موقوف على حذيفة.

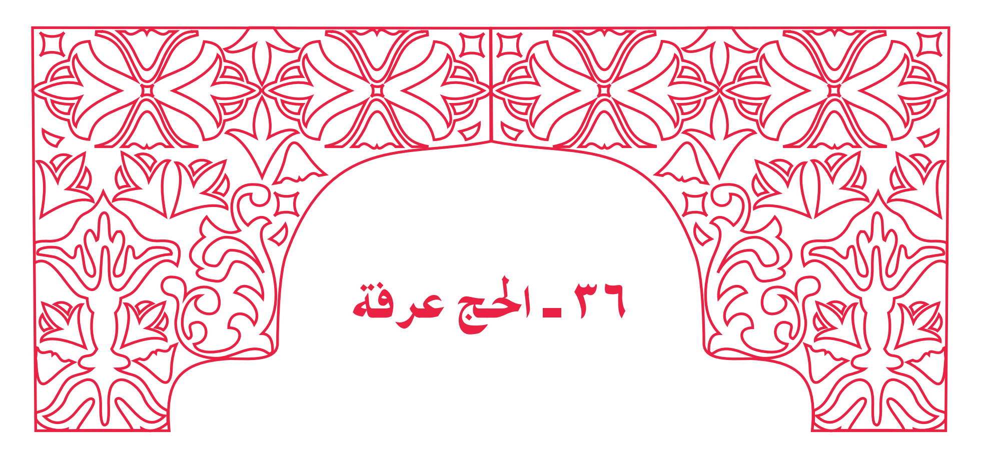
بوادي عُسْفَانَ حين حجَّ قال: «يا أبا بكر! أَيُّ وادٍ هذا؟»، قال: وادي عُسفان، قال ﷺ: «لقد مرّ به هودٌ وصالحٌ على بَكَرات خَطْمُها اللِّيف، أُزُرُهُمُ العباءُ، وأَرديتهم النِّمارُ، يَحُجّون البيت العتيق»[1].

وروى الطبراني عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد مَرَّ بالرَّوْحاء سبعون نبيًّا فيهم نبيُّ الله موسى حُفَاة عليهم العَبَاءُ يَؤُمُّون بيتَ الله العتيقَ»، وقال لما مرّ بثنيّة هَرْشَى: «كأنّي أنظرُ إلى يونسَ على ناقةٍ حمراءَ جَعْدَةٍ خِطَامها لِيفٌ، وهو يلبّي، وعليه جُبَّةُ صوفٍ»[2].

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٢)، وليّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٠١).

(٢) عزاه إليه وإلى أبي يعلى المنذري في «الترغيب» (٢/ ٩ = صحيحه)، وقال: «ولا بأس بإسناده في المتابعات»، وشطره الثاني: «وقال لما مر بثنية هرشي...» أخرجه مسلم (٢٦٨). والله أعلم.



٣٦ ـ الحج عرفة

روى أحمد، والحاكم، والبيهقي، وغيرُهم عن عبد الرحمنِ بنِ يعمر: أنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو بعرفةَ، فجاء نفرٌ من أهل نجد، فنادى: يا رسولَ الله! كيف الحج؟ فأمر النبيُّ ﷺ رجلاً فنادى في الناس: «الحَجُّ عَرَفَةُ، مَنْ جاء قبلَ صلاةِ الصبحِ من ليلةِ جَمْع، فقد تَمَّ حَجُّه، أيامُ منى ثلاثةٌ، فمن تعجّلَ في يومين، فلا إثمَ عليه، ومن تأخَّرَ، فلا إثمَ عليه»[1].

من هذا الحديث نفهم أنّ الحجّ هو الوقوفُ بعرفة، وأنّ من فاته الوقوفُ بعرفة، فقد فاته الحجُّ، وأن وقت الوقوف بعرفة يبدأ بطلوع شمس يوم عرفة، وهو تاسعُ ذي الحجة، وينتهي بطلوع فجر يوم العيد؛ فمن أدركَ عرفةَ نهاراً، وجبَ عليه أن يظلَّ بها، ويُفيضَ مع الناس، ومن أدركَها بعدَ الغروب، كفاه المرورُ بها، وعرفةُ كلُّها موقف إلا بطنَ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٥٠١٣)، وابن خزيمة (٢٨٢٢)، وابن حبان (٣٨٩٢)، والحاكم (١٧٠٣)، وقال: «صحيح الإسناد».

عُرنةَ، وحدودُها معروفة محددة، معلَّمة بعلائم ظاهرة، يتعهدها ولاةُ الأمور من المسلمين جيلاً بعد جيل.

في يوم عرفة تجتمع الألوف المؤلَّفة من المسلمين على اختلاف الطبقات، من مختلف الأجناس واللغات والبلاد، خُشّعاً خُضّعاً، متحابين في الله، متجردين من فاخر الرياش، مُتَّحدين في لباسهم وقلوبهم ووجهتهم إلى ربهم، قد فارقوا ديارهم لا طمعاً إلا في رحمة الله؛ يدعون سميعاً قريباً يبتغون مرضاته، لا فرق بين غنيِّهم وفقيرِهم، وملكِهم وسوقتِهم، وأبيضِهم وأسودِهم، وحُرِّهم وعبدِهم، وكلهم قد أطلق لسانه بـ: لَبَّيْكَ اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريكَ لكَ لبيكَ، إن الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريكَ لك.

إنّ من شهدَ تلكَ المشاهدَ، وأدّى تلكَ الأعمالَ بنية خالصة، وسريرةٍ طاهرةٍ، لا شكَّ أنه يفوزُ بالمطلوب، ودليلُ ذلك قولُ النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ، خَرَجَ من ذنوبه كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّه» رواه الشيخان عن أبي هريرة[1].

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

فرض الله الحجّ على الأمّة الإسلامية لمنافع الأمّة الإسلامية أفرادٍ وجماعاتٍ، ولو أدرك المسلمون تلك المنافع، لكانت كلمتهم هي العليا، ولكانوا في حصن حصين من اعتداء الكافرين المستعمرين،

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٩)، ومسلم (١٣٥٠).

وتسلط طوفان الغربيين الذين أذلوهم، وحرموهم من معاني دينهم، ولذةِ تمسكهم به، وهتكوهم بما بثوه فيهم من ملاذَّ سطحيةٍ، ومفاتنَ نفسيةٍ، ومساوىء خلقية.

ولو أدرك الناس معنى تلك المنافع، وعرفوها، لقبضوا على الدنيا بأكفِّهم، وسَيَّروا أهلَها حسبَ إرادتهم، وعمروها كما عمرها الأسلاف الأولون، ولكن الناس في غفلة ساهون، وكم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون!

أسفي للمسلمين الذين غَفَلوا عن دينهم، واشتغلوا بما لا يفيد، وغفلوا عن قرآنهم، وتركوا مُثُلَه العليا، وجعلوا من الكافر الغربيِّ الأجنبيِّ عنهم في دينهم وشكلهم مَثَلاً أعلى لهم، يقلدونه في أقواله وأفعاله، ولقد قال الكافر: إن الدين الإسلامي يمنع أهله من الرقي، ويحرم عليهم المدنية، فقالوا مثلَه، والحقُّ غيرُ ذلك، بل إن الدين الإسلاميَّ هو الذي مدَّن العربَ، ونصرَ المسلمين، وجعل منهم رعاةً للأمم بعد أن كانوا رعاةَ الإبل والغنم، فأنشؤوا دولة بسطت نفوذها على الشرق من أقصاه إلى أقصاه؛ لم يأت التاريخُ بمثلها، ولن يأتي، وما ذلك إلا لأن دينهم دينُ مدنيةٍ، وأن دينهم دينُ يسرٍ لا عُسْرَ فيه، دينُ عدلٍ لا ظلمَ فيه، دينُ حقٍّ لا باطلَ فيه، دينُ هدايةٍ لا ضلالةَ فيه، دينُ رشدٍ لا طغيانَ فيه.

ولما تمسّكوا به، مَكَّنَ الله لهم في الأرض، ولما ضيعوه، ضيعهم الله، فصاروا طُعْمَة لأعدائهم، لو عادوا لدينهم، لَعَادَ لهم عزُّهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد: ٧ ـ ١١]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦].

روى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ أكثرَ من أن يُعتق الله فيه عبداً من النارِ من يومِ عَرَفَةَ»(١).

وهو اليومُ المشهودُ الذي مَنَّ الله فيه على عباده المسلمين بإكمال دينهم، ورضي فيه لهم الإسلام ديناً؛ فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣].

ورد في الحديث عن جابر بن عبدِالله رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا كانَ يومُ عرفةَ ينزل الله تباركَ وتعالى إلى السماءِ الدنيا، فيُباهي بهم الملائكةَ، فيقولُ: انظروا إلى عبادي أتوني شُعْثاً غُبْراً ضاجّين من كُلِّ فَجّ عميقٍ، أُشْهِدُكم أني قد غفرتُ لهم، فتقولُ الملائكةُ: يا ربّ! فلانٌ كان يرهق، وفلان وفلانة، فيقول الله عز وجل: قد غفرتُ لهم»، قال لهم رسول الله ﷺ: فما من يوم أكثرَ عتيقاً من النار من يوم عرفة». روي في «شرح السنة»، ورواه ابنُ حبان، والبيهقي بنحو لفظه»(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٨).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، وابن حبان (٣٨٥٣)، والبيهقي في «الشعب» =

وقد حجّ النبيُّ ﷺ حجةَ الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ولم يحجَّ غيرَها قبلَها ولا بعدَها، وفيها قال ﷺ: «خُذوا عني مناسِكَكم»، ولما كان يومُ التروية، وهو اليومُ الثامن، توجّه إلى منى، وأهلَّ بالحج، وأمر الناسَ بذلك، روى مسلم عن جابرِ بن عبدِالله رضي الله عنه، من حديثه الطويل الذي ذكر فيه قصة حجة الوداع، قال جابرُ بنُ عبدالله: فلما صلى الفجر، ومكث قليلاً حتى طلعت الشمس، أمرَ بقُبَّةٍ من شعر تُضرب له بنَمِرَةَ، فنزلَ بها، حتى إذا زاغت الشمسُ، أمرَ بالقَصْواء، فرُحِلت له، فأتى بطنَ الوادي، فخطب الناسَ، وقال: «إنّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمرِ الجاهليّةِ تحتَ قدميَّ موضوعٌ، ودماءَ الجاهلية موضوعةٌ، وربا الجاهليةِ موضوعٌ، وأوّلُ ربًا أَضَعُ من ربانا ربَا عَمّي العباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِب؛ فإنّه موضوعٌ كُلُّه. واتقوا اللهَ في النّساء؛ فإنّكم أخذتموهنّ بأمانة الله، واستَحْلَلْتم فروجَهُنّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أَلاَّ يوطئْنَ فُرُشَكُم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلْنَ ذلكَ، فاضربوهنّ ضرباً غيرَ مُبَرِّح، ولهنّ عليكم رزقُهنّ وكسوتُهنّ بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا إنِ اعتصمْتُم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عنّي فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهدُ أنّك قد بلّغت

= (٤٠٦٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١٩٣١)، وهو ضعيف بهذا السياق؛ كما في «الضعيفة» (٦٧٩)؛ ولكن صحَّ منه جملة مُباهاة الله بأهل عرفة، وأنه أكثر يوم يُعتق فيه عبد من النار، وذلك في «صحيح مسلم» (١٣٤٨) وغيره.

وأدّيت ونصحتُ، فقال بإصبعه السّبَّابَةِ يرفعها إلى السّماء، وينكُتُها إلى النّاس: «اللّهمَّ اشهدْ، اللّهمَّ اشهدْ، اللّهمَّ اشهدْ»، ثم أذن بلالٌ، ثم أقام فصلَّى الظهر، ثم أقام فصلَّى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركبَ حتى أتى الموقفَ، فجعلَ بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصخرات، وجعل حبلَ المشاة بين يديه ـ مستطيل من الرمل ـ ، واستقبل القبلةَ؛ فلم يزل واقفاً حتّى غربتِ الشمسُ، وذهبت الصفرة قليلاً حتّى غابَ القرص، وأردفَ أسامةَ، ودفع حتّى أتى المزدلفةُ، فصلى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتين» إلى آخر الحديث[1].

وروى الترمذي وأحمدُ عن عمرِو بنِ شُعيب عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عَرَفَةَ»[2].

❐ ❐ ❐

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وضعفه، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٥٠٠) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً بسند صحيح؛ فيكون الحديث حسناً لغيره. والله أعلم.



٣٧ ـ الأضحية والقُرْبان

روى الحاكم عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من وجد سَعَةَ لأِنْ يُضَحِّيَ فلم يُضَحِّ، فلا يحضُرْ مُصَلاَّنا»(١).

والأُضْحِيَةُ أو الضَّحِيَّةُ عبادةٌ عريقة في القِدَم، وتسمَّى: قرباناً، وسمّاها الإسلام: أُضْحِيَة، أو ضَحِيّة.

وأوّلُ ضحيّة عرفها التاريخُ قربانُ ابني آدم ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾[المائدة: ٢٧]، ثم كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يتقرب إلى الله بالقرابين حتى أمره الله ـ برؤيا رآها في المنام ـ بذبح ولده، ولما هَمَّ بذبحه، أمره أن يفتديه بكبش يذبحه قرباناً لله، وكانت القرابينُ تُحرق وتُدفن، ولما جاء الإسلام، جعلها صدقاتٍ تُفرق على الفقراء.

والذبيحةُ التي يتُقرب بها إلى الله هي واحدة من ثلاثة:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، والدارقطني (٤/ ٢٧٦)، والحاكم (٧٥٦٥)، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

أولها ـ الأُضحية: وتذبح في عيد الأضحى، وورد في فضلها أحاديثُ كثيرةٌ، منها: ما رواه الترمذي، وابن ماجه عن عائشة: أن النبي ﷺ قال: «ما عملَ آدميٌّ من عمل يوم النّحر أَحَبَّ إلى الله من إهراقِ الدم، وإنّها لتأتي يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأَظْلاَفِها، وإن الدّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقعَ من الأرض، فطيبوا بها نَفْساً»[1]، ولأن قربةَ كلّ وقت أخصُّ به من غيرها؛ لهذا أُضيفت قربةُ النحر ليوم النحر.

ثانيها ـ العقيقة: وهي سنة، تُذبح شكراً لله على مولود يهبه، وهي عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة واحدة، روى أهل السنن عن سمرة، قال: قال رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ: «كُلُّ غلامٍ رَهِينةٌ بعقيقةٍ تُذبح عنه يومَ سابعِه، ويُسمّى فيه، ويُحلق رأسُه»[2].

ثالثها ـ القربان أو الصدقة: وهذه لا تتقيد بنوع المذبوح أو وقتهِ، سواء كان من الأنعام، أو الطيور، أو غيرِها من مأكول اللحم، فيجزي فيها ما يجزي في الأضحية من الأنعام، والشياه أفضلُ، لكن لا يشرك في البدنة والبقرة معه أحداً.

وأما الأضحية، فتنحصر بالأنعام ـ الإبلِ والبقرِ والغنمِ ـ ولا يجـزي

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣١٢٦)، والحاكم (٧٥٢٣)، وضعفه الذهبي في «تلخيص المستدرك» (٤/ ٢٤٦).

(٢) أخرجـه أحمد (٥/ ٧)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، وابن ماجه (٣١٦٥)، والحاكم (٧٥٨٧)، وصححه الذهبي في «التلخيص» (٤/ ٢٦٤).

فيها غيرُ ثَنِيِّ الضأنِ والمعز، وهو ما تم له سنةٌ، وغيرُ ثَنِيِّ البقر، وهو ما تمَّ له سنتان، وغيرُ ثَنِيِّ الإبل، وهو ما تمَّ له خمسُ سنين، وقد أجاز أحمدُ جَذَعَ الضأن، وهو ماله ستةُ أشهر.

وتجبُ الأضحيةُ بالنذر، وبقوله: هذه أضحية، وبكونه اشتراها أضحية، ويبدأ وقتُ الذبح بعد الفراغ من صلاة العيد حتى غروب شمس ثاني أيام التشريق، وهو اليوم الثاني عشرَ من شهر ذي الحجة، أو ثالث أَيام العيد.

روى البخاري، ومسلم عن جندب بنِ عبدِالله، قال: «شهدْتُ الأضحى يومَ النّحر مع رسولِ الله ﷺ، فلم يَعْدُ أن صَلَّى وفرغَ من صلاتِه وسلّم؛ فإذا هو يرى لحمَ أضاحي قد ذُبحت، فقال: من كان ذبحَ قبل أن نصلّي، فليذبحْ مكانَها أُخرى»[(١)].

وروى البخاري عن البراء بن عازب، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب، فقال: «أوّلُ ما نبدأُ به يومَنا هذا أن نصلّي، ثم نرجع فننحر؛ فمن فعلَ هذا، فقد أصابَ سنّتنا، ومن نحرَ، فإنّما هو لحمٌ يقدّمه لأهلِهِ، ليس من النُّسك في شيء». فقال أبو بردةَ: يا رسول الله! ذبحتُ قبل أن أصلي، وعندي جَذَعَة خيرٌ من مُسِنَّة، فقال: «اجعَلْها مكانَها ولن تجزيَ عن أحدٍ بعدَك»[(٢)]؛ لأن ما يجزي في الأضحية من الإبل هي المُسِنَّة: وهي التي تمَّ لها خمسُ سنين، أما الجَذَعَةُ، فقد

(١) أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (١٩٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٥)، وهو عند مسلم (١٩٦١) أيضاً.

أجزأتْ أبا بردةَ خاصةً يومئذ، ولن تجزي أحداً بعدَه من هذه الأمة.

وتجزي الشاة عن ضحية واحدة، والماعز كذلك، والبقرة والبدنة عن سبعة؛ بدليل ما أخرجه مسلم عن جابر: أن النبي ﷺ قال: «البقرةُ عن سبعة، والجَزُورُ عن سبعةٍ»[(١)].

وتجزي في الأضاحي: الحاملُ، والجَمَّاء، والقَرْناءُ أفضلُ، ولا تجزي الهزيلةُ، ولا العوراء، ولا العرجاء، ولا المريضة، ولا ذاهبةُ الثنايا، ولا ما ذهب أكثرُ أذنها أو قرنها بقطع أو مرض، ولا ما نَشِفَ ضرعُها من الكبر.

روى الترمذي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ، قال: «أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العَيْنَ والأُذن، وأَلاَّ نُضَحِّي بمُقَابَلَةٍ، ولا مُدَابَرَة، ولا شَرْقَاءَ ولا خَرْقاءَ»[(٢)]؛ فالمقابلة: ما قطعت أذنها من قُبُل، والمدابرة: ما قطعت من دُبُر، والشرقاء: ما شُقّت أذنُها، والخرقاء: ما ثُقبت أذنُها ثقباً مستديراً.

وروى ابن ماجه أيضاً عن علي ـ كرم الله وجهه ـ، قال: «نهى رسولُ الله ﷺ أن نُضَحِّيَ بأَعْضَب»[(٣)]، وهو ما ذهب أحد قرنيه.

وأخرج مالك، وأحمد عن البراء بن عازب، قال: إنّ رسولَ الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٣١٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٠٨)، وأبو داود (٢٨٠٤)، والترمذي (١٤٩٨)، والنسائي (٤٣٧٣)، وابن ماجه (٣١٤٣) مختصراً، وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٧)، والترمذي (١٥٠٤)، والنسائي (٤٣٧٧)، وابن ماجه (٣١٤٥) بإسناد ضعيف.

سُئل: ماذا نتّقي من الأضاحي؟ فقال: «أربعاً: العَرْجاء البيّن ظَلْعها، والعَوْراء البيّن عَوَرُها، والمريضة البيّن مَرَضُها، والعَجْفاء الّتي لا تُنْقِي»[1].

وكان من هديه ﷺ اختيارُ الأضحية، واستسمانُها، وسلامتُها من العيوب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

روى الشيخان عن أنس بن مالك، قال: ضحّى رسولُ الله ﷺ بكبشين أَمْلَحَين أَقْرَنَين ذبحهما بيده، وسمّى وكبّر. قال: ورأيته واضعاً قدمه على صِفَاحِهما، ويقول: «باسم الله، والله أكبر»[2].

وروى مسلم عن عائشة، قالت: إنّ رسول الله ﷺ أمر بكبشٍ أقرنَ يطأُ في سواد، ويَبْرُكُ في سواد، وينظر في سواد ـ يعني: أسودَ الأطراف، أسودَ البطن والصدر، أسودَ العينين ـ فأُتِي به ليضحي به، فقال: «يا عائشة! هلمّي المُدْيَة»، ثمّ قال: «اشحذيها بحجر»، ففعلت، ثم أخذها، وأخذ الكبش فأضجَعَه، ثم قال: «باسم الله، اللّهم تَقَبَّلْ من محمدٍ وآلِ محمد، ومن أمة محمد»، ثمّ ضحى به[3].

ويُسنّ في الأضحية خاصةً، وفي النسك نحرُ الإبل قائمةً معقولةً يدُها اليسرى، ويُسن ذبحُ البقر والغنم مطروحةً على جنبها الأيسرِ

(١) أخرجه مالك (١٠٢٤)، وأحمد (٤/ ٣٠١)، وأبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، والنسائي (٤٣٦٩)، وابن ماجه (٣١٤٤)، وصححه الترمذي.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٥)، ومسلم (١٩٦٦)، واللفظ لمسلم.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٦٧).

موجَّهةً إلى القبلة. ويجب حين يحرك يدَه بالذبح أن يقول جهراً بحيث يُسمع نفسه: باسم الله، والله أكبر، ويدعو بما وردَ، ومنه: اللهمَّ هذا منك ولك، اللهمَّ تَقَبَّلْ مني كما تقبلتَ من إبراهيم خليلِك، ومحمدٍ نبِيِّك.

روى أحمد، وأبو داودَ عن جابرِ بنِ عبدالله، قال: ذبح النبيُّ ﷺ يومِ الذبحِ كبشين أقرنين أملحين مَوْجُوءَيْنِ ـ يعني: خَصِيَّيْن ـ فلمّا وَجَّههما، قال: «إنّي وجّهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرضَ على ملّة إبراهيم حنيفاً، وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين، اللّهمَّ هذا منكَ ولكَ عن محمدٍ وأمته»، ثمّ ذبح بيده، وقال: «باسم الله والله أكبر، اللّهمَّ هذا عنّي وعَمَّنْ لم يُضَحّ من أمتي»[(١)].

وسُنّ للمضحي أن يأكل من أضحيته ثُلُثاً، ويُهدي ثلثاً، ويتصدق بثلث، ويحرم عليه أن يعطي منها أجرةَ الجزار، أو يبيع شيئاً منها، وعلى من نوى الأضحية أَلاَّ يأخذ شيئاً من شعره أو ظفره أو بشرته في العشر الأوائل من ذي الحجة.

فقد روى مسلم عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل العَشْرُ، وأراد بعضُكم أن يُضحي، فلا يمسَّ من شَعْره وبَشَرِه شيئاً»، وفي رواية: «مَنْ كان له ذبحٌ يذبحه، فإذا أهلّ هلالُ ذي الحجّة،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٥)، وأبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٣١٢١)، وهو حديث ضعيف؛ كما في «ضعيف أبي داود» (٥٩٧).

فلا يأخذْ من شعره ولا من أظفارِه شيئاً حتّى يُضحي»[1].

وقد أمر ﷺ الناسَ بالرفق في كلِّ شيء، حتى في النحر، وكلفنا أن نتوخاه، حتى في تخفيف الألم عَمَّا نريد قتله من الحيوان، فأمرنا بسقيه، وشحذِ السكين حتى تكونَ ماضيةً لا تعذبه، ولا يجر الذبيحة بعنف، وأن يسرع في جَرِّ السكين، وقطعِ الوَدَجَيْن والحلقوم.

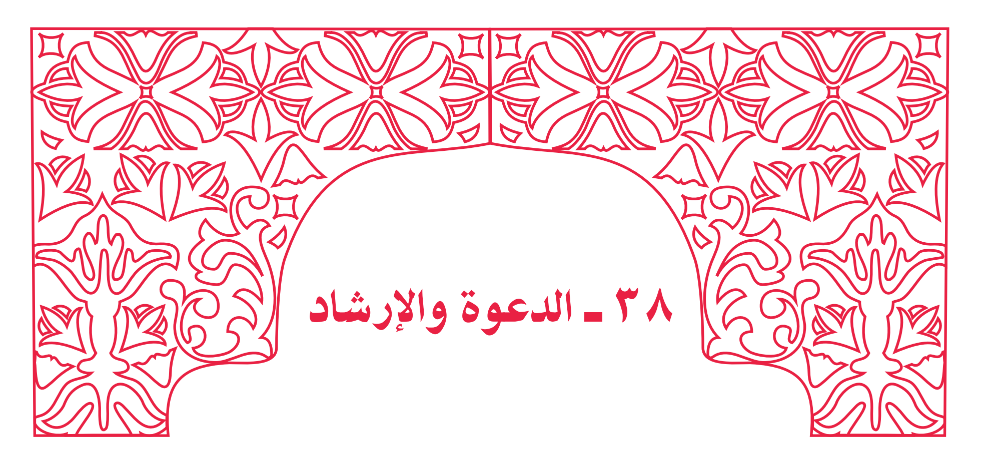
روى أحمد، ومسلم، وغيرُهما عن شداد بن أوس: أن النبي ﷺ قال: «إنّ الله كتبَ الإحسانَ على كلّ شيء؛ فإذا قتلتم، فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحتْم، فأحسنوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَه»[2].

ويجب على المضحي أن يحتسب أضحيته خالصةً لله، لا رياءَ فيها ولا عجبَ، فإنه ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الحج: ٣٧].

❒ ❒ ❒

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، ومسلم (١٩٥٥).



٣٨ ـ الدعوة والإرشاد

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥].

لتكنْ منكم ـ أيها المؤمنون ـ أمةٌ لها كيانُها ونظامُها، أمةٌ مؤتلفة الأعضاء، موحَّدَة الجهات، لا ترهب أحداً، ولا تخاف شيئاً، ولتكنْ هذه الأمة داعيةً إلى الخير، ناهيةً عن الشر، دينُها قولُ الحق ولو كان عندَ سلطانٍ جائر، ودَيْدَنُها رفعُ الظلم، لا تخشى في الدعوة إلى الخير لومةَ لائم، ولا بطشَ ظالم.

كلّ ذلك تشير إليه كلمة واحدة هي كلمة «أمّة»، ولم يقل: جمعية، ولا هيئة، ولا حزب، وإنّما قال: أمّة.

إنّه واجبٌ عليكم ـ أيها المسلمون ـ أن تكونوا هذه الأمةَ، وأن تكونوا جميعاً بهذا الوضع؛ لأنكم خيرُ أمّة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو أنّكم تكونون هذه الجماعة منكم، وتكونون معها يداً واحدة، وتجعلون لهذه الجماعة الداعيةِ إلى الخير

السلطةَ التامة ليكون لها حقُّ الإشراف والتكوين والتوجيه، والعمل على خدمة الدعوة إلى الخير والحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والأمّة التي تكون هداتُها وقادتُها في درجات الكمال، لاشك وأنها قد أفلحت في آخرتها، ونالت العزةَ والتمكين في دنياها، وسعدت حكومتُها، وتعارفت شعوبُها؛ فإذا لم تكن بهذه الصفة، كانت أمةً مفككةً مختلفةً، تعرف طريقَ الحق ولا تسلكه، وترى طريق الشر في الشهوات فتتبعه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

روى الترمذي عن حذيفةَ بنِ اليمان ﵁، عن النبي ﷺ قال: «والّذي نفسُ محمّد بيده! لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهـونّ عن المنكر، أو ليوشـِـكَنَّ اللهُ أن يبعثَ عليكم عقاباً منه، ثمّ تَدْعونـه فلا يُسـتجابُ لكم»(١).

ولقد أوجب اللهُ الدعوةَ على الأمّة الإسلامية بهذه الآية الكريمة، وبآياتٍ كثيرةٍ غيرِها؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣]، وندّد على من تركَها، وأغفلَ أمرها، ولم يهتم بها، فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، والترمذي (٢١٦٩)، وقال: «حديث حسن».

روى الترمذي، وأبو داودَ عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوّلَ ما دخل النّقصُ على بني إسرائيلَ أنّه كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقولُ: يا هذا! اتق الله، ودع ما تصنع؛ فإنّه لا يحلُّ لكَ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيلَه وشَرِيبَه وقَعِيده، فلمّا فعلوا ذلك، ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعض، ثم قرأ ﷺ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾إلى آخر الآيات الأربع من سورة المائدة ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٨١]، ثم قال: «كلاّ واللهِ لتأمُرُنّ بالمعروف، ولتنهَوُنّ عن المنكَر، ولتأخُذُنّ على يد الظالم، ولَتَأْطُرُنَّه على الحق أَطْراً، ولَتَقْصُرُنَّه على الحق قَصْراً، أو لَيَضْرِبَنَّ الله قلوبَ بعضِكم ببعض، ثمّ لَيَلْعَنَنَّكُم كما لَعَنَهم»[١].

إنّ في هذا الحديث لدليلاً قوياً على وجوب الدعوة إلى الحق وجوباً عينياً على الأمة؛ للحاكم، وللإمام، وللدولة، وللرعية، وفي الحديث الثاني الذي رواه أبو داود، والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال: يا أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ النّاسَ إذا رأوا الظالمَ، فلم يأخذوا على يديه، أوشكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ من عندهِ»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وهو ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١١٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الترمذي.

ولقد قام أسلافُنا الصالحون بواجب الدعوة إلى هذه الشريعة؛ حيث إنهم بايعوا الله ورسوله على النصح للدين، وللدعوة، وللأمة، حتى تكون لهذه الشريعة السمحة اليد العليا، ولمتبعيها الكلمة النافذة، فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله، فدرّت خيراتُهم، وقويت شوكتهم، ونفذت كلمتهم، وأنجز الله وعدَه لهم؛ فمكَّن لهم في الأرض، وجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين، وكانوا خير أُمة أخرجت للناس؛ حكماً بالعدل، وهدايةً للحق، ورعايةً للناس، ثم خلف من بعدهم خلْف قَصَّروا في هذا الباب، وفَضَّلوا مصلحتهم الخاصة، وجعلوا غايتهم المادةَ، فخرسوا عن الدعوة إلى الحق، وتعامَوْا عن المنكر، ثم تسامحوا فيه حتى أَلِفوه، وتجاهلوا المعروفَ حتى أنكروه، ولم يبق للدعوة الإسلامية من أثر إلا خُطَبٌ تُلقى على المنابر أيامَ الجمع مَجَّتْها الأسماع؛ لأنها جوفاء كَثُرَ تكرارُها، وقام بها أفراد لم تتسع بها قلوبُهم، ولم تظهر آثارُها في أخلاقهم وأعمالهم.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤]، ولعمري كأن الشاعر كان يعنيهم بأبياته هذه:

يَـا أَيُّـهَا الرَّجُـلُ المُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ
هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذا التَّعْلِـيمُ
تَصِفُ الـدَّوَاءَ لِـذِي الـسَّقَامِ وَذِي الـضَّنَى
كَيْمَـا يَـصِحُّ بِـهِ وَأَنْـتَ سَـقِيمُ

ابْـدَأْ بِنَفْـسِكَ فَانْهَهَـا عَــنْ غَـيِّـــهَا
فَــإِذَا انْـتَـــهَتْ عَنْــهُ فَأَنْــتَ حَكِــيمُ
لاَ تَـنْـــهَ عَــنْ خُلُــقٍ وَتَــأْتِيَ مِثْلَـــهَ
عَـــارٌ عَلَيْـــكَ إِذَا فَعَلْـــتَ عَظِـــيمُ

ولا عجب، فكلهم مأجور على ما يقول، مأمورٌ بما يقول، ولو أمر بقول المنكر، لقاله، ولو استؤجر لنطق الزور، لنطق به، خطب قديمة ناقصة، أكل الدهر عليها وشرب، صيغت بوقتها لوقتها، أما أمراضنا، فهي غيرُ تلك، تحتاج إلى أطباء حكماء لمداواتها، ولما أعيتنا الحيلة، وكان أطباؤنا مرضى جهلةً؛ كانت النتيجة أن أصبح المسلمون يرجعون كلَّ يوم القهقرى حتى صاروا عبرةً للمعتبرين، وطُعْمة للطامعين، وهزأة بين العالمين، وهذا مصداقٌ لما أخبرنا به المصطفى الصادق الأمين ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بأن الأمم ستتداعى علينا كما تتداعى الأكَلة على القصعة؛ ذلك لأنا لا نفعَ في حياتنا، ولا حميةَ لبعضنا على بعضنا، ولا حبَّ يرتكز في قلوبنا لبعضنا، ولا جامعةَ تجمع شملنا، ولكننا غثاءٌ كغثاء السيل، لم يهمنا الدينُ الذي كان سببَ نجاح سلفنا، ولو أننا انتبهنا، واتبعنا أمره، ودافعنا عنه، ودعونا له، لما حاق بنا السوء، ولما فقدنا الدولة العظيمة التي بناها السلف القديم، ومَكَّنها عملُ العاملين.

روى الحاكم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «تركتُ فيكم ما لـن تَضِلُّوا بعـدهما: كتـابَ الله، وسـنّتي، ولـن يفترقـا حتّـى يَـرِدَا عَلَـيَّ

الحوضَ»[1]. وها هما بين أيدينا، لا نعلم عنهما شيئاً إلا شيئاً واحداً؛ هو أن نقرأ منه لموتانا، أو نضعه في دورنا على الرف مهجوراً، لا نعلم عما بين دفتيه إلا بقصد التبرُّك، وما يفيد التبرُّكُ شيئاً إذا لم تُصلح هذه البركة القلوب، وها هما بين أيدينا لا نعمل بهما إلا أن نجادل الغيرَ فيهما على غير هُدًى ولا كتابٍ منير.

روى الترمذي عن جابر بنِ عبدِالله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يومَ القيامة أحسنَكُم أخلاقاً، وإنّ من أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم عنّي يومَ القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمُتَفَيْهِقون»[2]. والمتشدقُ: اللاوي شِدْقَه تفاصُحاً وتعاظُماً، والمتفيهق: الذي يملأ فمه في الكلام، فيظهره فخمَ الألفاظ، فخمَ الحروف.

وأمّا وُعَّاظنا، وأمّا خطباؤنا، وأمّا هداتنا، وأمّا كُتَّابنا، فكلّهم طالبٌ للمادة، وكلّهم كما قال ﷺ: «شَرُّ النّاس شرارُ العلماء في الناس» رواه البزار عن معاذ بن جبل[3].

إنّ كلّ قول خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان، وإنّ ما خرج من

---

(١) أخرجه الحاكم (٣١٩)، وهو حديث صحيح. انظر: «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٤٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٢٠)، وأشار إلى ضعفه بقوله: «غريب»، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٤٤١) إلى البزار، وذكر ما في سنده من الكلام.

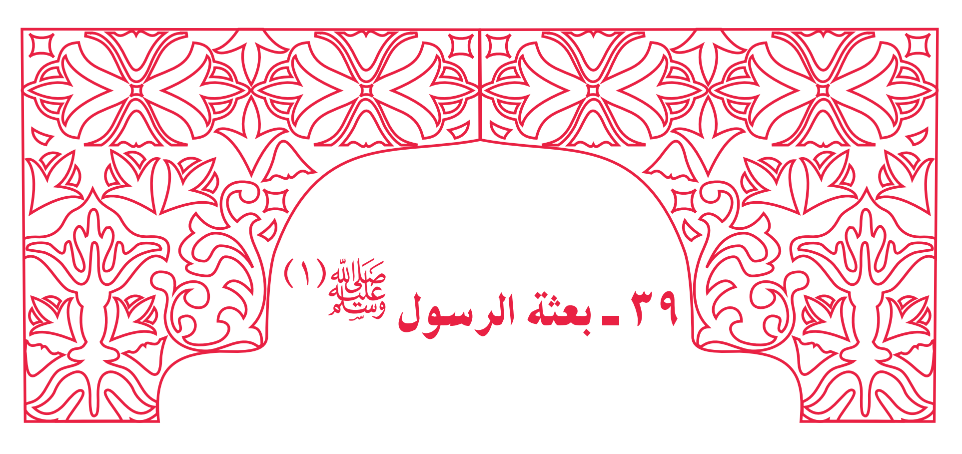
القلب فإنّه يصل إلى القلب، ينبّهه إلى الإصلاح، ويُنهضه إلى الخير والفلاح، والنّفسُ الصالحة الكاملة يمكنها أن تصلح غيرها وتكملها، والنفسُ الناقصة الدنية أولى بها أن تتدارك عيوبَها، ثم تلتفت بعد ذلك إلى إصلاح غيرها.

روى مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نبيٍّ بعثه الله تعالى في أمّة قبلي، إلا كان له من أمّته حَوَارِيُّون وأصحابٌ يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثمّ إنّها تَخْلُف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدَهم بيده، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبه، فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّةُ خَرْدَلٍ»(١).

هذا دليل على أن الدعوة إلى الحق واجبة على كل أحد، ولا يعذر بتركها أحد، وكل أحد يستطيع أن يجاهد ويدعو بيده، فإن عجز، فبلسانه، فإن عجز، فباعتزال المنكرات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّـٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الصف: ١٠ ـ ١٣].

❒ ❒ ❒

(١) أخرجه مسلم (٥٠).



٣٩ ـ بعثة الرسول ﷺ(١)

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الجمعة: ٢ ـ ٤].

الله الذي بعث في العرب الأميين الذين لم يعرفوا من قبل كتابة ولا قراءة: بعث فيهم رسولاً منهم، أمياً مثلَهم، يتلو عليهم آياتِ الله التي تُبين رسالته إليهم، والتي يتميّز بها الحقُّ من الباطل، والخيرُ من الشر، والنافعُ من الضار، والحلالُ من الحرام، ويطهِّرُهم من دَنَس الشرك، ودنايا الأخلاق، ويعلمهم القرآنَ الذي هو كتابُ الله، والحكمةَ والفقهَ في الدين، وقد كانوا قبلَ هذا الرسول في ضلال الكفر والجهالة، وكما بعثه في الأميين، بعثه في آخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم؛ لأن رسالته دائمة، ولأن الله العزيزَ في قدره وجبروته، الحكيمَ في علمه، جعل لهذا الأمر العظيم هذا النبيَّ الكريم، واختاره

(١) وتقرأ عادة في ليلة ١٧ رمضان.

من كافة البشر، وأعطاه رسالة دائمة في العرب وغيرِ العرب، وجعله خاتم النبيين؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء حسبَ ما تقتضيه حكمته، والله ذو الفضل العظيم.

ورسالة محمد ﷺ رسالة روحية عقلية تدعو للحق وللخير والجمال، ودعوته ﷺ دعوة مجردة من الطمع، ومن الأنانية، ومن الملك، في بدئها وفي غايتها؛ مبنية على العدل والعمل، والنظام والمساواة، والأخوة، ومقاومة الاستبداد الشخصي.

فللعدل قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[النساء: ٥٨].

وللمساواة قولُه تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «النّاسُ سواسيةٌ كأسنان المشط: لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ إلا بالتّقوى»(١).

وللعملِ والنظامِ قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢ ـ ٣] إلى آخر الآيات.

---

(١) أخرج الشطر الأول منه أبو الشيخ في «الأمثال» (١٦٦ ـ ١٦٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٩٥)، وهو ضعيف جداً؛ كما في «الضعيفة» (٥٩٦). وأما الشطر الثاني: ـ «لا فضل لعربي...» ـ فأخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٧٤٩)، وهو حديث حسن. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠).

وللأخوة قولُه ﷺ: «المؤمنُ أخو المؤمن» رواه مسلم عن عقبةَ بـنِ عامرٍ[1]، وقوله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» رواه البخاري، ومسلمٌ عن أنس[2].

ولمقاومة الاستبداد الشخصيِّ: ما أخرج البخاريُّ عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً». قيل: يا رسول الله! ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوقَ يدِه»[3]، وأخرج عن ابن عمر عن النبي ﷺ: أنه قال: «الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامة»[4].

ورسالة محمد ﷺ ليست كرسالة موسى؛ لأن موسى بعثه الله تعالى ليخلص قومه من بني إسرائيل من الاستعباد الفرعوني؛ فرسالته ضدُّ الظلم، وليست كرسالة عيسى؛ لأن الله بعث عيسى ليخلص قومَه من جبروت الرومان واستعمارِهم، ولأنها تتمة لرسالة موسى؛ فرسالته ثورةٌ ضد الاستعمار.

أما رسالةُ محمدٍ ﷺ، فكانت للعالم جميعاً برداً وسلاماً؛ ليخلصهم من الظلم العالمي، ومن الجهل العالمي؛ لهذا كان مفتاح السعادة هو أول ما جاء به؛ فقد جاء بالعلم والقلم، وقال له ربه:

---

(١) أخرجه مسلم (١٤١٤).

(٢) تقدم تخريجه في (ص ٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١٥)، وهو عند مسلم (٢٥٧٩) أيضاً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، وقال له ربه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]، وكانت رسالته القرآن الذي يقول فيه ﷺ: «فيهِ نبأُ ما قَبْلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحكمُ ما بينكم، وهو الفصلُ ليس بالهزل: من تركَهُ من جبارٍ، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره، أضلّه الله، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الأَلْسِنَة، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخْلَق من كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه: مَنْ قال به، صدق، ومَنْ عمل به، أُجر، ومن حكم به، عَدل، ومن دعا إليه، هُدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي[1] عن علي ـ كرم الله وجهه ـ.

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسُ محمّد بيده! لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمّ يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلت به، إلا كانَ من أصحاب النار»[2].

وروى البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمّتي يدخلون الجنةَ إلا مَنْ أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أطاعَني، دخلَ الجنةَ، ومن عصاني، فقد أبى»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩١)، والترمذي (٢٩٠٦)، وضعَّفه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٥١).

ومن هذين الحديثين: نفهم أنه ﷺ يقصد بأن كلَّ من سمع باسمه، أو بدعوته؛ سواء آمن به، أو لم يؤمن فهو من أمته؛ فمن آمن به، كان من الناجحين، وكان من أصحاب النعيم، ومن أعرض عن الإيمان به، كان من الهالكين.

والدينُ الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين الذي جَعَلَ من أشتات العرب أمةً موحدة، حملت مشعلَ الهداية للعالم كلِّه، فقضت على الجهالة والظلم، والاستبداد والاستعباد؛ فكانت أمةً عادلة في حكمها، رفيقة في رعايتها، قوية في سلطانها، حكيمة في قيادتها، مهيبة في أمرها.

دينٌ بشر العاملين به بالدولة والملك والسلطان، والتمكين في الأرض، والحياة السعيدة، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[النور: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

دينٌ يأمر بالمحبة والإخلاص في العمل، والتعاونِ على البر والتقوى، وطهارةِ الظاهر والباطن، والسعي في مصالح الجميع.

دينٌ لا تَطلب سعادةً إلا وجدتَها فيه، ولا خيراً إلا وجدتَه سابقاً إليه، ولا معروفاً إلا وجدته آمراً به، ولا منكراً إلا وجدتَه ناهياً عنه،

ولا مخبوءاً بالكون إلا وجدتَه منبّهاً عليه.

لهذا وجب على كل مسلم أن يكون داعيةً لدينه، مبشّراً به، مظهراً محاسنَه لمن يجهلُه، مبرهِناً على أن هذا الدين هو دين البشرية جمعاء.

والحق أن من اعتز بدين الإسلام، أعزّه الله، ومن اعتز بغيره، أضلّه الله، ومن طلب النور في غيره، أخطأ سواء السبيل، ومن استضاء بنوره، هُدي إلى صراط مستقيم ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥].

روى البخاري عن ابن عباس: أن أبا سفيانَ بنَ حرب أخبره أن هرقل أرسلَ إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفارَ قريش، فأتوه وهم بإِيلْياء، فدعاهم وحَوْلَهم عظماءُ الروم، ثم دعا بالترجمان، فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن الرجل، فإن كذبني، فكذبوه؛ فوالله! لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً، لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القولَ منكم أحدٌ قطُّ قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مَنْ مَلَكَ؟ قلت: لا. قال: فأشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعدَ أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدِرُ؟ قلت: لا، ونحنُ منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها، ولم يمكني كلمةٌ أدخلُ فيها غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال: ينال منا، وننال منه. قال: فبماذا كان يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحدَه، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال للترجمان: قل له: إني سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسلُ تُبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبله، لقلتُ: رجلٌ يتأسى بقولٍ قيل قبله، وسألتك: هل كان في آبائه مَنْ ملك؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقلتُ: لو كان، لقلتُ: رجلٌ يطلب ملكَ أبيه، وسألتك: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أنْ لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذَرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله، وسألتك: أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أَنَّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباعُ الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الإيمانُ حين تخالطُ بشاشَتُه القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرتَ أنْ

لا، وكذلك الرسلُ لا تغدر، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فذكرتَ أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحدَه لا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف؛ فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنه خارج، ولم أكنْ أظن أنه منكم؛ فلو أعلم أني أخلُصُ إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنتُ عنده، لغسلت عن قدمه.

إلى أن قال أبو سفيان: فقلتُ لأصحابي: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشَةَ أن يخافَه ملكُ بني الأصفر: فما زلت موقناً أنه سيظهر، حتى أدخل اللهُ عليَّ الإسلام[1].

❐ ❐ ❐

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٢)، وهو في مسلم (١٧٧٣) أيضاً.



٤٠ ـ أكل أموال الناس بالباطل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٨٨].

أي: لا يأكلْ بعضُكم مالَ بعض من غير الوجه الذي أباحه الله، وأجملَتِ الآيةُ هذا الوجه، ولم تفصِّلْه، ثم خصّت بالذكر ما يُدْلَى به إلى الحكام عن طريق الرشوة، أو أجرةِ شاهد الزور، وأفردته بالذكر؛ لعظم جرمه، فقال: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٨٨] أنكم على باطل.

ولنذكر بعضَ وجوه الباطل التي أجملت الآية ذكرَها بكلمة الباطل:

فمنها: أن تتعدى على الناس بغصب شيء من أموالهم عن طريق النهب، أو السرقة، أو الأخذ بالقوة، أو الخيانة، أوالغش، أو الاحتيال، أو التدليس على المشتري، أوالغبن، أو التجهيز على الدلالين ليدفع المشتري الراغب أكثرَ مما تستحق السلعة من ثمن، أو

بيع ما ليس لك، أو أخذ المال عن طريق الربا، أو القمار، أو إنقاص أجرة الأجير، أو اغتصابها، أو أن تأخذ منه أكثرَ من حقك عليه، أو أن يعطيك من العمل أقلَّ ممَّا عليه لك؛ ففي الأولى تأثم؛ لظلمك إياه، وفي الثانية يأثم؛ لغشّه لك.

كلّ ذلك باطلٌ وظلم، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا﴾[النساء: ٣٠]، والرسول ﷺ يقول: «أعطوا الأجيرَ أجرَه قبلَ أن يجفَّ عرقُه، وأعلمه أجره وهو في عمله»[(١)].

روى ابن ماجه عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: قال: «ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامة، ومَنْ كنتُ خصمَه، خصمتُه: رجلٌ أعطى بي ثم غدَر، ورجلٌ باعَ حرّاً فأكلَ ثمنه، ورجل استأجرَ أجيراً، فاستوفى منه، ولم يُعطه أجره»[(٢)].

ومن أكل أموال الناس بالباطل: بخس الكيل والميزان، وخيانة الشريك شريكه، والأجرة على شهادة الزور، وغصب الأرض إما ظلما: كاقتطاعها من ضعيف، أو أخذها من طريق المسلمين.

روى الشيخان عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من ظَلَم قِيدَ

(١) رواه البيهقي عن أبي هريرة. (المؤلف). [أخرجه البيهقي (١١٤٣٤٠)، وضعّفه، ولشطره الأول شاهد من حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وذكره البغوي في المصابيح في قسم الأحاديث الحسان. انظر: التلخيص الحبير (٣/ ٥٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٤)، وابن ماجه (٢٤٤٢).

شِبْر من الأرض، طُوِّقَه من سبعِ أرضينَ»[1].

وروى الطبراني عن الحكم بنِ الحارثِ السُّلَمي، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أخذَ من طريقِ المسلمينَ شبراً، جاء يومَ القيامة يحملُه من سبع أرضين»[2].

ومنه أيضاً: الأجرةُ على الدَّجَل، أو على ما يكتبه الدجالون.

ومنه: الأجرةُ تؤخذ على العبادة؛ كما يعمله بعضهم؛ كالأجرة تؤخذ لقراءة القرآن على قبور الأموات، أو لأرواحهم في بعض المواسم، أو على صيام وصلاة.

وإن العبادة نيّة يُراد بها وجهُ الله تعالى وابتغاءُ مرضاته بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومتى خالطَ هذه العبادةَ شيءٌ من حظ الدنيا، خرج العملُ عن كونه عبادةً خالصة لله. والله تعالى لا يقبل إلا العبادة الخالصةَ من الحظوظ والشوائب.

أخرج مسلم: أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشرك، مَنْ عملَ عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركْتُه وشِرْكَه، ثم إذا كان يوم القيامة، أُتي بصحفٍ مُخَتَّمة، فتنصب بين يدي الله تعالى، فيقول الله لملائكته: اقبلوا هذا. وألقوا هذا. فتقول الملائكة: وعِزَّتِك وجَلالِك! ما رأينا إلا خيراً، فيقول: نعم، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري(٢٣٢١)، ومسلم (١٦١٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٧٢)، وفي «الصغير» (١١٩٧)، وهو حديث ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد» (٤/ ٣١٢).

كان لغيري، ولا أقبلُ اليومَ إلا ما ابْتُغِي به وجهي»[(١)].

وروى الترمذي عن أبي سعيد بن أبي فضالة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا جمعَ الله الأولين والآخرين ليوم القيامة: ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَنْ كان أشركَ في عمله أحداً، فليطلبْ ثوابه من عنده، فإنَّ الله أغنى الشركاءِ عن الشرك»[(٢)].

وقيل في سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨]، وهي: أن ربيعة بنَ عبدان الحضرمي وامرأ القيس بنَ عابس اختصموا إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقال ﷺ للحضرمي: «ألك بينة؟»، قال: لا، قال: «فلك يمينه». فانطلقَ امرؤ القيس ليحلفَ، فقال ﷺ: «أَمَا إنْ حَلَف على ماله ليأكله ظلماً، لَيَلْقينّ الله َوهو عنه معرضٌ»، فأنزل الله الآية[(٣)].

وروى البخاري، ومسلم عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ سمع جَلَبَةَ خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشرٌ، وإنكم تختصمون إليَّ، فلعلَّ بعضَكم أن يكون أَلْحَنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) إلى قوله: «تركته وشركه»، وأما ما بعده، فأخرجه الدارقطني (١/ ٤١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٠٣، ٦١٣٣)، وضعّفه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٦)، والترمذي (٣١٥٤)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً عن سعيد بن جبير. (المؤلف). [أخرجه مسلم (١٣٩)، وليس فيه تسمية الخصمين].

بحُجَّته من بعض، فأقضيَ له على نحوِ ما أسمعُ، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلم، فإنّما هي قطعةٌ من النار، فليأخُذْها، أو ليترُكْها»؛ فبكيا، وقال كلٌّ منهما: يا رسول الله! حقي لصاحبي[1].

وقد يظنّ بعضُ الناس أن قولَ الأميرِ أو القاضي بالحقِّ أو الباطلِ حقٌّ؛ فهو نائبُ الشارع في بيان الحق، فإذا حكمَ لإنسان، ولو بغير حق، حلَّ له، ولا يكون هذا من الباطل، وهذا محضُ وهم؛ فالحقُّ حقٌّ لا يتغير بقولِ حاكم أو أمير، والباطلُ باطلٌ لا يتغير بقول خليفة أو سلطان، وليس على الحاكم إلا بيانُه وإيصالُه إلى مستحقّيه بالعدل، فإذا حصلَتْ للحاكم شبهةٌ في ذلك، أو كان أحدُ الخصمين أقوى بياناً، وأظهرَ حجةً، فحكمَ له القاضي بغير حق، مقتنعاً ببيانه وحجته، والمحكوم له يعلم أنه على باطل؛ فقد حكم له القاضي بقطعة من نار؛ كما ظهر ذلك في حديث أم سلمة.

أمّا ما نراه اليوم بين الناس من خصام وتقاضٍ، وإدلاءٍ إلى الحكام بالأموال الضخمةِ، وإلى شهودِ الزور، وتشجيعهم على الكذب؛ فأمرٌ يحزن، حتى إن بعضهم لا يطالب غريمَه بحقه إلا بإنذار

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً عن سعيد بن جبير. (المؤلف). [أخرجه مسلم (١٣٩)، وأخرجه البخاري (٦٥٦٦)، ومسلم (١٧١٣)، واللفظ له بنحوه، وليس فيه عندهما: «فبكيا...» إلخ، وإنما أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٩٧٤) بإسناد حسن].

من المحكمة، ولعله لو طالبه، أو ذَكَّره، لما احتاج إلى المحكمة، وبعضُهم لا يطالب إلا للنكاية والانتقام والإيذاء، وإن ناله من ذلك ضرر.

روى الطبراني عن عبدالله بنِ عمرِو بنِ العاص، عن النبي ﷺ، قال: «الرّاشي والمُرْتَشي في النّار»(١).

وروى أحمد، والترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لعنَ اللهُ الرَّاشيَ والمُرْتَشِيَ في الحكم»(٢).

ولقد جَرَّ الخصامُ على الناس بلايا ونكباتٍ؛ فكم خرّب بيوتاً، وأفنى ثرواتٍ، وكم أهانَ نفوساً، وفرقَ جماعاتٍ، ولو تأدب الناسُ بأدب القرآن، لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم، ويمنع تقاطعهم، ويُحل فيهم التراحمَ بدلَ التزاحم، ويقودُهم للوئام، ويمنعهم عن الخصام.

روى الشيخان، وأصحاب السنن عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حلفَ على يمينِ صَبْرٍ ـ أو كاذبة ـ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ، لقي اللهَ وهو عليه غضبانُ»، وفي رواية: «فليتبوَّأْ مقعدَه من

---

(١) أخرجه البزار (١٠٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٢٦)، وهو ضعيف؛ كما في «ضعيف الجامع» (٣١٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٧)، والترمذي (١٣٣٦)، واللفظ لأحمد، وصححه الترمذي.

النار»، فأنزل الله تصديقَ ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[آل عمران: ٧٧]، فدخل الأشعثُ بنُ قيس، فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت ـ يعني: الآية ـ، كان لي بئر في أرض ابن عَمٍّ لي، فجحدني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ، فقال: «شهودك»، قلت: مالي شهودٌ، قال: «فيمينه»، فقلت: إذنْ يحلفُ ويذهبُ بمالي، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حلفَ على يمينِ صَبْرٍ، وهو فيها فاجر...» إلى آخر الحديث(١).

إنّ الكذب في نفسه جريمة عظيمة، فإذا انضم إليها يمين فاجرة، امتهنت فيها أسماءُ الله الحسنى، وصفاتُه المقدسة، كانت الجريمة أعظمَ، والذنبُ أكبرَ، فإذا أضيف إليهما أكلُ حق امرىء مسلم بالباطل؛ كان عظمُ الجريمة في النهاية وفحش الذنب غايةَ الغاية، ولهذا أخبرنا النبي ﷺ أن عقاب ذلك غضبُ الجبار، وأن من فعله، فليتبوأ مقعدَه من النار.

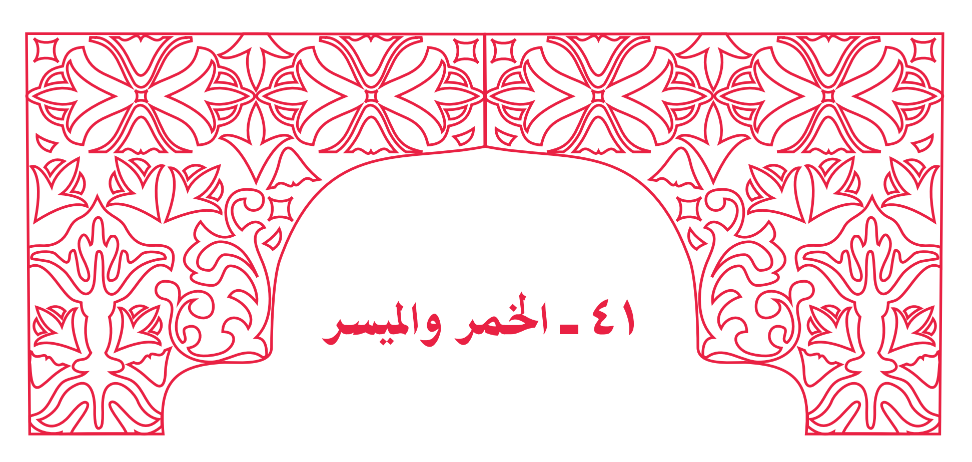
---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٩)، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٣٢٤٣)، والترمذي (١٢٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٩١)، وابن ماجه (٢٣٢٣) مختصراً دون القصة، وكلهم رووها باللفظ الأول: «وهو عليه غضبان». وأما رواية: «فليتبوأ مقعده من النار»، فأخرجها أبو داود (٣٢٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٦)، و«الأوسط» (٥٢٨٥)، والحاكم (٧٨٠٢) من حديث عمران بن حُصين، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وروى مسلم، وغيره عن إياس بن ثعلبةَ الحارثي: أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطعَ حَقَّ امرىء مسلم بيمينه، فقد أوجبَ اللهُ له النارَ، وحرّم عليه الجنةَ»، قال: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال «وإن كان قضيباً من أراك»[1].

❑ ❑ ❑

(١) أخرجه مسلم (١٣٧).



٤١ ـ الخمر والميسر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١].

أي: إنّما يريد الشيطان أن يُحدث فيكم العداوةَ وأنتم متحابون، ويوجد بينكم البغضاء وأنتم متآخون، بشربكم الخمرَ التي تزيل عن صاحبها العقل: فيتكلم بفحش القول وهو لا يدري، ويهذي بقبيحه وهو لا يعي، وقد يجرّ هذا القول إلى القتال، ويريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في القمار الذي هو كالخمر إثماً وشراً؛ فقد يقامر المرء على الدَّين إن خسر ماله، فيغلب، فيقعد حزيناً مديناً ينظر إلى ماله بيد غيره، وربما يثور، فيقتل مَنْ سلبَه مالَه، وربما انتحر.

ثم إن الخمر والميسر يَشْغلان المسلم عن ذكر الله، وعن الصلاة؛ فانتهوا أيها المسلمون عنهما؛ لأنهما رجسٌ من عمل الشيطان، واجتنبوهما، تُفْلِحوا.

وقد حرّم الله الخمرَ والقمارَ البتّةَ؛ لما فيهما من الأضرار البينة: في الجسم، وفي المال، ويشهد بضرر الخمر كبارُ أطباء العالم الذين

عرفوا ضررها الشامل لكل عضو من أعضاء الجسم، فقالوا: إنها تؤثر في الكلى فتقتلها، وفي الكبد فتمزقها، وفي المعدة فتمددها، وفي الرئتين فتهلكهما، وكم من مدمنِ خمرٍ قطعت كبده، أو حرم من مرارته، أو أصيب بالسل لضعف رئتيه، ثم مات، ولقي اللهَ وهو غضبان عليه.

وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ: أنه قال: «مدمنُ الخمرِ إن مات، لقيَ اللهَ كعابدِ وَثَنٍ»[1].

قالوا: في الخمرة كحولٌ إذا وصل الجسمَ منها مقدارٌ معين هو عبارة عن قراريطَ معدودةٍ، وتشبَّعَ الجسمُ بها، يصبح محتاجاً لها كلما استهلكها، أو استهلكَ قسماً منها؛ كاحتياج المعدة إلى الطعام أو الشراب، وبهذا يصبح مدمناً.

ولا يقتصر ضررُ الخمر والميسر على الجسم والمال فقط، وإنما يتعدَّاهما إلى الدِّين والشرف.

فالخمرُ تصدُّ الإنسانَ عن ذكر الله، وعن الصلاة، وتأمره بالفواحش، وارتكاب المعاصي؛ فقد روى الطبراني عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: أنه قال: «الخمرُ أُمُّ الفواحش، وأكبرُ الكبائرِ، من شربَها، وقع على أمّه، وعمّته، وخالته»[2]، وروى

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) وابن ماجه (٣٣٧٥)، والطبراني (١٢٤٢٨)، وضعَّفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ٥٢).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٤٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٣٧٢)، وفي =

أيضاً عن عبدِالله بنِ عمرِو بنِ العاص: أن النبي ﷺ قال: «الخمرُ أُمُّ الخبائث؛ فمن شربَها، لم تُقبل صلاتُه أربعين يوماً، فإن مات وهي في بطنه، مات مِيتَةً جاهليّة»(١).

والخمر تجعل في الإنسان أنانيةً لا يلتفت معها إلى أخيه الإنسان في حالة بؤسه، وتقتل الشرفَ؛ لأنها تُتلف عقل الإنسان، فإذا أدمنَها، أصبح ما يراه في حال سكره طبيعياً في حال صحوه، فلو رأى مع أهله في حال سكره أجنبياً، ثم رآه في حال صحوه، لا يهمه ذلك.

والخمرُ أيضاً مع إتلافها للجسم، وإذهابها للمال، مَجْلَبَةٌ للعداوة والبغضاء، مُضعفة للنسل، مُذيعة للسر، لاسيما إذا كان السرُّ يتعلق بالمجتمع، أو بشخص الحاكم، أو بحياة هذا السكران، فيَهلك، أو يُهلك، فالسكير إذاً لا ثقةَ به.

ومن أضرارها: احتقارُ الناس للسكير، وذهابُ الهيبةِ منه والوقارِ له في أعين الناس؛ فالسكرانُ في هيئته ومشيته وكلامه وحركاته وسكناته كالمجنون يضحك منه غيرُه، ويستهزىء به سواه، ويستخفُّ به كلُّ مَنْ يراه، حتى الأطفال؛ لأنه يكون أقلَّ عقلاً منهم.

مرّ ابنُ أبي الدنيا بسكران يبول في يده، ويغسل وجهه، وهو يقول: الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً مطهّراً.

= «الأوسط» (٣١٣٤)، وضعّفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ٦).

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٤٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٦٧)، وهو حديث حسن؛ كما في «الصحيحة» (١٨٥٤).

والخمرة تُجَرِّىء شاربَها على ارتكاب الإجرام؛ لأنها تجرده من عقله، فيفعل فعلَ البهائم وهو لا يدري، وقد أخبرنا ﷺ عن عابدٍ كان فيمن قبلَنا حبسته امرأةٌ ذاتُ مال وجمال، وخَيَّرَتْه بين أن يبقى محبوساً لديها، أو يفعلَ واحدة من ثلاث: أن يقتل طفلاً كان عندها، أو يقعَ عليها، أو يشرب كأساً من الخمر. فقال: «أما القتل، فإثمُه كبير، وجرمُه عظيم، ولا أقتل نفساً أحياها الله، وأما الزنا، فخطيئة كبرى، وفاحشة عظمى، وسبيل سوء، ولا بأس من أن أشرب كأساً من الخمر لا يلبث أن يزول أثرُها، وإثمُها لا يتعداني»[1]، ثم شرب الكأس، ولما ذهب عقله؛ وقع على المرأة، وقتل الغلام، وباء بالآثام الثلاثة، يقول الشاعر:

وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى
كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ؟

وقد حرم كثيرٌ من العقلاء غيرِ المسلمين الخمرةَ على أنفسهم؛ لأنهم رأوا أن مَنْ شربها صار هزأة القوم، وقد قيل للعباس بن مرداس: لم لا تشرب الخمرة؟ فقال: ما أنا بآخذٍ الجهلَ بيدي فأدخلَه إلى جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيدَ القوم، وأمسي سفيههم.

---

(١) روى القصة ابن حبان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اختصرناها هنا بمعناها. (المؤلف). [أخرجه معمر في «جامعه» (٩/ ٢٣٦) ـ ومن طريقه النسائي (٥٦٦٦) ـ، وابن حبان (٥٣٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٨٦، ٥٥٨٧) مرفوعاً وموقوفاً، ورجّح وقفه على عثمان، وقال: «وهو المحفوظ»، وقال الدارقطني: «والموقوف هو الصواب». انظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٦٧٤)].

ويدخل في حكم الخمر كلُّ مسكر؛ فقد أخرج مسلمٌ، والبخـاريُّ عن النبي ﷺ: أنه قال: «كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلّ خمرٍ حرامٌ»(١).

ومن أنواع المسكرات: الأفيون، والحشيش، والمورفين، ومنها ما يُمضغ، ومنها ما يُشم، ومنها ما يُدخن، ومنها ما يُحقن تحت الجلد؛ وكلُّ ما أسكر كثيرُه، فقليلُه حرام، وسواء أُخذ بالفم، أو بغيره.

وروى الحاكم: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ زنى أو شرب الخمر، نزع اللهُ منه الإيمان كما يخلعُ الإنسانُ القميصَ من رأسه»(٢).

وأمّا القمار، فهو شرُّ المصائب؛ المفقِرُ المهلِكُ، وطرقُه كثيرة يجمعها أن تغالبَ شخصاً على مال؛ فإن غلبته، أخذته منه، وإلا أخذه منك، وكلُّ طرقه محرمة، سواء كان بالورق، أو الجوز، أو بغيرهما؛ ما دام هناك ما يسمى كاسب، ومكسوب منه، أو غالب، ومغلوب، وهو من أقبح طرقِ أكلِ أموالِ الناسِ بالباطل.

وما تغلب القمار على إنسان، إلا أذاقه طعمَ الفاقة، وذلَّةَ الفقر، ومن كسبَ مرةً، خسر مراتٍ، ومن ربحَ فَلْساً، خسر ألوفاً. يُطمع الشيطانُ الخاسرَ في تعويض خسارته، فيغريه باللعب، ويغري الرابح بزيادة الربح، فيسوقه إلى المغامرة حتى يهلك الاثنان.

وكم خرّب القمار بيوتاً غنيةً ورثت المالَ كابراً عن كابر، حتى إذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣)، ولم أجده في «البخاري»، ولا من عزاه إلى البخاري.

(٢) أخرجه الحاكم (٥٧)، وهو حديث ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٢٧٤).

جاء أشقاها، أذاق أهلَها ذلةَ العسر، وألمَ الفقر، يلتمس أحدُهم كسرة الخبزة من أيدي الناس، ولعل أكثرهم كان يلتمسها منه!.

وكم أفسدَ القمار أخلاقاً، وكم سبب فضيحة، وكم قضى على مستقبل، وكم أوقع في بؤس، وأضاع من شرف!.

والمقامر كسول: يكره العمل، وينتظر الرزق من غير بابه المشروع، فيتوهم أنه سيربح بدرهمه ديناراً؛ فلا يلبث أن يفرّ منه الاثنان، ثم لا يستطيع رَدَّهما، فيجلس حزيناً مهموماً، ثم يستدين فلا يجد مَنْ يدينه؛ فيخسر شرفه، ويخسر ثقة الناس به، ويخسر عزة نفسه، ويبيت جائعاً مهموماً، وقد ينتهي به الأمر إلى الانتحار، أو إلى عيشة المهانة والذلة والسؤال.

وما انتشر القمار في بلدة إلا وقفَ دولابُ عملها الذي عليه مدارُ حياة الغني والفقير.

رأى بعض العقلاء في ولده ميلاً إلى المقامرة، فأعطاه ديناراً، وقال: اذهبْ وقامرْ بهذا الدينار على شرط أن تبحث عن أقدمِ مقامرٍ في البلد، فتلعبَ معه أولَ مرة، وقد امتثل الولدُ أمرَ أبيه، ووجد المقامرَ القديم؛ فإذا هو شيخٌ فانٍ بائسٌ ذليلٌ جائعٌ عارٍ إلا من أسمالٍ بالية، فقال له الولد: لاعِبْني على هذا الدينار، فقال له: ولم اخترتني دون سواي؟ قال: لأن أبي أمرني أن ألعب أولَ مرة مع أقدمِ مقامر، وقد قيل لي: إنك هو. فقال المقامر: يا بني! إن أباك حكيم، وإنه قد

مضى عليَّ زهاءُ خمسين سنةً وأنا أقامر، وهذه حالتي كما تراها، وإن نهاية القمار جوع وبوار، وخزي وعار، فانصرفَ الولدُ شاكراً لأبيه نصيحتَه، مُتَّعِظاً بحكمته.

والمقامرُ لا يقدر على ترك القمار إلا مَنْ هدى الله؛ لأنه كلما ربح، طمع في الزيادة؛ وكلما خسر، أمل في التعويض، فتضعف قواه ويفقد إرادته، والعاقل مَنْ تباعدَ عن الشر، ولم يقارب الطرق الموصلةَ إليه، حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل. ومن حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه[1].

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة: ٢١٩]، وإذا كان الإثم أكبر من النفع، والضرر أعظمَ من المصلحة، والخسارةُ أكبرَ من الربح؛ فتركُ الضررِ نفعٌ، والبعدُ عن الخسارة أو مما يدني من الخسارة ربحٌ.

❐ ❐ ❐

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١٠٧)، بلفظ: «من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه».



٤٢ ـ سعادة الدارين في العمل الصالح

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

فالعمل الصالح في هذه الدنيا يسعد صاحبه في الدنيا، فيحييه حياة طيّبة؛ بالتّمكين في الأرض، وإبدالِ الخوفِ أمناً، والضيقِ سَعَةً، والعسرِ يسراً، وفي الآخرة له جنّاتُ النعيم، في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود؛ يقال لهم: ادخلوا الجنة بما عملتم في حياتكم، وبما نصرتم دينكم، وجاهدتم في الله حق جهاده، وعيشوا في هذا النعيم، لا خوف عليكم، ولا أنتم تحزنون.

روى البخاري عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، قال: بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاه آخرُ، فشكا إليه قطعَ السبيل، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا عديُّ! هل رأيت الحِيرَةَ؟» قلت: لم أرها، ولقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة، لتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ ترحَلُ من الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن

طالَتْ بكَ حياةٌ، لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى بنِ هُرْمُزَ، ولَئِنْ طالَتْ بكَ حياةٌ، لترينَّ الرجلَ يُخرج ملءَ كفّه من ذهب أو فضّة، يطلبُ مَنْ يقبلُه منه، فلا يجد أحداً يقبله، وليلقينّ اللهَ أحدُكم يومَ القيامة وليسَ بينه وبينَه تَرْجمان يُترجم له، فليقولَنّ: ألَمْ أبعثْ إليك رسولاً يبلّغك؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: ألم أعطِك مالاً أفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنمَ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنّم». قال عدي: فرأيت الظَّعِينَة ترحل من الحِيرَة حتى تطوف في الكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بنِ هرمز، ولئن طالت بكم حياة، لترونّ ما قال أبو القاسم[1].

لقد كان الإسلام بمن قبلَنا منصوراً مؤيداً مهاباً يوم أن كان العاملون يعملون له، وينصرون الله ورسوله، ولكن الخلف ـ ولا تزال الأيام توقظهم، والمصائب تنبّههم ـ رقودٌ جمود. قامت أسواق الفواحش فينا، وذهب الوفاء والوقار منا، وتعطلت معالم الديانة فينا، وسكت العلماء، وسكت الصلحاء، وكأنهم لا يُبصرون ولا يسمعون، وإنه لا يليق بقوم يؤمنون بالله ورسوله يَدَّعون الإسلام أن يسكتوا على هذا الحال.

إن ديننا يأمرنا أن نعمل الصالحات بقوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧]، ولكننا تركنا هذا، وعمرنا بيوت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٠).

اللهو والفساد، وتركنا بيوتَ الله خاويةً على عروشها إلا من خدمِها وموظفيها.

إنّ ديننا يأمرنا أن نربي أولادنا التربيةَ الصالحة بقوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾[التحريم: ٦]، ولكننا تركناهم يتعلمون من المناهج الكافرة ـ مناهجِ العدوِّ الكافرِ ـ دروساً لا تَمُتُّ لديننا بِصِلة، دروساً تسلخُهم من دينهم، وتجردهم من أخلاقهم الإسلامية ـ ومن شَبَّ على شيء، شَاب عليه ـ، ولو أننا زوّدناهم من ديننا وأخلاقنا الكفاية، لكان لهم من ذلك درعٌ يقيهم شرورَ عادية الكفر وأهله.

إنّ ديننا يأمرنا أن نتجنب كلَّ ما من شأنه إثارةُ الفتن والعداوات، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾[الحجرات: ١١]، ويقول: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾[الحجرات: ١٢]، ويقول: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦]، ويقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾[الحجرات: ٩]، ولكنّنا خالفنا هذا كله، فأطلقنا ألسننا بالكذب والغيبة والنميمة، وإثارة الفتن في الأفراد والجماعات.

إنّ ديننا يأمرنا أن ندعو إلى دين الله، ويقول: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[آل عمران: ١٠٤]، ويقول: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣]، ولكنّنا تركنا هذا كله، وأصبحنا ولا حديثَ لنا إلا الدنيا وزينتُها، والسوقُ

وأرباحُه وخسائره، والأخبارُ السياسية، وأحاديثُ الصحف على اختلافها.

إنّ ديننا يأمرنا أن نحبّ لإخواننا ما نحبّه لأنفسنا، وأنّ نسعى في نفع المجموعة الإسلامية؛ لأنّها كجسم واحد، وكلّ فرد منّا عضو في هذا الجسم، فيجب ألَاّ يكون هذا العضو أَشَلَّ عاطلاً، ولكنّا فضلنا مصلحتنا الشخصية على مصلحة المجموع، ولا يهمنا هلكَ هذا المجموعُ أو سلمَ ما دام النفعُ وصلَ إلينا.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان المرصوصِ يشدُّ بعضُه بعضاً»[1].

ورُوِي عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه»[2].

إنّ ديننا يريد منّا أن نكون أشداءَ على الكفار، رحماءَ بيننا، ونحن بالعكس من ذلك، أشداءُ على أنفسنا، متملّقون للكفار أعدائِنا، نتقرب إليهم بكل الوسائل التي تنافي دينَنا، حتى صرنا مغلوبين على أمرنا؛ يُطْعَنُ في ديننا على مسمع منا، فنسكت، وربما استغفرنا في أنفسنا، ولم يغضب منا أحدٌ لله! ويُطعن في قرآننا ونبيِّنا، ونسكتُ، وكأننا لا يهمنا أمرُ الطاعنِ ولا المطعونِ فيه!

ولما رأى عدونا الكافرُ ضعفنا وخَوَرَنا واستكانَتَنا، طمع فينا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥)، وليس فيه لفظ: «المرصوص».

(٢) تقدم تخريجه في (ص٩٨).

وتداعَتْ أممُه علينا كما تتداعى الأَكَلَةُ على القصعة، لا لقلةٍ فينا، ولكنا كما قال نبينا: «غثاءُ كغُثاء السيل»[1] فأكلونا لقمةً سائغة هنيةً، وكلُّنا مشغول بنفسه ومتاعه ولذته.

إنّ ديننا يأمرنا بمكارم الأخلاق، وينهانا عن سَفَاسِفِها ورذائلها، ونحن بالعكس من ذلك، تَسَرْبَلْنا مفاسدَ الأخلاق، وتركنا محاسنَها، وجَمَّلْنا أسماءَ المفاسد، وقَبَّحْنا أسماءَ المحاسن؛ كذبنا وسمّينا الكذبَ سياسة، وخدعنا وسمّينا الخدعةَ حذراً، ونافقنا وسمّينا النفاقَ مجاملةً، وبخلنا وسمّينا البخلَ اقتصاداً، وأسأنا الظنَّ في بعضنا وجعلناه فطنةً، وتركنا الدين وسمّيناه تحرّراً، وأعرضنا عن العادات الإسلامية ودعوناه تجدّداً، وجاهرنا بالمعاصي وقلنا: هي حرية، وهكذا أصبحنا أبعدَ ما نكون عن الدين، ونقول: إننا من المسلمين.

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: أنه قال: «ما نقضَ قومٌ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوُّهم، وما حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، إلا فشا فيهم الفقرُ، ولا ظهرت فيهم الفاحشةُ إلا فشا فيهم الموتُ، ولا طفّفوا المكيالَ، إلا مُنِعوا النّبات، وأُخذوا بالسّنين، ولا منعوا الزكاة، إلا حُبس عنهم القطر»[2].

وروى ابن حبان، والبيهقي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال:

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧)، وصححه في «الصحيحة» (٩٥٨).

(٢) سبق تخريجه في (ص١٠١).

«لَعَنَ اللهُ مَنْ ذبحَ لغيرِ الله، ولعن الله من كَمَّهَ أعمى عن السبيل، ولعنَ اللهُ من سبَّ والديه، ولعنَ اللهُ من تولَّى غير مواليه، ولعنَ الله من عمــلَ عملَ قومِ لوط»[1].

وكلّ هذه الأعمال فينا يُجاهر شبابنا وشِيبُنا فيها ولا يستحون، بل يتحدثون بارتكابهم لها ويفتخرون.

وإنّ ارتكاب المعاصي سببٌ لإحباط الأعمال، ومذهِبٌ لبركة الأرزاق، وإن ارتكاب الفجور يؤدي إلى توالي المصائب والكروب، وإن الجهلَ بالدين وتركَه ظِهْرياً يجرّ إلى فعل كلّ قبيح، وإتيانِ كلّ فاحشة، وإنّ ارتكاب القبيح يسبّب نقصَ الأموال بإذهاب بركاتها، وإنّ الفواحش تسبّب الأمراض والأوبئة، فيكثر الموتُ، وتقلّ المواليد، فتنقص الأنفس، وسنةُ الله في خلقه أنه كلما تكاثرت الأوزار، تزايدَ غضبُ الجبار على العباد؛ فلا يُستجاب دعاء؛ لأنه كما قال ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠].

فلا عجبَ إذن أن خُذلنا في عدة مواطن، وسَلَّط اللهُ علينا مَنْ لا يرعى لنا عهداً، ولا يحفظ لنا وعداً، ولا يحترم لنا كلمة، ولا يرحم لنا شيخاً، ولا يوقر لنا ديناً.

ولا عجبَ أن كنا أذلاءَ في أوطاننا لأجنبي عنا في ديننا ولغتنا وعاداتنا وأخلاقنا، ولا عجبَ في ذلك ما دمنا لا تهمنا إلا شهواتنا

---

(١) تقدم تخريجه في (ص١٠٤).

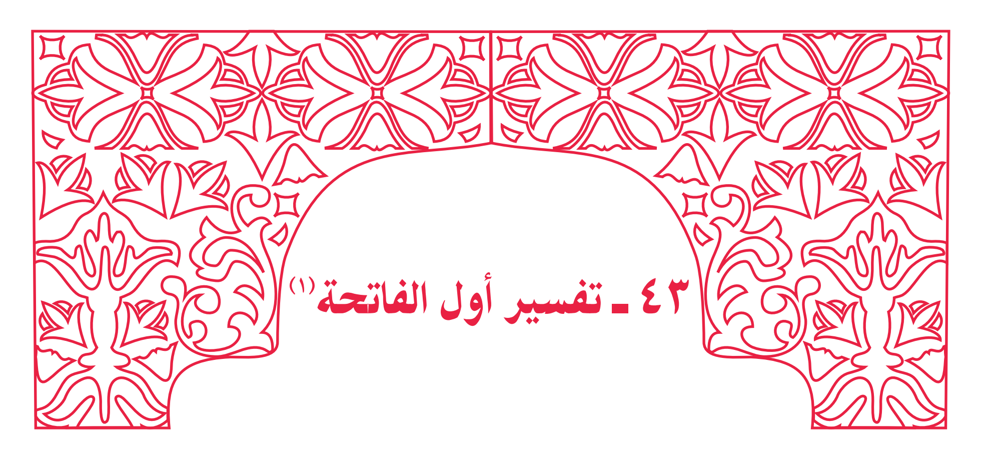
﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٨ ـ ١٩].

إن دامت الحال على ما هي عليه، فتدهورُنا لا يقف عند حده هذا، ولكن الأمم تمرض ولا تموت، ولنا في قول الرسول ﷺ أملٌ يتجدد: «بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[1]. والغرباءُ هم الذين ينصرون الدين، ويؤدّون النصيحةَ لله ولرسوله وللمؤمنين، ويجاهدون في سبيل مبدئهم، والدعوةِ لدينهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨].

❒ ❒ ❒

---

(١) رواه الترمذي عن عمرو بن عوف. (المؤلف). [أخرجه الترمذي (٢٦٣٠)، وهو في مسلم برقم (٢٣٢) من حديث أبي هريرة].



٤٣ ـ تفسير أول الفاتحة[1]

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٥].

الفاتحةُ أمّ الكتاب، تُقرأ كل يوم في كل ركعة من ركعات الصلاة، وقلَّ من يفهم معناها، وقد أجمل الله تعالى فيها بعض ما فصله في الكتاب، والكتابُ إنما نزل بلسان عربي مبين، وواجب على العربي أن يفهم معناه، وإلا، فليفهم معنى أُمِّه التي لا تصح صلاتُه بدونها؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا صلاةَ لمنْ لم يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ» رواه الشيخان عن عبادةَ بنِ الصامت[2].

وروى أصحاب السنن عن عبادة بن الصامت أيضاً، قال: كنّا خلفَ رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، فقرأ رسولُ الله، فثقلت عليه

---

(١) [أغلب هذا الموضوع والذي يليه مأخوذ من كتاب «إصلاح الوعظ الديني» للأستاذ محمد عبد العزيز الخولي]. (المؤلف)

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٣)، ومسلم (٣٤).

القراءة، فلما فرغ، قال: «لعلَّكم تقرؤون خلفَ إمامكم؟» قلنا: نعم، نفعل هذا يا رسول الله. قال: «لا تفعلوا إلا بفاتحةِ الكتاب؛ فإنه لا صلاةَ لمنْ لم يقرأ بها»(١).

ومعنى (بسم الله الرحمن الرحيم): استعينوا باسمه؛ لأن المؤمن يعتقد أنْ لا نجاحَ له إذا شرعَ في أيِّ عمل من أعماله إلا أن يذكرَ الله تعالى، ويطلبَ العونَ رجاءَ أن يوفقه لإتمام عمله، فيقول: (بسم الله الرحمن الرحيم).

و(الله): هو اسمٌ لذاتِ مَنْ ليس له سَمِيٌّ ـ جل جلاله ـ.

و(الرحمن): صفة له سبحانه، وصفاتُه كثيرة، ومعنى (الرحمن): الذي عَمَّتْ رحمتُه الإنسانَ والحيوان، والبَرَّ والفاجر، والمسلمَ والكافر في هذه الدنيا، يرزقُهم، ويمدُّهم بالحياة وأسبابِ النعمة.

و(الرحيم): الذي كَمُلَت رحمتُه، فلا ينسى خلقَه، ولا يغفل عنهم طرفةَ عين.

إن بعض الناس يُذنب، ويعترف بذنبه، ويقول: إن الله غفور رحيم، ورحمته وسعتْ كلَّ شيء.

والحقُّ أن رحمة الله وسعتْ كل شيء، وعَمَّتْ كلَّ مخلوق في الدنيا، ولكنه كتبها في الآخرة للمتقين؛ الذين يتبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، يخافون عذاب الآخرة، فقال: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٣)، وأبو داود (٨٢٣)، والترمذي (٣١١)، وقال: «حديث حسن».

﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾[الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وقال أيضاً: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: إن لله ﷻ علينا من الفضل الجزيل مالا يُحصى؛ فقد أوجدنا من عدم، حتى خرجنا إلى هذا العالم ضعافاً لا نقوى على أي حركة، فأحنَّ علينا مَنْ يرحمنا ويغذينا، حتى ربَّى أجسامَنا بما خلقه لنا في هذه الأرض من مآكلَ ومشاربَ، ومساكنَ وملابسَ، ثم ربَّى عقولنا، فبعد أن كنا لا نفهم ولا نعقل، صيرنا بفضله عقلاء، نعرف كيف نتقي الشر، وندفع عنا الضر، وربَّى أرواحنا، وهذب نفوسنا، فأرسل لنا رسلاً علمونا ما نجهل، وأخرجونا بأمره من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الباطل إلى الحق، وأنزل عليهم كتباً فيها الحكمةُ والهداية، والنورُ الحق، عرفنا منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكلف رسلَه أن يشرحوها لنا قولاً وعملاً، وجعلها بعد وفاتهم قانوناً في أرضه يحكم عبادُه به فيما فيه يختلفون.

فهل ننسى هذا الذي ربّى عقولنا وأرواحنا وأجسامنا، وهذبها، وأمدنا بكل شيء في الحياة، ونشكر غيره، أو ندعو غيره؟! أو هل نشرك معه معبوداً من خلقه؟! لا والله! إنّ هذا لظلم عظيم. فالحمد لله وحده، والشكر له على نعمه الجسام، وإن غاية حمده وشكره في أن نكون ممتثلين لأوامره، متباعدين عن نواهيه، ساعين في إصلاح

أنفسنا وأهلينا وأولادنا، داعين إليه وإلى نبيه ﷺ، باذلين الخير حسب استطاعتنا لإخواننا المسلمين وللبشرية بالدعوة لهذا الدين، فإذا فعلنا ذلك، كنا لله حامدين، ولفضله شاكرين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وقد تقدم تفسير هذين الاسمين الكريمين في البسملة.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: ويومُ الدين هو يومُ النشور الذي يَبعث فيه الله ـ **جل جلاله** ـ الأولين والآخرين؛ ليجازي فيه المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته؛ فينتقم فيه من الظالمين، ويحسن الجزاء للعادلين العاملين، وهذا اليوم أمرُه بيد الله، وهو الحكم العادل لا يظلم مثقال ذرة، فلا ينفع الإنسانَ مالُه ولا أولادُه، ولا يفيده كذبُه واحتياله، ولا يغنيه صحبُه وخلانه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾[الانفطار: ١٩]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤ ـ ٣٧]؛ فلا الملائكة المقرّبون تنفع، ولا الأولياء الصالحون تشفع، وما للظالمين من حميم يُرجى، ولا شفيع يُطاع، ولا ينفع الإنسانَ يومئذ إلا إيمانٌ صحيح، وعمل صالح.

هذا اليوم أمرُه بيد الله، هو مالكه وحدَه، ينادي فيه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فيجاب هذا النداء بكلمة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾[غافر: ١٦].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يعني: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والله ﷻ بيده أمر أُولانا وأُخرانا، وأرزاقنا وأعمارنا، وخيرنا وشرنا، وحسابنا وعقابنا، وما أعد لصالحنا من نعيم وجنان،

وما أعد لطالحنا من عذاب ونيران؛ فلا يليق بنا ما دمنا نعرف ذلك أن نخضع لغيره، ونتذلَّلَ لمن لا يغني عنا من الله شيئاً، بل الواجبُ علينا أن نخصَّه بالعبادة والتقديس دونَ سواه؛ فنصلي له مخلصين، وننفق أموالَنا في سبيله صادقين، وندعو لدينه مجتهدين، وننهى عن مخالفته طائعين.

وإنّ الله تعالى حَرَّم على خلقه أن يعبدوا سواه، ويتذللوا لغيره، وفرض عليهم أن يُخَلِّصوا أنفسَهم من كل رِقٍّ إلا لَهُ، وأن يَفُكُّوا رقابَهم من كل غُلٍّ إلا ما قَيَّدَهم به، وأَلاَّ يكونوا أذلاء في هذه الحياة؛ لأنه لا يليق بالمسلم أن يكون ذليلاً لغير دينه الذي أمره به ربُّه، فلا يذل لغريب عنه يستحلُّ ماله، ويستحلُّ دمَه وعرضَه؛ لأن الله ﷻ قال للمسلمين: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾[الحج: ٧٨]؛ أي: فَضَّلَكم، فيجب على المسلم أن يرعى هذا الفضل.

وكما نخصّه سبحانه وتعالى بالعبادة، نخصّه وحدَه بالاستعانة؛ فإنه قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦]، والرسول ﷺ يقول: «إذا سألتَ، فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ، فاستعنْ بالله»[١].

وكثير من الناس يستعينون بالأولياء، أو الأنبياء، أو الملائكة، فينذرون لهم النذورَ لقضاءِ حوائجهم، وتفريجِ كربهم، وهذا شركٌ صِرْف؛ لأن هذا الوليَّ وهذا النبيَّ قد انقطع حبلُ حياته، وأصبح رهينَ أعماله، لا يملك لنفسه خيراً ولا نفعاً؛ فكيف يملكه لغيره؟! وهذا

(١) رواه أحمد عن ابن عباس، والحديث طويل. (المؤلف). [أخرجه أحمد (١/ ٣٠٣)، والترمذي (٢٥١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»].

النبيُّ أو الوليُّ لا يرضى بمعصية الله ﷻ، ولا يحبُّ أن يُذكر ويُنسى خالقُه، ولا يود أن يُنادى ويُغفل عن ربه، وإنما يحبُّ أن يكون الناس مثلَه يتقربون لخالقهم بما أمكنهم من إيمان صحيح، وعملٍ صالح.

[روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: أنه قال: «يا عبادي! إنّي حرّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرماً، فلا تَظالَمُوا، يا عبادي! كلّكم ضالّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم، يا عبادي! كلّكم جائعٌ إلا من أطعمتُه، فاستطعموني أطعِمْكم، يا عبادي! كلّكم عارٍ إلا من كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عبادي! إنّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرْ لكم، يا عبادي! إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أنّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحرَ، يا عبادي! إنّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أوفّيكم إيّاها؛ فمن وجدَ خيراً، فليحمدِ اللهَ، ومن وجدَ غيرَ ذلك، فلا يلومنّ إلا نفسَه»[1]].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).



٤٤ ـ تفسير بقية الفاتحة

قال الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

يجب علينا أن نستعين بالله في طلب الهداية والتوفيق للحقِّ، ونطلبَ منه أن يرشدَنا إلى الطريق المستقيم: طريقِ السنةِ والجماعةِ المستحقين للجنة، وما طريقُهم إلا كتابُ الله الذي فيه شفاءٌ لما في الصدور من الأمراض الأخلاقية، والأسقام النفسانية. وهدايتنا إليه هو المنهج الذي نَـنْشُدُه، والذي يوصلنا إلى سعادة الدنيا؛ بأن يخلِّصنا من أمراضنا الاجتماعية، وسعادةِ الآخرة؛ بأن يوصلنا إلى رضا الله ونعيم الآخرة.

والقرآن هو كتابٌ أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ لينظم علاقاتِ الناس بخالقهم عن طريق العقيدة والعبادات، وبأنفسهم عن طريق الأخلاق والمطعومات والملبوسات، وببعضهم عن طريق المعاملات والعقوبات، فإذا انتظمت هذه العلاقات، كانت الهداية التي نطلبها من الله تعالى إلى الصراط المستقيم مضمونة.

وإنّ القرآن الكريم هو القانون الذي وضعه للمسلمين مَنْ لا يُبَدَّلُ القولُ لديه، وليس فيه نقصٌ فيزاد، ولا عيبٌ فيغير، ولا منقصةٌ فتنبذ، وقد قال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٩].

كثيرٌ من المسلمين يظنّون أن كلمة (أنا مسلم) تكفيه إسلاماً، وأن كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ـ مجرّدةً عن كل عمل ـ تُدخله الجنة، وبعضهم يعتقد أن إيمان أبيه يُخلصه من عذاب الله، وأن تلك الكلمةَ وإيمانَ الأب يُنَجِّيانه من عقاب الآخرة، وبعضُهم يظن أن التحاقَه ببعض الأضرحة، أو انتسابه لأحد الأولياء لابد وأن يخلصه من نارٍ وقودُها الناسُ والحجارة، وأن ذلك هو الصراطُ المستقيم، ولكن حكم الله لا يُغَيَّر، وقولَه لا يُبَدَّل، وما المؤمنُ حقيقةً إلا مَنْ وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤].

وما الإيمان إلا قوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥].

والصراطُ المستقيم الذي نطلب من الله الهدايةَ إليه: صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو طريقٌ بين طريقين، من سلك أحدَهما، غوى، ذلك الطريق كتابُ الله، وسنة رسوله، كما قال ﷺ: «تركتُ فيكم شيئين لن تَضِلوا بعدَهما؛ كتابَ الله، وسنّتي»(١).

وهو طريقُ مَنْ تعلَّمَ هذا الدينَ من مصدره، ووعاه فعمل بما علم، واتّخذ من القرآن إماماً ومنهجاً، واتخذ من سنة الرسول هادياً ومعلماً: فهذا صراط الذين أنعم الله عليهم.

أمّا الطريق الثاني: فهو طريقُ المغضوب عليهم، وهم مَنْ تعلموا هذا الدين وتركوا العملَ به، وأَمروا بالخير وجانبوه، وأرشدوا الناس ونَسُوا أنفسهم، وارتكبوا المنكرَ وأكلوا الحرام، وزَكَّوا أنفسَهم قولاً، ولم يزكوها عملاً، ثم عدوا من كبار العلماء الثقات، وظنوا أن علمهم سينفعهم، وهو لا شكَّ مهلِكُهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

والصنف الثالث: الضالّون، وهم قوم اتبعوا قوماً أضلوهم من أولئك الذين ذكرنا وصفَهم في المغضوب عليهم، أو أنهم اتبعوا رؤوساً جهالاً ممن أنبأنا عنهم النبيُّ ﷺ بقوله: «إنّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه من العِباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء، حتّى إذا

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة. (المؤلف). [سبق تخريجه في (ص٣٠٢)].

لم يُبْقِ عالماً، اتّخذَ الناسُ رؤوساً جهالاً؛ فسئلوا، فأَفْتَوا بغير علم؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا» رواه الشيخان عن ابن عمرو[1].

أو أنّهم عملوا على جهالة، فعبدوا الله بما لم يشرعْه الله، وتقرّبوا إلى الله بما يبعد عن طريق الهدى، وضلّ سعْيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

روى أبو داود عن العِرْباض بن ساريةَ، قال: وعظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً وجلَتْ منها القلوب، وذرفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظةُ مودّع؟ فأوصِنا، قال ﷺ: «أُوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبدٌ، وإنّه من يَعِشْ منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي، وسنّةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيّين من بعدي، عَضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»[2].

ثم يوصينا ﷺ، فيأمرنا بطاعته ما دام حياً، وإذا غاب عن أعيننا، فلنتمسكْ بالكتاب؛ فإن فيه النجاةَ من المهلكات.

روى الطبراني عن أبي أيوب الأنصاري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو مرعوب، فقال: «أطيعوني ما كنتُ بينَ أَظْهُرِكُمْ، وعليكم بكتاب الله، أَحِلُّوا حلالَه، وحَرِّموا حرامَه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢). وقال الترمذي: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٥)، وهو صحيح؛ كما في «صحيح الترغيب» (٤٢).

وبالجملة: فليس من الصراط المستقيم أن تَهيم في أودية الضلال، أو أن تستكبر على الحق، أو أن تُعرض عنه وأنت به عليم، أو أن تضع في سبيله العقبات والعراقيل، وليس من الصراط المستقيم أن تقف أمام دينك موقفَ الضعف والاستكانة؛ فلا تنصره، ولا تؤازره: مكتفياً بأنَّ «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، وأن «المقادير تجري في أعنتها»، وأن «عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ»، وبأمثال هذه الكلمات التي استعملها الناسُ على غير وجهها، وأصبحت في عصرنا هذا ـ عصرِ الضعفِ والاستسلام ـ من آيات الإيمان والإسلام.

إنّ الصراط المستقيم ـ كما قلنا ـ وسطٌ بين طرفين: لا جُبْنٌ ولا تهوُّر، ولا إسراف ولا تقتير، ولا إسراع ولا تبلُّد، وإنّما هو قَوامٌ بين ذلك: استقامةٌ في الأمور، وإصلاح النفوس، فهو في العمل اعتدال لا إفراط فيه ولا تفريط؛ فمن كلّف نفسه ما لا يطيق، أو حرّم على نفسه زينة الله التي أخرج لعباده، أو حَرَمَ نفسه من الطيّبات من الرزق، ليس على الصراط المستقيم. ومن تحلّل من جميع الواجبات، أو استباح الفواحش ما ظهرَ منها وما بَطَنَ ليس على الصراط المستقيم، وهكذا الإسلام في عقائده وأخلاقه وأعماله هو الصراط المستقيم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦١].

وبعد: فلما كانت سورة الفاتحة قوامَ الصلاة، اختلف الفقهاء في

فرضية قراءتها، وأصحابُ الحديث يوجبونها؛ فقد روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «مَنْ صلّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمّ القرآن، فهي خِدَاج خِدَاج خِدَاج، غيرُ تَمام»؛ فقيل لأبي هريرة: إنّا نكون وراء الإمام، فقال أبو هريرة: اقرأها، فإني سمعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله ﷻ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله ربِّ العالمين، قال الله ﷻ: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: الرحمنِ الرحيم، قال الله ﷻ: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالكِ يومِ الدين، قال: مجّدني عبدي، وإذا قال: إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين، قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالّين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»(١).

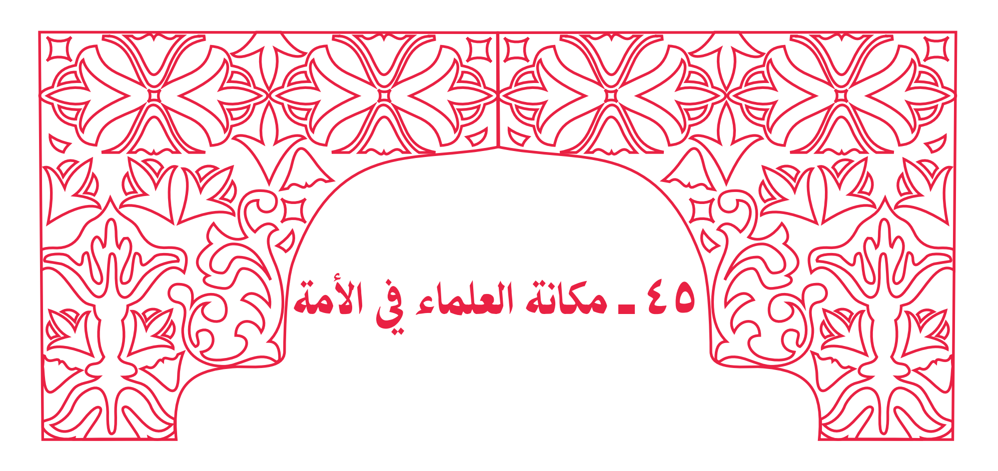
وروى الشيخان عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أَمَّنَ الإمامُ، فأمّنوا؛ فإن من وافقَ تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»(٢).

لهذا يُسنّ للمأموم وللإمام أن يقولا: آمين بعدَ سكتة قصيرة، ومعنى آمين: اللّهم اسمعْ واستجب.

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٧)، ومسلم (٤١٠).



٤٥ ـ مكانة العلماء في الأمة

روى الشيخان عن عبدالله بنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «إنّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه من صدور العِباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماء، حتّى إذا لم يُبْق عالماً، اتّخذ النّاسُ رؤوساً جُهّالاً؛ فسُئلوا، فأَفْتَوا بغير علم؛ فَضَلّوا، وأَضَلّوا»[1].

فالله ﷻ لا يُنسي العالمَ علمَه، وإنما يقبضه إليه من غير أن يكون له من يخلفه في علمه وتقواه، حتى إذا انتهى العلماء، ولم يبق مَنْ يقوم مقامهم، اضطرَّ الناسُ أن يتخذوا جهالاً محلَّ أولئك العلماء، يأبون أن يقول أحدُهم: لا أدري؛ فإذا ما سئلوا، أجابوا حسب هواهم ـ والعلم لا يكون حسب الهوى ـ، فضلوا بالجواب الجاهل، وأضلوا مَنْ سألَ.

وهذا هو الواقع؛ إذ إنّ العلماء ـ وأعني بهم علماءَ الدين الذين كانوا نور الدنيا، وكانوا سراجاً يستضاء بهم في ظلمات هذه الحياة ـ

(١) سبق تخريجه في (ص٣٤٦).

قد قُبضوا، ولم يبق من يخلفهم، فكلُّ مَنْ مات منهم بقيت ثلمتُه مفتوحة لا يوجد من يسدُّها، والناس جاهلون، قد أهملوا واجبَ التعلم، فأساؤوا إلى أنفسهم، وأهملوا واجبَ القيام بتعليم مَنْ يعلمهم، أو يفتيهم عند الحاجة، فأصبحنا بهذا الإهمال في بيداءَ في ليلة ظلماء ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك: ٢٢].

وروى الطبراني عن الحسين بن علي، وابن عباس، وابن مسعود، والبيهقي عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلّ مسلم»(١).

قال العلماء: إنّ الفرض في طلب العلم هو مالا يسع البالغَ العاقلَ جَهْلُه؛ كفقه الصلاة والصيام، وفقهِ الزكاة على من عندَه مال، وفقهِ البيع والشراء للتاجر، وفقهِ الحج على من استطاع إليه سبيلاً، وقال البيضاوي ـ رحمه الله ـ: العلمُ بوحدانية الله ونبوةِ رسله، وكيفية الصلاة والصيام، فرضُ عين على كل مسلم عاقل.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبزار (٩٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في «الأوسط» (٩)، وفي «الصغير» (٢٢) من حديث أنس، والطبراني في «الكبير» (١٠٤٣٩)، وفي «الأوسط» (٥٩٠٨) من حديث ابن مسعود، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٣٠)، (٤٠٩٦) من حديث الحسين بن علي، وابن عباس، والطبراني في «الأوسط» (٧٥٦٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٦٧) من حديث أبي سعيد، وقال المزي؛ «هذا الحديث روي عن طرق تبلغ رتبة الحسن». انظر: «نظم المتناثر» (١٨).

والآن، وقد خلت بلادُ المسلمين من العلماء، أو كادت، وذهب بذهابهم فقهُ الدين: حلت أخطارٌ ومخافاتٌ تنغِّصُ العيش. والقلوبُ إن لم تُسق بماء العلم، لا تكون موطناً للطهارة والعبادة، ولا مغرساً للأخلاق الفاضلة، ومَنْ لا علمَ عنده، لا خيرَ فيه؛ لأنه لا يعرف كيف يتقرب إلى معبوده، ومن عمل في غير علم، كان ما يفسده أكثرَ مما يصلحه.

وروى الشيخان عن معاوية ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من يردِ اللهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين»[1].

وروى الترمذي عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم»، ثم قال: «إنّ الله وملائكتَه وأهلَ السماوات والأرض، حتّى النّملةُ في جُحْرِها، وحتّى الحوتُ ليصلّونَ على معلمي الناسِ الخيرَ»[2]؛ ذلك أن العلمَ هو الوسيلة لإصلاح الدارين، فالإنسان يحيا في ظلمة حالكة، والعلمُ نور، والسير في الظلام بلا نور وسيلةٌ إلى التعثر والهلاك، فالعلم أمر ضروري لكي يهتدي به الإنسان في سيره، حتى ينجو مما يحيط به من هلاك.

روى أبو داود، وابن ماجه، والحاكم عن عبدالله بنِ عمرِو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «العلمُ ثلاثة، وما سوى

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وقال: «حديث حسن غريب».

ذلك، فهو فضلٌ: آية مُحْكَمَة، أو سنة قائمة، أو فريضةٌ عادلة»[1].

وقد ثبت أن العالِم يجري عملُه له بعد موته كما كان حيّاً إذا ترك أثراً يُنتفع به بعد موته، فهو حيٌّ في جوار الرحمن، تسرحُ روحُه في رياض الجِنان خالداً فيها أبداً. قال رسول الله ﷺ: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ، انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» رواه مسلم، وغيرُه عن أبي هريرة[2].

وقد ثبت أن الله ﷻ يرفع الذين أُوتوا العلم درجاتٍ بفضل علمِهم، وعملِهم بما علموا، وبفضل تعليمهم، وإرشادِهم للناس؛ يرفعهم على مَنْ سواهم في الدنيا بالشرف، وعلو المنزلة والمكانة في القلوب، ويرفعهم في الآخرة بالنعيم. ذلك إذا حَسُنت نياتُهم، وقنعوا بما آتاهم الله من دنيا، ورغبوا عما في أيدي الناس من حُطام، واحترموا أنفسَهم، فلم تُنتهك حرماتُ الله أمامَ أعينهم، ولم يُدس دينُ الله بين أيديهم، ولم يسمحوا ببدعة تُرتكب بين سمعهم وبصرهم؛ فإذا فعلوا ذلك، كان الله معهم، وصدق الله لهم وعدَه بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

أخرج الترمذي، وأبو داود، وغيرُهما عن أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سلكَ طريقاً يبتغي به علماً،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، والحاكم (٧٩٤٩)، وضعّفه الذهبي في «تلخيص المستدرك» (٤/ ٣٦٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٧٤).

سلكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ تضعُ أجنحتَها رِضا لطالب العلم، وإنّ العالمَ ليستغفرُ له مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض، حتّى الحِيتانُ في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثةُ الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهما، وإنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه، فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ»[1].

وكفى العالمَ مدحاً قولُه ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾[فاطر: ٢٨].

وورد في الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه قال: «العالمُ أفضلُ من الصائمِ القائمِ المجاهدِ، وإذا ماتَ العالم، ثُلِمَ في الإسلام ثلمةٌ لا يسدّها إلا خلفٌ منه»[2].

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «علماءُ هذه الأمّة رجلان: رجلٌ آتاه الله علماً، فبذله للناس، ولم يأخذْ عليه طمعاً، ولم يشتر به ثمناً؛ فذلك تستغفر له حيتانُ البحر، ودوابُّ البر، والطيرُ في جوف السماءِ، ورجلٌ آتاه الله علماً، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذَ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً؛ فذلك يُلْجَم يومَ القيامة بلجام من نار، وينادي منادٍ: هذا الذي آتاه الله

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وحسّنه الترمذي. وانظر: «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٨٥٦) بإسناد منقطع ضعيف.

علماً، فبخلَ به عن عبادِ الله، وأخذَ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً، وكذلك حتى يفرغ الحساب»[1]. والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦].



(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٨٧) بإسناد ضعيف. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٩).



٤٦ ـ واجب العلماء

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

وما كان المؤمنون لينفروا كافّة إلى الجهاد، ولكن يجاهدُ من كلِّ فرقة طائفةٌ، والباقون يُقيمون مع رسول الله ﷺ ليتعلموا ما أنزل الله عليه؛ ليتفقهوا في الدين، حتى إذا رجع إخوانهم من الجهاد، كان هناك مَنْ يبلغهم بما أنزلَ الله على رسوله ـ فربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ ـ لعلهم يحذرون ما يجبُ اجتنابُه.

لكلّ دين من الأديان رجالٌ يعرفون أسراره وحكمَه، يقال لهم: العلماء، أو الفقهاء، ووظيفةُ هؤلاء إرشادُ العامة إلى حقيقة دينهم، وبيانُ ما أحل الله لهم فيه، وما حرم عليهم.

ونحن ـ المسلمين ـ نعتقد أن ديننا خيرُ الأديان، وأن نبينا خاتم الأنبياء، وأنه لا دينَ ينسخ ديننا، وأن علماءنا القائمين بواجبهم نحو دينهم ورثةُ الأنبياء، ومصابيح الأمة: يعتز هذا الدين إذا أعزوه،

ويُنصر بهم إذا نصروه، وأوّلُ واجبِ هؤلاء العلماء: إرشادُ الجاهل إلى أسرار دينه بالوعظ العام كما كان يفعلُه السلف؛ فيعينون لهم حلقاتٍ في أوقات معينة يلقون فيها الدروسَ المختصرة أو المطولة، يرشدونهم فيها لما أُحِلَّ لهم، وما حُرِّمَ عليهم.

ومن واجبهم أيضاً: الدعوةُ إلى الدين الحنيف، فقد كان السلف الصالح يشدون الرحال إلى البلاد النائية لينشروا دينهم، وليدعوا إليه الغريبَ عنه، وإذا كانت الدعوة واجبة على كل مسلم، فهي على العالمِ أوجبُ.

ومن واجبهم أيضاً: التّعفُّفُ عما في أيدي الناس، واتقاءُ الشُّبَه، والابتعادُ عن مواطن الزلل، وهي، وإن كانت لازمةً لكل مسلم، إلا أنها في أهل العلم ألزمُ؛ لأنهم متى حاموا حولها، احتقرهم العامة، وانحطت منزلتهم في قلوبهم.

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «علماءُ هذه الأمّة رجلان: رجلٌ آتاه الله علماً، فبذله للناس، ولم يأخذْ عليه طمعاً، ولم يشتر به ثمناً؛ فذلك تستغفر له حيتانُ البحر، ودوابُّ البر، والطيرُ في جوف السماء، ورجل آتاه الله علماً، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً؛ فذلك يُلْجَم يومَ القيامة بلِجَام من نار، وينادي منادٍ: هذا الذي آتاه الله

علماً، فبخلَ به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعاً، واشترى به ثمناً؛ وكذلك حتّى يفرغ الحساب»[1].

إنّي لأعجب من حالة علمائنا وحَمَلَة الدين فينا في هذا العصر، وميلِهم إلى العزلة، وإخلادِهم إلى الخمول، وقد ندر فيهم وجودُ ذلك العالمِ النشطِ الذي أعطاه الله من العلم ما يجب عليه أن ينشره بين أفراد الأمة الإسلامية؛ ليوضح لهم حقيقةَ دينهم، وما يجب عليهم فعلُه، وما يجب عليهم تركُه؛ وكأنهم نسوا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

إنّي لأعجب، وحقّ لغيري أن يَعجب من حالتهم هذه، مع اعتقادهم أن الدعوة إلى الخير فرضُ عينٍ عليهم دونَ غيرهم من الأمة؛ لأنهم علموا فكتموا، والله ﷻ أمر نساء نبيه أن يبلّغن ما علّمهنّ رسولُ الله ﷺ؛ فقال لهن تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٤].

وكان رسول الله ﷺ أتقى الأتقياء، وأشرفَ الناس على الإطلاق، لم يعتزل أحداً، ولم يتكبّر على دعوة مشرك، ولم يمتنعْ من دعوة كافر،

---

(١) سبق تخريجه في (ص٣٥٤).

ولا نصيحة عاصٍ، وإنّما كان يرشدُ هذا، وينصحُ ذاك، ويعظُ الجميع.

فواجبٌ على المسلمين وورثةِ الأنبياء خاصّة أن يقتدوا بهذا النبي الكريم الذي بايعه أصحابُه على السمع والطاعة، والنصح لكلِّ مسلم، وقد اتبع الصحابة والسلفُ الصالحُ رسول الله ﷺ في هَدْيِه هذا؛ فكان أحدُهم يقسم أوقاته للعبادة، ولطلب العلم، وللعمل في كسب العيش، ولإرشاد المسلمين عامتِهم وخاصتِهم، لا يرده عن ذلك تقشفٌ، ولا رهبنةٌ، ولا وسوسةٌ، ولا نفورٌ من الناس، وإنما دينه يفرض عليه أن يكون مع الناس وللناس.

في كثير من بلاد الإسلام التي دبّت فيها روحُ المدنية الغربية الكافرة ترى علماءَ الدين قد ألفوا الوحدة، واستولى عليهم اليأس؛ لأنهم رأوا أمتهم مالت عن الدين، واكتفت به اسماً لا عملاً، وقد نصحهم بعضُهم، فأبوا، ثم يئسوا، وقد كان خيراً لهم من أن يعتزلوهم أن يجادلوهم بالحسنى، ويدحضوا أقوالهم بالحجج، ويبيّنوا لهم مضارّ سيرهم وسيرتهم، ويظهروا لهم محاسنَ دينهم، وأنهم لا خيرَ فيهم إن لم يتمسّكوا بكتاب ربهم، وأن في كتاب ربهم كلَّ ما يريدون من مدنيّة وعزّة، وحكومة وسلطان، وأن هذه المدنيّة والسلطان ليست كمدنيّة الغرب وسلطانه: مدنية مائعة، وسلطان جائر، وأن مدنية القرآن مدنية قوة وجلادة ورجولة، وسلطانه سلطان عدل ورفق.

وقلّ أن ترى في علمائنا اليومَ ذلكَ العالمَ المتصفَ بهذه الصفة، والممتثلَ أمرَ القرآن بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[النحل: ١٢٥]، وهذا هو عين الجهاد، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

كان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنْ لا مستحيلَ على العزيمة والصبر، وكان الأَوْلَى بهم أن يتفقوا على إصلاح الأمة بما أمكن، ويتحملوا ما ينالهم من الأذى بصبر وإرادة قوية وهمة عالية، وأن يتواصوا بالصبر حتى يَنْجوا من الخسران الذي أعده الله للإنسان.

من أين يعرف العامةُ صلاتَهم وصيامَهم وزكاتَهم وحجَّهم؟ من أين يعرفون بيعَهم وشراءهم، وما حرم فيه عليهم، وما أحل لهم إذا بخل عليهم طلبةُ العلم بعلمهم، ولم يتقدموا بأمرهم ونهيهم وإرشادهم إلى سبيل دينهم؟ ليت شعري أتكون التّبعةُ على العامّة الذين لم يطلبوا من العلماء الهدايةَ والرشادَ، أم على طلبة العلم الذين لم يبلِّغوا أمرَ ربهم، ولم ينذروا قومهم؟

ليست طريقةُ الأنبياءِ الانزواءَ في المساجد، ولزومَ المساكن، وإنما طريقتُهم الخروجُ إلى مجتمعاتِ الناس، والدعوةُ إلى الخير، ومقاومةُ الصعوبات، والاستهانةُ بالمخاوف، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده! لتأمُرُنّ بالمعروف، ولتنهَوُنّ عن المنكر، أو

ليوشِكَنّ اللهُ أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم»[1].

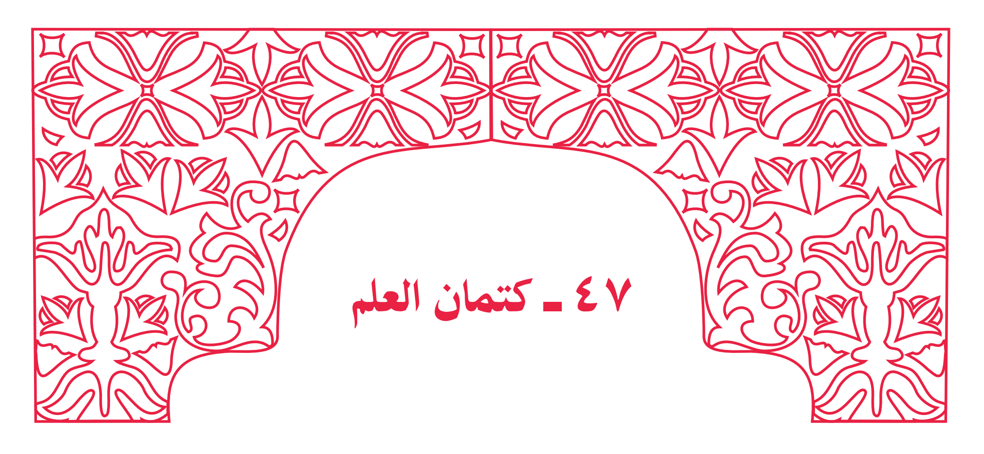
وبما أن العلماء ورثةُ الأنبياء، فواجبُ الورثة القيامُ بما تركه لهم مورّثوهم.

يجب أن يكون واجبُ العلماء حبَّ الواجب، وإطاعةَ الله، وإرضاءَ الضمير، ولا يكون ذلك إلا بالدعوة إلى الخير، أما الخمولُ، وأما الانزواء، وأما لزومُ المسكن، فليس هذا من شأن حَمَلَة العلم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[الأحزاب: ٢١].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأنعام: ٣٤].



(١) رواه أحمد، والترمذي عن حذيفة بن اليمان. (المؤلف). [سبق تخريجه في (ص٢٩٨)].



٤٧ ـ كتمان العلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦].

نزلت هذه الآية في أحبار اليهود الذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل، وكانوا يطمعون أن يكون النبيُّ منهم، فلما بُعث، خافوا زوالَ رياستهم، فعمدوا إلى كتمان ما نزل الله من الكتاب عن بعثة نبي قد حانَ حينُه؛ فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة، ويصرفونها عن دلالتها؛ فعاب اللهُ فعلَتَهم هذه، وأنزل فيهم الآياتِ بأن الذين يكتمون ما أنزل الله في كتابه من ذكرٍ صريحٍ على نبوةِ رسولٍ قد آن أوانُ بعثته، ويشترون بهذا الكتمان ثمناً قليلاً من حطام الدنيا لا بقاء له، يؤدي بهم إلى غضب الله، وإلى نار شديدة العذاب، ويوم القيامة

لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.

فهم قد فعلوا فعلَتَهم الشائنةَ؛ فاشتروا الضلالةَ بالهدى، والعذابَ بالمغفرة، فكتموا الحقَّ، وصرّحوا بالباطل، وكتموا الصدقَ، وصرحوا بالكذب؛ فويلٌ لهم، وما أصبرهم على النار!

والله ﷻ نـزَّلَ الكتابَ وحفظَه، وذكر فيه الحقَّ، وبيّن فيه الباطل، والذين اختلفوا فيه؛ فأخفوا حَقّاً ذكره، وأعلنوا باطلاً لم يذكره، واستغلّوا جهلَ الجهال: لفي شقاقٍ بعيدٍ بعدَ ما بين النور والظلام، وفي الحديث: «وما لم تحكمْ أئمّتهم بكتاب الله، ويتحرّوا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسَهم بينَهم»[1].

وإنّ كتمان الحق يبعد عن الحق، ويُضَلِّل عن الطريق؛ فكلٌّ يؤوِّلُ حسب رأيه؛ لأن الحق واحد، والباطل متعدد؛ فالحقُّ هو ما دعا إليه كتابُ الله، والباطلُ ما دعت إليه شتى الأهواء؛ فلهذا كان الذين اختلفوا في الكتاب في شقاق ونزاع، كلٌّ يريد النصرةَ لهواه.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[الأنعام: ١٥٣]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾[الأنعام: ١٥٩].

وكلُّ مَنْ كتم آياتِ الله، وبخل بهدايته على الناس، فقد استحقَّ غضبَ الله، وكلُّ من لبس لباسَ الدين المبتدع، وانتحل ألقابه،

---

(١) رواه الحاكم، وابن ماجه عن ابن عمر. (المؤلف). [سبق تخريجه في (ص١٠١)].

وتحاشى قولَ: (لا أعلم)، استحقَّ ما استحقه الأولون، ولو أنهم فهموا قولَ الله لرسوله ﷺ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[الحج: ٦٧ ـ ٦٩].

إنّ القرآن الكريم لم يكتفِ بالوعيد على الكتمان، بل أمر من يعلم أن يعلِّم الجاهل، وأمر بالوعظ والإرشاد، وتنبيهِ الغافلين، فقال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾[التوبة: ١٢٢]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧]، ولعن أولئك الذين كتموا العلم، ولم يبيّنوه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩].

وقد قال بعض الفقهاء: (إنّ إرشادَ الناس ووعظَهم فرضُ كفاية). لا أقول هذا؛ فإن الله ﷻ أوجبَ على كل من يعلم أن يعلِّم مَنْ لا يعلم، وإذا كان الله قد أخذ الميثاق على كل من أوتوا الكتاب من قبلنا أن يبيّنوه للناس، ولا يكتموهُ؛ فالميثاقُ علينا أولى؛ لأن الله وصفنا بأننا خيرُ أمّة أُخرجت للنّاس، وأوجب علينا تكوينَ أمّة منّا يدعون إلى الخير، ويأمرون الناس بالمعروف، وينهونهم عن المنكر؛ فحينئذ يكون تعليمُ الجاهل وإرشادُ الضال على المسلمِ العالمِ فرضَ عين؛ كلٌّ بحسب علمه.

رُوي أن عليَّ بنَ أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال: «ما أخذَ اللهُ تعالى على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذَ الميثاق على أهل العلم أن يعلِّموا»[1]، وقال أبو هريرة: «لولا أَنْ أخذَ اللهُ تعالى على أهل الكتاب أن يبينوا، ما حدثتكم»، وتلا الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[آل عمران: ١٨٧][2].

وإنّه من العَجَب أن نرى مَنْ ينتسبون إلى العلم تُنتهك حرماتُ الله أمامَ أعينهم، ويُداسُ دينُ الله بين أيديهم، ويرون البدعَ تمحو السنن، والضلالَ يغشى الهدى، ولا ينبضُ لهم عرق، ولا ينفعل لهم وجدان، ولا يندفعون لنصرة الله بيدٍ ولا لسان، وإذا قيل لأحدهم: إنك جاهل أو خامل، أو قيل له: إن فلاناً يَعيب عليك خمولَكَ أو جمودَك، ثارَ واضطرب، وربَّما سهرَ الليالي مفكراً كيف ينتقم!.

روى الخطيبُ، وابنُ عبدِ البر، عن جابر بن عبدالله: أن رسولَ الله ﷺ قال: «العلم علمان: علمٌ في القلب، فذاك العلمُ النافع، وعلمٌ على اللسان، فذاك حجةُ الله على ابنِ آدمَ»[3].

وروى أبو داود، والترمذي عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئل عن علم، فكتمَهُ، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلِجَام من نار»[4].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٦٩)، وصححه الحاكم.

(٢) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٣/ ١٤٥)، ولم أجد من أخرجه.

(٣) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٣٤٦) عن جابر، وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١١٥٠) عن الحسن مرسلاً، وهو ضعيف. انظر: «ضعيف الترغيب» (٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، =

وكثيرٌ من علماء هذا الزمان، أو ممن نَسبوا أنفسهم إلى العلماء يلتمسون بعلمهم عَرَضَ الحياة الدنيا، فيتقربون بعلمهم إلى الحكام، ويتملقون به أربابَ السلطان؛ لعلهم أن يصيبوا عندَهم منزلةً، أو ينالوا به مكانةً، والرسول ﷺ يقول ـ كما رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة ـ : «مَنْ تعلّم علماً مما يُبتغى به وجهُ الله ﷻ، لا يتعلّمه إلا ليصيبَ به عَرَضاً من الدنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامــة»[1]، ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «لا تزالُ هذه الأمّةُ بخير تحتَ يدِ الله وفي كَنَفِه ما لَمْ يُمالِ قراؤُها أمراءَها، ولم يُزَكِّ صلحاؤُها فُجَّارَها، ولم يمارِ أخيارُهم أشرارَها، فإذا فعلوا ذلكَ، رفعَ اللهُ يدَه عنهم، ثم سَلَّط عليهم جبابرتَهم، فساموهم سوءَ العذاب، وضربَهم بالفقر والفاقَة، وملأَ قلوبَهم رعباً»[2].

ومن العلماء قومٌ لا يرون للقرآن الذي هو الدين الإسلامي فائدة تتعلق بمعناه أو العمل به، بل كلُّ فائدته عندهم أن يُتبرك به، ويتعبد بألفاظه، ويُستشفى به من أمراض الجسد، وعيّنوا لكل مرض آية أو سورة، وجعلوا لبعض السور أسراراً في جلب الرزق، وطرد الفقر، ومنـع البلاء، وعقم النساء، إلى غير ذلك، أمـا أمراضُ الروح، وأمـا

= وابن ماجه (٢٦٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصحّحه النووي في «رياض الصالحين» (١٣٩١).

(٢) رواه الحسن البصري في مراسيله. (المؤلف). [أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤) بإسناد ضعيف عن الحسن مرسلاً].

أمراضُ القلب التي أنزل الله القرآنَ شفاءً لها، فلا.

لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حُفظ القرآن، ولم يُنشر كما نُشر القرآن، فجماهيرُ المسلمين حفظوه عن ظهر قلب من القرن الأول حتى الآن، وها هو يتلى في كل مكان: في الأسواق، وفي الشوارع، وفي البيوت، وفي الإذاعات، وفي المجتمعات، في الأفراح، وفي الأحزان، ومع هذا، فإن المسلمين تركوا القرآن؛ لأن العلماء تركوا تبيينه للناس، فلم تغنِ عنهم تلك التلاوةُ شيئاً.

وجمهورُ المسلمين يعلمون أنهم منحرفون عن دينهم، ويعلمون أنهم ليسوا على شيء مما أَمر به ربُّهم، وأن الضلال قد عمّ، لكن الملام على العلماء الذين لم يبيّنوا، ولو بيّنوا كتابَ الله للناس، لقبلوه ـ فالعلماء ورثةُ الأنبياء ـ، وكما أوجب الله تعالى على الأنبياء أن يدعوا عباده إليه، أوجبَ على العلماء دعوةَ الناس إلى الحق، وإرشادَهم إلى ما لهم وعليهم من حقوق وواجبات، والطبيبُ يجب أن يداوي نفسه أوّلاً، حتّى يستطيعَ أن يطبّب الناس.

لهذا كان أوّل واجب العلماء أن يُطهروا نفوسَهم، من أدران النقص، ويُزيلوا ما علقَ بها من خفايا الغِلّ والحقد والاختلاف؛ فمتى صَفَتْ سرائرُهم، وأشرقتْ بنور الإخلاص نفوسُهم، سمعهم الناسُ، ووجدوا لدعوتهم إلى الله ميادينَ واسعةَ الأرجاء، وآذاناً تُصغي لهم أحسنَ الإصغاء، ومن كان مع الله، كان الله معه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨].

روى ابن ماجه عن ابن مسعود: أنه قال: لو أن أهل العلم، صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، لسادوا به أهلَ زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعلَ الهمومَ هَمّاً واحداً ـ هَمّ آخرته ـ، كفاه الله هَمَّ دنياه، ومَنْ تشعّبتْ به الهمومُ ـ أي: في أحوال الدنيا ـ لم يبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هَلَكَ»[(١)].

وروى الدارمي عن الأحوص بن حكيم، عن أبيه، قال: سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن الشر، فقال: «لا تسألوني عن الشرّ، وسلوني عن الخير، لا تسألوني عن الشرّ، وسلوني عن الخير، لا تسألوني عن الشرّ، وسلوني عن الخير، ألا إنّ الشرّ شرارُ العلماء، وإنّ الخير خيارُ العلماء»[(٢)].



(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧)، والبزار (١٦٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٨٨٨) بإسناد ضعيف، ولكن الحديث المرفوع له شاهد من حديث ابن عمر عند الحاكم (٣٦٥٨)، وبه يرتقي إلى درجة الحسن. انظر: «ضعيف ابن ماجه» (٢٥٣).

(٢) أخرجه الدارمي(٣٧٠) عن حكيم بن عمير مرسلاً بإسناد ضعيف.



٤٨ ـ في التحذير من دعاة السوء

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١].

يا مؤمنون! إن تتّبعوا ما يدعوكم إليه أهلُ الكتاب، يردّوكم كافرين، ومثلُ أهل الكفر دعاةُ الكفر والإلحاد والشرك. والكفرُ يوجب الهلاك؛ ففي الدنيا يوقع بينكم العداوةَ والبغضاءَ والفتنَ، وفي الآخرة النار؛ ذلك لأن أهل الكتاب ومَنْ نحا نحوَهم سلكوا سبلَ التأويل في كتبهم، فحرّفوها، أو فسّروها بغير ما شاء الله فيها، وانصرفوا عن هدايتها إلى تقاليدَ وضعوها لأنفسهم؛ فإن سلكتم مسلَكَهم، كفرتم، وإن كفرتم، هلكتم. وكيف تكفرون، وهذا كتابُ الله بين أيديكم تُتلى آياته عليكم، وفيكم رسولُه يبين لكم ما أُنزلَ إليكم من ربكم، ولكم في سنته وأخلاقه أُسوةٌ حسنة، ومن يعتصمْ بالله، ويتمسكْ بدينه، فقد هداه الله إلى صراطٍ مستقيم، لا يضل سالكُه، ولا يُخشى عليه من المهالك.

منذ أن ضَعُف أمرُنا، ودخل الأجنبيُّ بلادنا أكثرَ فينا مدارسَ التبشير بالدين النصراني، وحرص المبشرون على تنصير أبنائنا، ولما أيسوا من ذلك، عمل الاستعمار على إخراج أبنائنا من ديننا، ولو إلى غير دين، فعمد إلى التعليم، ووضع مناهج توافق مشربَه ولا نشعر بضررها، وما هي إلا الضرر.

وممّا عمله في مناهجنا أن جعل دروس الدين بعضَ آيات قرآنية يحفظها الأولادُ من غير أن يفهموا لها معنى، وهذه الآيات لا صلةَ لها بالحياة، وجعل دروسَ الفقه عباداتٍ بلا عمل، وفسرَ الصلاة بالرياضة، والوضوءَ بالطهارة، والصومَ بالصحة، والحجَّ بمؤتمر إسلامي، وجرّد هذه الأركانَ التي بُني عليها الإسلامُ من كونها أوامرَ إلهية يجب علينا أن نُطيعها طاعةً تعبدية إلى أنّها أوامرُ ذاتُ فائدة جسمانية، فجعلَ لتحريم الخمر علةً، وهي أنّها تضرّ بالكبد لسبب الكحول التي فيها؛ إذن فإذا جُردت من الكحول، فهي حلال، وإن أسكرت، وجعل لتحريم لحم الخنزير سبباً، وهو أنه يحمل مكروباً مُمْرِضاً؛ إذن فإذا عُقم، وقُتل المكروب، فقد يُباح.

وأخرج من دروس التاريخ تاريخَ الإسلام بمعناه الصحيح، فلم يذكر في التاريخ عدالةَ المسلمين ورحمتَهم ورِفْقهم، وقُوَّتَهم وشوكتهم وشجاعتهم، ونظامَهم في الحرب والسلم، وسياستَهم للأمة.

وإذا ذكر محمّداً، قال: هو المصلحُ العربيُّ، ولم يقل: محمدٌ الرسولُ، ولا محمدٌ النبيُّ: نبيُّ الإسلام، ومنقذُ الإنسانية من الضلال ﷺ.

وإذا ذكر عمر، قال: هو الديمقراطي، ولم يقل: عمرُ المسلمُ الصحابيُّ الفاروقُ الفاتحُ العادلُ رضي الله عنه.

وإذا ذكر علياً، ذكره بأنه رجل قويٌّ شجاع، ولم يقل: عليٌّ المسلمُ الصحابيُّ، أحبُّ الناس لرسول الله، وزوجُ ابنته فاطمة، الذي جعل اللهُ الحقَّ على لسانه، والذي فقهه ربُّه القضاءَ حيث قال فيه النبيُّ: «أقضاكم عليّ»(١)، عليٌّ القويُّ في الله، الشجاعُ في سبيل الله ـ رضي الله عنه، وكرم الله وجهه ـ.

يريد الاستعمار أن يعلّمنا تاريخَ رجال أوربا الكافرة، ويعلّمنا مناهجَ تُجرّدنا من ديننا، حتى لا يبقى لمدنيتنا في نشئنا من أثر، فإذا لم يفهم النشء من الإسلام شيئاً، ولم يعرفوا من رجال الإسلام أحداً، ولم يقرؤوا عن رجال الدين تاريخاً؛ فأيُّ قيمة تبقى للإسلام عندهم؟ إذاً، لقد نجح الاستعمارُ في تجريد أبنائنا من الدين، وجعل أوامر القرآن كأوامرَ بشريةٍ يجب أن يكون فيها: لماذا؟ ولأنَّ، ومتى كان في الدين موضع جدال، ومتى أصبح موضع جدال، ذهبت هيبتُه.

وقد أوجدت برامجُ تعليم الكافر المستعمرِ جيلاً ما هو بأقلَّ من الاستعمار ضرراً على الأمة الإسلامية، ذلك الجيل الذي رباه الاستعمار ينتسبون إلى الإسلام، ولعل بعضهم يفخر بأنه مسلم، ولكنهم يَعيبون الإسلام أمامَ أبناء الإسلام، ويهزؤون بمن يتمسّك بدينه من المسلمين؛

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٥٦) بإسناد ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة: ٥٧].

قال لي بعضُ مَنْ تلقّوا شهاداتِ المستعمرين: «لو أن الدولة الإسلامية باقيةٌ إلى اليوم، لكنّا لا نزال بين بعير وشاة، نعيش في الفلوات في بيوت الشعر، وعشش القش». وقال آخر: «لماذا تحرم الخمرة ما دامت قد خفّفت كحولها، وأصبح ضررها معدوماً؟». وقال ثالث: «إن محمداً رجلٌ عظيم سبقَ مولدُه زمنَه». ولم يقل: إن محمّداً رسولُ الله، بعثه الله رحمةً للعالمين بشيراً ونذيراً، وأرسله إلى الناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وجعله منبعَ مدنيةٍ لا تزال باقية بقاء الدهر.

هذا نتيجة اعتماد المسلمين في تربية أبنائهم على أعدائهم الكافرين، أو صنائع الكافرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

وإنّ الأمم الغربية هم أحرصُ الناس على إضلال المسلمين، ولن يستطيعوا أن يضرّوهم، وكفاهم أن يضلّوهم عن دينهم أو يدخلوا عليهم الشك فيه.

وهناك قوم اتّخذوا الدين سُلَّماً لتضليلهم، فدعوا باسم الدين، لكنهم لا ناقةَ لهم في الدين ولا جمل، وهذا مصداقٌ للحديث الذي

رواه الدارقطني، والحاكم عن أبي سعيد، وأنس بن مالك، قالا: قال رسول الله ﷺ: «سيكون في أمّتي اختلافٌ وفُرْقَةٌ: قومٌ يحسنون القيل، ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهم، يَمْرُقُون من الدّين مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّة، لا يرجعون حتّى يرتدَّ على فُوقِه، هم شرارُ الخلقِ والخليقة، طوبى لمن قتلَهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيء، من قاتلهم، كان أولى بالله منهم، سيماهم التَّحْلِيق»[1].

إن المسلمين اليوم بين كفرين: رأسماليةٍ غادرة، وشيوعيةٍ جائرة، ولا نجاةَ لهم منهما إلا بالإسلام، والرسول ـ ﷺ ـ يقول: «إني تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به، فلن تضلّوا أبداً: كتابَ الله، وسنّتي»[2]، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، ويقول: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

إنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل محمداً ـ **عليه الصلاة والسلام** ـ بالدينِ القويم دينِ الإسلام، وبين لنا فيه الصراطَ المستقيم الذي إن سرنا عليه، وصلْنا إلى السلامة، وأنزلَ على هذا النبي الكريم ـ ﷺ ـ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٧٦٥)، والحاكم (٢٦٤٨ ـ ٢٦٥٠)، والبيهقي (١٦٤٨٠)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الحاكم عن ابن عباس. (المؤلف). [تقدم تخريجه في (ص٣٠٢)، وهو من حديث أبي هريرة، لا من حديث ابن عباس؛ كما سبق عند المصنف هناك].

كتاباً كريماً، بين لنا فيه أشياءَ، وأحلَّ لنا فيه أشياء، وحرم علينا فيه أشياء، وقال لنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

التيارُ جارِف، والكلُّ آثمٌ بالإهمال: الحاكم، والوالدان، والمجتمع. لقد اعتمد الناس في تربية أولادهم على أعدائهم في دينهم، الذين جاؤوا بخيلهم ورَجِلِهم لا لشيء إلا للقضاء على الدين، حتّى يكون المجتمع لقمةً سائغة لهم؛ فبدلاً من أن ينشأ الولد على دين ينير قلبَه المظلمَ بنور الإيمان، ويتعود لسانه على تلاوة القرآن، ويتمرّن جسمه على طاعة الرحمن بصلاة وصيام، وغيرهما من الطاعات؛ فإذا هو حائر لا يعرف له ديناً إلا أنه مسلم، ولو سئل: ما هو الإسلام؟ لأجاب: لا أدري! إذن فالولدُ ضالٌّ، وقد يقوده ضلالُه إلى الإلحاد.

روى البخاري عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ما من مولودٍ إلا يولَد على الفطرة؛ فأبواه يُهَوّدانه، أو ينصّرانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ، هل تجدون فيها من جَدْعَاءَ، حتّى تكونوا أنتم تَجْدَعُونها»[1].

إنّ رسول الله ﷺ يخبرنا أن كل إنسان يولد كاملاً مستعداً للخير،

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٦)، وهو في «مسلم» أيضاً (٢٦٥٨) بنحوه.

وقد يصرفه عن الخير تربيةُ الآباء، أو تأثيرُ الوسط؛ إذن، فالويلُ لمن أثمَ في تربية الأبناء، وتركَ حبلَهم على غاربهم بيد الأعداء.

إنَّ الرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ وَالأُلَى قَبِلُوهُ يَبْرأُ مِنْهُمُ الإِسْلاَمُ

لاَ خَيْرَ فِي شَخْصٍ يُسِيءُ لِدِينِهِ وَيَقُولُ تَأْيِيدُ الْقَدِيمِ حَرَامُ

وَيقُولُ إِنَّ المُلْحِدِينَ تحَرَّرُوا وَالإِسْتِقَامَةُ وَالصَّلاَحُ ظَلاَمُ

لُعِنُوا وَخَابُوا فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَهَا وَلَهُمْ بِنِيرانِ الْجَحِيمِ مَقَامُ

وَلَقَدْ نَصَحْتُهُمُ وَلَسْتُ بِطَالِبٍ أَجْراً لِنُصْحِي وَالسَّلاَمُ خِتَامُ

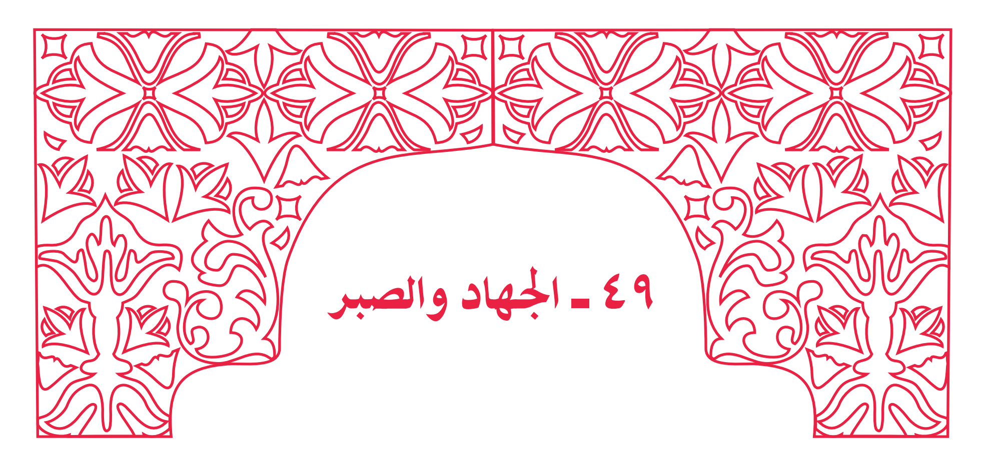
وبعد: فلا نجاةَ للمسلمين مما هم فيه من شر إلا بنهضة إسلاميّة يجددون فيها مجدَ دينهم، ويعيدون لهم به دولته.

أخرج الترمذي عن عمرو بن عوف: أن النبي ﷺ قال: «بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء». فقيل: ومن الغرباء؟ «قال: الذين يُصْلحون ما أفسدَه الناسُ من سُنّتي، والذين يُحيون ما أماتوه من سنّتي»[1]. ويقصد ﷺ بسنّته: الطريقةَ التي كان عليها هو وأصحابه.

(١) سبق تخريجه في (ص٣٣٥)، وأنه عند مسلم (٢٣٢) من حديث أبي هريرة، ولكنه دون الزيادة: «فقيل: ومن الغرباء؟...» إلخ، وهو بهذه الزيادة ضعيف.
تنبيه: لم أجد عند الترمذي ولا غيره الشطر الثاني من الزيادة: «والذين يحيون ما أماتوه من سنتي»؛ فلعل المؤلف زادها على سبيل الشرح، أو أخذها من بعض كتب الوعظ؛ فقد ذكرها الغزالي في «الإحياء» (١ / ٤١). والله أعلم.

والحمدُ لله أولاً وآخراً، ونسأله أن يجعلنا من الغرباء الذين يُصلحون ما أفسده الناس من دينهم، ويحيون ما أماته الناسُ من سنة نبيهم.

❑ ❑ ❑



٤٩ ـ الجهاد والصبر

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

خاطب الله المؤمنين من عباده بأن أفضلَ التجاراتِ المنجيةِ من عذاب الله ونقمته: هي الجهادُ في سبيله بالنفس والمال لإعلاء كلمة الإسلام، وأن ذلك أعظمُ سببٍ لرضاه؛ فبه يُغفر الذنب، وبه يدخل العبدُ جناتٍ نعيمُها دائمٌ لا يحول ولا يزول، ولا صخبَ فيها ولا نَصَبَ، ولا ضررَ ولا كَدَرَ، ولا شقاءَ ولا بلاء؛ أنهارُها جارية، وظلالُها وارفة، ومساكنُها طيبة، وعيشتُها راضية هنيّة، والفوزُ فيها عظيم، وفوق هذا النعيم شيءٌ تحبونه أيها المؤمنون؛ ذلك هو نصرُكم في الجهاد على الأعداء، وفتحٌ قريب لكم، وبشرى من نبيّكم بأن جند المؤمنين إذا أخلصوا في الجهاد نُصِروا.

روى الشيخان، والترمذيُّ عن جابرِ بنِ عبدِالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرتْ بالرعب مَسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً؛ فأيُّما رجلٍ أدركَتْه الصلاةُ، فَلْيُصَلّ، وأُحلّت ليَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبعث إلى قومه خاصّة، وبُعثت إلى الناس عامّة»[1]. وهذه بشارة من المصطفى ـ ﷺ ـ إلى جيش الإسلام إذا صدقتْ نيته، وجاهد لله، وفي سبيل الله لرفعة الإسلام، متى سار، سبقَه الرعبُ إلى قلوب الأعداء مسيرةَ شهر كامل، وهذا ما كان عليه النبي ـ ﷺ ـ بعدَ بدر، وما كان عليه الخلفاء الراشدون في فتوحهم بفارس، والروم، وغيرهما، والله ﷻ بين لنا أن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٩].

والجهادُ في النفس أنواع:

فمنها: الدعوةُ إلى الله تعالى، وبها بُعث الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾[النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣].

ومنها: كلمةُ الحقِّ يقولها المسلمُ في مواطن الظلم لردِّ حقٍّ إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١).

صاحبه، أو دَرْءِ مظلمَة، أو أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، وقد سُئل النبي ﷺ عن أفضل الجهاد، فقال: «كلمةُ حَقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ»[1].

ومنها: الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر بصورة عامة، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٧١]، وروى مسلم عن تميم الداري، عن النبي ﷺ: أنه قال: «الدينُ النصيحةُ ـ ثلاثاً ـ»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم»[2].

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ بعثَه اللهُ في أمة قبلي إلا كانَ من أمّته حواريّون وأصحابٌ يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثمّ إنها تَخْلُفُ من بعدِهم خُلُوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون؛ فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمن، ومن جاهدَهم بقلبه، فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّةُ خَرْدَل»[3].

ومن الجهـاد بالنفس: الخروجُ إلى ميادين الحرب للدفـاع عـن

---

(١) رواه النسائي. (المؤلف). [أخرجه أحمد (٤/ ٣١٥)، والنسائي (٤٢٠٩) بإسناد صحيح. انظر: «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٨٤ = صحيحه)].

(٢) أخرجه مسلم (٥٥).

(٣) سبق تخريجه في (ص٣٠٣).

حوزة الدين، ونصرةِ كلمة الإسلام، وقتالِ مَنِ اعتدى على المسلمين، أو على كتابِ الله ونبيه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١١١].

وروى البخاري عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها»(١).

وقال أيضاً: «ما تركَ قومٌ الجهادَ إلا عَمَّهم اللهُ تعالى بالعذاب»(٢).

وأما الجهاد بالمال، فمن أنواعه:

١ ـ صرفُ المال في ميادين القتال لنصرة الدين على المجاهدين والمرابطين.

٢ ـ صرفه على المشاريع التي بها يؤيد الإسلام، وينتشر ذكرُه؛ كتأسيس المدارس التي يُطابق منهجُها الدينَ الإسلامي، والتي تدرس بها الثقافة الإسلامية بمعناها الصحيح، ونشر الصحف

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، وهو عند مسلم (١٨٨٠) أيضاً.

(٢) أخرجه الطبراني عن أبي بكر ﷺ (المؤلف). [أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٣٩)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٧١ = صحيحه)].

الإسلامية بمختلف اللغات؛ حتى يعرفَ الإسلامَ بمعناه الصحيح كلُّ غريب عنه.

٣ ـ المقاطعة المالية ـ التجارية ـ، وهي: أن يقاطع المسلم جميع الأموال والبضائع التي ترد من بلاد العدو الكافر، والتي يُستغنى عنها بمثلها، أو بدونها مما تنتجه البلاد الإسلامية.

فمن جاهد الكافر بنفسه، أو بماله، أو بنفسه وماله معاً، كان من الفائزين برضاء الله، المُنَعَّمين في جناته، وقدمنا الآيتين شاهداً على ذلك، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].

روى مسلم، والنسائي عن أبي هريرة: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يومَ القيامة سبع مئة ناقة كلُّها مَخْطُومة»[١].

وروى الترمذي عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «أفضلُ الصدقات ظِلُّ فُسطاطٍ في سبيل الله، ومنيحةُ خادمٍ في سبيل الله، أو طَروقَةُ فَحْلٍ في سبيل الله»[٢].

ولقد أصبح المسلمون اليوم في بلادهم غرباء، وعن دينهم غرباء،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٢)، والنسائي (٣١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٩)، والترمذي (١٦٢٧) من حديث أبي أمامة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، ولم أجده من حديث أبي هريرة. والله أعلم.

والكافر المحتلُّ اتخذ بلادَهم مواطنَ له تُجبى خيراتُها له، وتستغل ثرواتها أيدٍ تعملُ لأجله، والأمرُ والنهي بيده، أو بأيدي قوم يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، وأصبح الدينُ الإسلامي غريباً في وطنه؛ فالحكمُ والقضاء غريبان، والثقافةُ غريبة، والعادات والأخلاق غريبة، والجيل الذي تثقفَ بالثقافة الغربيةِ غريب. وما هكذا تكون أمةُ القرآن، وأمة تنتسبُ لخير الأديان.

وإنه لا يوصل إلى الغاية إلا العمل، والنبي ﷺ أخبرنا أنه بُعث فَعَّالاً، ولم يبعث قَوَّالاً، وكلُّ مَنْ سار على الدرب وصل، وكلُّ مَنْ اعتمد على العمل وُفِّق، والخائفُ محروم مخذول، والله ﷻ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]. ولقد قال مَنْ سلفَ في غزوة مؤتةَ يومَ قُتل القواد الثلاثةُ من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّما نُقاتل بالإيمان، وإنما هي إحدى الحُسْنَيين: إما النصرُ، وإما الشهادة، وإنَّ جندَ الله لا يُغلب»(١).

والحقّ أنّ جندَ الله لا يغلب، وأُسطولَه لا يقهر، وسيوفَه لا تُثْلَم ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

روى أحمد، وغيره عن أُبَيِّ بنِ كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذهِ الأمةَ بالتّيسيرِ والسّناء والرّفعة بالدين والتّمكين في البلاد

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٩) من قول عبدالله بن رواحة، بنحوه، وليس فيه: «وإن جند الله لا يغلب».

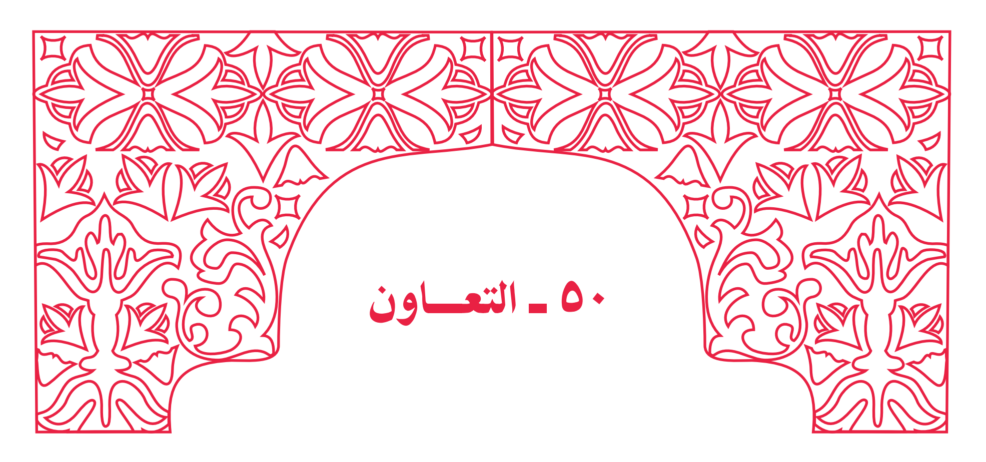
والنّصر؛ فمن عمل منهم بعملِ الآخرة للدنيا، فليس له في الآخرة من نصيب»[1].

إنّ الأجنبي لم يأتنا، ولكنّا نحن أتينا به، وصافيناه، ومَلَّكناه بلادنا ورقابَنا، وخالفنا أمرَ الله علينا حيث قال لنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، ونحن خالفنا، وتعادينا، حتّى إذا تحكّم العداء فينا، انتصرنا بالكافر ضدَّ أخينا المؤمن، فلما قضينا عليه، إذا بنا قد قُضي علينا.

وقال لنا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢]، وقد حادّ الله كلُّ هؤلاء، ولم نُعادهم، بل صافيناهم، ووادَدْناهم، وقَرَّبناهم، وخالفنا أمرَ الله فيهم. وأخيراً، فإن كل ما أصابنا من سوء هو من عملنا، ومن عند أنفسنا.

والله ﷻ قال لنبيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٢١]؛ فلنسأل أنفسَنا: هل أحببنا الله؟ وهل اتّبعنا رسولَ الله حقّاً؟ فإن كنا كما أراد الله لنا، فنحن أولياؤه، وإن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وإن لم نكن، فقد جنينا على أنفسنا ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٩].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣٥) واللفظ له، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.



٥٠ ـ التعــاون

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: ٢].

التعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الإسلامية، إذ إن الدين الإسلامي يوجب أن يعين المسلمون بعضُهم بعضاً على كل ما ينفع الناسَ أفراداً وجماعاتٍ، في دينهم ودنياهم، وعلى كل عمل يدفعون به المفاسدَ والمضارَّ عن أفرادهم وجماعاتهم، في دينهم ودنياهم.

واتّقوا اللهَ بالسير على سنته التي بيَّنَها لكم في كتابه، وأوضحها لكم نبيُّه ﷺ حتى لا يُصيبَكم عقابُه إذا ما أعرضْتُم عن هدايته: فهو شديد العقاب لمن لم يَتَّقِه؛ فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعاً، ولم يَنْهَ عن شيء إلا إذا كان ضارّاً؛ لذلك كان عقابُه لمن لم يَتَّقِه ذِلَّةً في الدنيا، وشقاوةً وعذاباً في الآخرة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢].

كان مسلمو الصدر الأول للإسلام جماعةً واحدة، يتعاونون على

البرِّ، من غير ارتباطٍ بينهم بعهدٍ أو نظام مما أحدثه البشرُ في عهده الحاضر؛ لأن عهد الله وميثاقه كان قد أغناهم عن كل عهد وميثاق غيرِه، وقد شهد الله لهم بذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ولمّا دخل فيهم الشقاق، واختلفت مشاربُهم، وانفرط عقدُهم، احتاجوا إلى تأليف جمعيات جعلوا لها عهوداً وأنظمة؛ لكي تجمعَ طوائفَ من المسلمين، وتحملَ على إقامة الواجب، والتعاون على البر والتقوى؛ وإنها بدعة حسنةٌ.

وإذا كان التعاون على البر والتقوى واجباً إسلامياً؛ فإن ما لا يتم الواجبُ إلا به واجبٌ أيضاً كما قال الفقهاء؛ إذاً، فلابد لنا إذا أردنا أن نحيا حياة عزيزة من تأليف جمعيّات تعاونية رائدُها التعاون على البر والتقوى، وإن أيَّ اجتماع يعقده المسلمون فيما بينهم على ما يصلحهم، ويعزّز مركزهم، ويقوي شوكتهم، لهم فيه رحمة، يقول النبي ﷺ: «الجماعةُ رحمة، والفُرْقَةُ عذاب» رواه عبدُالله بنُ أحمدَ[1] عن النعمانِ بنِ بشير.

وإنّ يد الله مع كلِّ جماعة من ذوي الغَيْرَة والنجدة من المسلمين، إذا تكاتفوا، واجتمعوا على رد مظلمةٍ، أو بذلِ مصلحة،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥) وهو من رواية عبدالله عن أبيه، لا من روايته عن غير أبيه، ولكن قد عزاه إليه المنذري؛ فقال في «الترغيب» (١/ ٣٦ = صحيحه): «رواه عبدالله بن أحمد بإسناد لا بأس به». والله أعلم.

أو إقامةِ شعارٍ إسلامي؛ لأن النبي ﷺ قال: «يدُ الله معَ الجماعة، وإنّما يأكلُ الذئبُ من الغنم القَاصِيَة»[1]، وفي رواية: «ومَنْ شَذَّ، شَذَّ إلى النار» أخرج هذه الرواية الترمذيُّ عن ابن عباس[2].

والبر الذي أمرنا الله تعالى بالتعاون عليه هو التوسُّعُ في فعل الخير، وفي حديث رواه مسلمٌ، وغيرُه: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُق»[3]، وقد ذكر الله البر لنا، وفصّله في آية البقرة؛ قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، وفي موضع آخر يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢].

أمّا التّقوى، فهي اتّقاء ما يضرّ صاحبَه في دينه ودنياه، والإثمُ هو الذنب والمعصية، والعدوانُ هو تعدِّي الحدود الشرعية، أو مخالفةُ الأوامر الإلهية، ومنه البغيُ.

وأشدُّ أنواع الإثم والعدوان ضرراً على الدين هي هذه الجمعيات

---

(١) سبق تخريجه في (ص٢١٣)، وفيه: «فعليكم بالجماعة»، بدل «يد الله مع الجماعة».

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٦)، وهو حديث ضعيف. انظر: «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٢٧١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

التي نراها تأسست لاجتماع على منكر، أو إعانةِ مبطلٍ ظالم، أو تحزّبات تضم فيها التفرقة بين أبناء المسلمين على اختلاف أجناسهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨].

إنّك قلّما ترى في هذا العصر مَنْ يعينك على برّ أو تقوى، ما لم يكن مرتبطاً معك في مصلحة تفيده، أو إثم تشترك معه به، وإن عاهدك على العون في بعض الأعمال، فقد لا يفي لك بكل ما عاهدك عليه، وهذا ناتج من عدوى أصابتنا بها الرأسمالية الكافرة التي مبدؤها الأولُ تفضيلُ المصالح الشخصية على المصالح العامة، والتي بها خالَفْنا مبدأنا الإسلاميَّ الكريم ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: ٢].

المسلمون اليوم في حالة لا يُحسدون عليها: تفكُّكٌ في المجتمع، واختلاف في المشارب، وتباينٌ في الأهواء، وجهلٌ في الدين، وإعراضٌ عنه، وإهمالٌ للمصلحة العامة، وإقبالٌ على المصالح الخاصة ونَهَمٌ فيها، وشُحٌّ في المالِ وإسرافٌ فيه، وفسادٌ في الأخلاق، وإقبالٌ على الملذات والشهوات، وتقليدُ الكافر الأجنبي في كل ما جاءنا به من سفالات، هُتكت الأعراض، وأُفسدت العقائد، وفُرقت القلوب، وجنينا منها أسوأ الثمار، وتخاذلٌ بين الحكام، وتباغضٌ بين الإخوان، وتقاطعٌ في الأرحام، وانتقاضُ عُرَا الإخاء بين عموم المسلمين، وانصرافُ كُلِّ فردٍ إلى هواه وشهوته، ثم فشلٌ وخَوَرٌ زَلْزَلا كيانَ المسلمين، وذهبا

بمجدِهم، وجعلاهم في ديارهم أذلاءَ، وفي مواطنهم غرباءَ، وفي دينهم ضعفاءَ، وكلُّ فردٍ منهم بعيدٌ عن أخيه، «وإنما يأكلُ الذئبُ من الغنم القاصيةَ»؛ فأين نحنُ مما قاله رسول الله ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً» ثم شبك أصابعه؟ رواه الشيخان عن أبي موسى[1]، وأين نحن من قول النبي ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه؟» رواه البخاري عن أنس[2].

إنّ الدين الإسلامي لا يعرف التفرقةَ ولا التخاذلَ، وإن المسلمين الأولين استخدموا وحدتهم وتعاونَهم في التنكيل بأعدائهم؛ فاستردُّوا حقا مغصوباً، ونصروا نفوساً مظلومة، وأحيوا حقّاً ميتاً، وأماتوا باطلاً حَيّاً؛ فهابَهم الظالمون، وخافهم المبطلون.

وإنّ عصرنا الحاضر يطلب من المسلمين أن يتمسكوا بدينهم، فالدينُ هو الدينُ لم يتغير، ولكن الأوضاع تغيّرت، وإنّ أول شيء يجب علينا عملُه هو التواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ لمقاومة العدو الكافر، الذي احتل بلادنا، واغتصب حقنا، وقضى على حريتنا. وإنّ ثاني شيء يجب علينا هو إلغاءُ الخلافات الحزبية فيما بيننا، والقضاءُ على مختلف الجمعيات التي سميناها بأسماء فرقت آراءنا، وأضاعت وحدتنا، ثم النهوض إلى نصرة الإسلام بالعمل بالقرآن.

---

(١) تقدم تخريجه في (٣٣٢).

(٢) تقدم تخريجه في (٩٨).

إنّه لا عزة لنا بقومية، ولا بجمعية، ولا بوطنية، ولا بشعوبية، إنه لا عزة إلا لله، ولرسول الله، وللمؤمنين؛ إذن، فلنتمسَّكْ بكتاب الله، وبسنة نبيه، ولْنَبْنِ على أساسهما نهضَتَنا، وعلى منهجِهما ثقافتنا، وعلى قانونهما حربنا وسياستنا، لتكون لنا عزةُ المؤمنين، ولنكون حزبَ الله؛ فإن حزبَ الله هم الغالبون، وإن حزبَ الله هم المفلحون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

إنّه بقدر ما يكون تمسُّكُنا بالدين يكونُ عِزُّنا، وإن المسلمين الأولين لم يَفُتَّ في عضدُهم كثرةُ الزلازل، ولا توالي العواصف، ولا إجماعُ الأعداء ضدَّهم، وقد أجلبوا عليهم بخيلهم ورَجِلهم؛ ففعلوا فعلَهم في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وهم قلة في العدة والعدد، ولكنَّ رهبانَ الليل فرسانَ النهار قضوا على الضلال بهداهم، وعلى الباطل بحقهم، وكان سلاحُهم الصدق، وظهيرُهم اليقين، وعدَّتُهم الإيمان، وإن التاريخ يشهدُ لهم بذلك، فلماذا لا نجعل لنا من تاريخهم درساً نتفهمه، ودليلاً يوصلنا إلى ما وصلوا إليه؟

إنّ كتابَ الله وسنةَ نبيه يرشدنا إلى سلاح ماض، وجيشٍ غَلاَّبٍ، وعُدَّةٍ عتيدةٍ تنفعنا في البأساء والضراء، وتدفعُ عنا كيدَ الكفرة الأعداء، وتحررنا من ذلة الاستعباد، وتُبَوِّئنا المكانةَ السامية، تلك هي تمسكُّنا بهذه الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢].





٥١ ـ الوحدة الإسلامية

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣].

أمر الله عباده المؤمنين أن يعتصموا بحبله جميعاً بحيث يكونون يداً واحدة على مَنْ سواهم، وأن لا يتفرقوا؛ لأن الاجتماع والوحدة وسيلةٌ لنجاح الأمة، يُنيلها مقاصدَها، ويرفع شأنَها، ويُعلي كلمتها، ويشدّ عَضُدَها، ويقوِّي شوكتها، ويحفظ كيانَها، ويدفع شرَّ أعدائها وطمعَ الطامعين فيها.

وحبلُ الله الذي أمرَنا اللهُ أن نعتصم به هو الكتابُ الكريم الذي أنزَله على سيدنا محمدٍ ﷺ، فجمع به من أشتات العرب أمةً، وكوّن به من اختلافهم وحدةً، ومن عدائهم أخوةً، فكانوا خيرَ أمة أُخرجت للناس، بشريعة سادتْ بين طبقات الناس؛ فلا فضلَ لعربي على أعجمي، ولا لأسودَ على أبيض، ولا لسيدٍ على مَسودٍ، ولا لمخدوم على خادم، ثم أمرهم به بما ينفعهم، ويقوّي جانبهم، ونهاهم عما

يضرهم في دينهم ودنياهم، حتى لا يؤخَذوا من ضعف، ولا يُكْسروا من قلة، ولا يُهانَ لهم حِمىً.

ولقد تأدب المسلمون الأوّلون بأدب القرآن، فأطاعوا أمره، وانتهوا عن نهيه، وتأسَّوْا بالنبي الكريم ﷺ في أقواله وأفعاله، وأطاعوا أولياءَ الأمر؛ فاتحدت الكلمةُ، واجتمع الشمل، وكانوا كما أراد لهم الإسلام.

فالربُّ واحد، والدينُ واحد، والمسلمون كالجسد الواحد، أو كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وكما أرادَ الله، وأرادَ رسولُ الله كان المسلمون.

ولقد جاء الإسلام مقرراً هذه الوحدةَ بدعوة صريحة لا يعتريها شكٌّ ولا لَبْسٌ؛ إنه يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[الأنفال: ٤٦]، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾[الحج: ٧٨]، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[التوبة: ٧١]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩].

هذا ما قرّره الإسلام بالنسبة إلى وحدة الأمة والتحامِها وقوةِ نظامها، بحيث تصبحُ مجموعَتُها كالجسد الواحد: إذا نزل بعضوٍ مكروه، شعر ذلك الجسدُ كلُّه بالألم، وعملَ على إزالته، وإذا نزل بواحدٍ من هذه الأمة مُصاب، شعر بوقع هذا المصاب كلُّهم، وعملوا جميعاً على إبعاده.

أمّا ما قرّره بالنسبة إلى أخوة الأفراد وتآلفهم، فإن الكتاب الكريم يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠]، ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم»[١] رواه الشيخان، و«المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً»[٢] رواه مسلم، و«المؤمنُ إِلْفٌ مَأْلُوف، ولا خيرَ فيمن لا يَأْلَف ولا يُؤْلَف»[٣].

والأعمال الموصلة إلى التآلف والتضامن وصفاء القلب كثيرة، كشف لنا القرآن عن بعضها بقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[المؤمنون: ٩٦]، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

وبيّن لنا النبيُّ الكريم ﷺ كثيراً منها في أقواله وأفعاله: فمن ذلك قولُه لأبي هريرة: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، واعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[٤]، وقوله: «المسلمُ أخو المسلم لا يظلِمُه، ولا يخذُلُه،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) سبق تخريجه في (ص٣٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٤٤)، وفي «الأوسط» (٥٧٨٧)، وفي «الصغير» (٦٠٥)، والحاكم (٥٩)، وهو صحيح. انظر: الصحيحة (٤٢٥، ٤٢٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٠٦٤)، والحاكم (٣٩١٢)، وضعفه الذهبي، وأخرجه أحمد (٤/ ١٥٨)، والطبراني (٧٤٠)، والحاكم (٧٢٨٥) من وصيته ﷺ لعقبة بن عامر، وهو صحيح. انظر: «صحيح الترغيب» (٢٥٣٦).

ولا يُسْلِمُه»، وقوله: «لا تَحاسدوا، ولا تَباغضوا، ولا تَنافروا، ولا تَناجشوا»[1]، ومنها قولُه: «أفلا أنبِّئكم بشيء إذا فعلتموه تَحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم»[2]. وكلها أحاديثُ صحيحة لم يتطرق الشكُّ إلى رواياتها.

ولقد اتجهت الشريعة الإسلامية إلى تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين جميعهم؛ لا فرق بين قبيلة وقبيلة، ولا بين شعب وشعب، ولا لون ولون بآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

إنّه لا رابطة أقوى وأوثق من رابطة الدين، ورابطة الدين الإسلامي أقوى وأوثق رابطةٍ من جميع الديانات؛ لأنه قضى بسلطانه الروحي على النعرات العربية، وأماتَ فيهم النخواتِ الجاهليةَ، وأخذ بقلوب مُتَّبِعيه إلى أخوةٍ إسلامية دفعتهم إلى العملِ لنصرة دينهم؛ فكانوا أشداءَ على الكفار، رحماءَ بينهم، وكانوا جسداً واحداً إذا اشتكى بعضُه، اشتكى كلُّه، حتى كان كلُّ واحد منهم ينادي أخاه بأحبِّ أسمائه إليه.

روى مسلم عن جابرِ بنِ عبدالله، قال: اقتتل غلامان: غلامٌ من المهاجرين، وغلام من الأَنصَار، فنادى المهاجري: يا لَلْمهاجرينَ! ونادى الأنصاري: يا لَلأَنْصار! فخرج رسولُ الله ﷺ فقال: «ما هذه؟ أدعوى أهل الجاهلية؟!»، قالوا: لا يا رسول الله! إلا أن غلامين اقتتلا، فكسعَ أحدُهما الآخر، قال: «فلا بأسَ، ولينصُرِ الرجلُ أخاه

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٦)، ومسلم (٢٥٦٤) بنحوه، وعندهما: «تدابروا»، بدل «تنافروا»، وهي ثابتة في رواية أحمد(٢/ ٣٨٩) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه مسلم(٥٤).

ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً، فلينهه، فإنه له نصرٌ، وإن كان مظلوماً، فلينصره»(١).

وروى أبو داود عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيّة، وليسَ منا من قاتلَ على عصبية، وليس منّـا منّ ماتَ على عصبيّة»(٢).

وهذه العصبيّة التي يدعو لها اليوم بعض مَنْ تثقّفوا بالثقافة الأجنبيّة الكافرة، الذين يريدون أن يفرّقوا بين المسلمين بالانتساب إلى قوميات محا الإسلامُ سلطانها على النفوس، وقضى عليها في الأوساط، وجعل الدين فيها رأس كل فضل، إذ لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى.

إنّ الشريعة الإسلامية جعلت المسلمين في صفٍّ واحد؛ فأوقفت أبا ذر الغفاريَّ بجانب بلالٍ الحبشيِّ، وأوقفت سعداً الخزرجيَّ بجانب سلمانَ الفارسيِّ، وعليّاً القرشيَّ بجانب صُهيبٍ الروميِّ، إنها وحَّدت المسلمين بكتاب واحد؛ عليه يجتمعون، وبه يعملون، ومنه يَرِدون، وإليه يَصْدُرون.

ولقد أراد الله للمسلمين بقاءَ الأُلفة والمحبة بينهم، فحثَّ على إصلاح ذات البَيْنِ في مواضعَ من الكتاب الكريم، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[النساء: ١١٤]، وقال: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات: ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٢١) بإسناد ضعيف. انظر: «فيض القدير» (٥/ ٣٨٦).

وروى الطبراني، والبيهقي عن ابن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «أفضلُ الصدقةِ إصلاحُ ذاتِ البين»(١).

وروى أبو داود، والترمذي عن أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجةِ الصيام والصلاة والصدقة: إصلاحُ ذات البَيْن؛ فإن فسادَ ذاتِ البين هي الحالِقَةُ»(٢).

ولِما للسلام والتحيّة من أثر في تطييب النفس، وإزالة الشحناء من النفوس، والنفرة من القلوب، قال رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد، والترمذيُّ عن الزبير بن العوام: «دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ، هي الحالِقةُ، حالقةُ الدينِ، لا حالقةُ الشعرِ، والذي نفسُ محمّد بيده! لن تدخلوا الجنة حتّى تُؤمنوا، ولن تؤمنوا حتّى تَحابُّوا، أفلا أُنبِّئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم»(٣).

التاريخُ ينبّئنا أنّه لا ترقى الأمم إلا إذا اتّحدت، ولو نالت من الثراء والعلم ما نالت، فإنّه لا يسعدها إلا الاتّحاد، ولا تذل الأمم إلا إذا افترقت، وإنّ يد الله مع الجماعة.



(١) أخرجه عبدُ بنُ حميدُ (١٣٠٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٨١)، وهو حديث حسن لغيره. انظر: «الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٥ = صحيحه).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤)، وأبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وصحّحه.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٤)، والترمذي (٢٥١٠)، والبزار (٢٢٣٢) بإسناد جيّد؛ كما قال المنذري في «الترغيب» (٣/ ١٧ = صحيحه).



٥٢ ـ الرفق بالحيوان

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٥ ـ ٨].

إنّ الله خلق هذه الأنعام لمنافعكم يا بني الإنسان، والأنعامُ هي الإبلُ والبقرُ والغنم: تصنعون من أصوافها وأوبارها وأشعارها دفئاً لكم، فتحيكون الملابسَ، وتعملون البيوت التي تقيكم الحرَّ صيفاً، والبردَ شتاء، وتتخذون من ضروعها لبناً، ومن نتاجها مالاً، ومن ظهورها مراكبَ توصلكم إلى الأماكن التي لا تستطيعون الوصولَ إليها إلا بالتعب والمشقة، ولكم من لحومها مآكلُ، ولكم فيها جَمالٌ ومنظر لذيذ حين تُريحونها في العَشِيِّ، وحين تسرحون بها في الغداة، وإنّ ربكم لرؤوف رحيم بكم؛ حيث خلق لكم هذه الأنعامَ لمصالحكم، وسخرها لمنافعكم، بلا حولٍ منكم، ولا قوة فيكم، ولولا تسخيرُه

لها، لما استطعتُم تذليلَها، وخلقَ لكم الخيلَ والبغالَ والحميرَ، وذلّلها لركوبكم، وجعلها لكم زينةً تتزينون بها، إلى غير ذلك من منافع، ويخلق مالا تعلمون، فهو ربُّ الإبداع، ومخلوقاته لا تُحصى، فقد يسخّر الله تعالى للإنسان حيواناً وحشيًّا يُذَلِّله لمنافعه كما ذلّل الفيلَ والدّبّ، وقد يهدي عقلَ الإنسان إلى استنباط آلاتٍ عظيمة يسخرها له كما سخر له الأنعام: من حمل الأثقال، والوصول إلى البلد البعيد؛ كالقُطُر، والمراكب البخارية، والطائرات، وسيخلق ما لا تعلمونه الآن.

إنّ الله خلقَ هذه الأنعام وغيرَها وسخَّرها لمنافع الإنسان؛ فواجبٌ على الإنسان أن يشكر اللهَ على نعمته، فمَن شكر، فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر، فإن ربي غني كريم.

إنّ الحيوان ـ كيفما كان بريًّا ـ أو بحريًّا أو طائراً ـ ذو نفس حيّة تشعر بالألم، وتأنس بالراحة، فلم يكن ثَمَّ فرقٌ بينه وبين الإنسان إلا النطق؛ فهذا يعبر بنطقه مستغيثاً مسترحماً، أما ذلك، فليس له وسيلة تحميه من أذى الإنسان إلا شعورُ الإنسانِ نفسِه أنه ارتكب ظلماً؛ وإن ديننا يأمرنا أن نُشفق على هذا الحيوان، ونرفق به؛ لأنه سُخِّر لمنافعنا، ولأنه أخونا في الطين.

روى أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم عن عبدِالله بنِ عمرِو بنِ العاص: أن النبي ﷺ قال: «الرّاحمون يرحَمُهم الرّحمن،

ارحَمُوا مَنْ في الأرض، يرحَمْكم مَنْ في السماء»[1]؛ فالرسولُ يخبرنا أن الله تعالى كتبَ رحمتَه لمن اتصف بالرحمة، وأن الوسيلةَ لنيل رحمةِ مَنْ في السماء هي رحمةُ مَنْ في الأرض.

والدينُ الإسلامي يتوعّد بالعذاب الشديد كلَّ من يؤذي الحيوان، ويحثّ على الرأفة به، ودفع الضررِ عنه، ويوجب عليك الإنفاقَ عليه إن كانَ في حوزتك، أو تركَه يسعى في رزقه إن لم تكنْ مالكاً له، أو مكلفاً به.

دخل رسول الله ﷺ مرة حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جَمل، فلما رأى رسولَ الله ﷺ، جَرْجَرَ، وذرفت عيناهُ، فأتاه النبيُّ ﷺ، فمسح ذراته (ظهره)، وذفراه (العظم الناتي خلفَ الأذن)، ثم قال ﷺ: «من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله! قال ﷺ: «أفلا تتقي اللهَ في هذه البهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إياها؟ فإنه يشكو لي أنك تُجيعه وتُدْئِبه ـ تتعبه في العمل ـ». رواه أحمد[2] عن عبدالله بن جعفر.

إنّ الله سخّر هذه البهائمَ وذلّلها لنا، فوجب علينا أن نشكره على نعمته هذه بأن نرحمَها، ونُحسنَ إليها في مأكلها ومشربها ومربطها، وأَلاَّ نكون عليها شياطين، فنقسو في سَوْقها، ونكلفها مالا تطيق.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، والحاكم (٧٢٧٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٤)، وأبو داود (٢٥٤٩)، و هو صحيح؛ كما في «صحيح أبي داود» (٢٢٢٢).

أخرج الإمام أحمدُ، وابن حبانَ عن سهل بن الحنظلية: أن رسول الله ﷺ مرّ ذات يوم ببعير قد لحق ظهرُه ببطنه (من الجوع)، فقال ﷺ: «اتّقوا اللهَ في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكُلوها صالحةً»[1].

وروى البخاري، ومسلم عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «عُذّبت امرأةٌ في هرّة حبستها حتّى ماتَتْ جوعاً، فدخلت فيها النارَ»[2].

يستدل من هذا الحديث الصحيح على أن تعذيبَ الحيوان بلا سبب: معصيةٌ تستوجب العقابَ، وكذلك قتله إذا لم يكن مؤذياً، أما الحيوان الصائل، أو المفترس، أو السامّ، فلا بأس بقتله، أما المؤذي، فيُدفع أذاه بوسائلَ غيرِ القتل؛ فإن لم تفد، فلا مانعَ من قتله، إذا زادت أذيّته.

أمّا الحيوان المسالم، فلا يجوز التعرّضُ له بحالٍ.

أمّا الحيوانات ذاتُ الدرِّ والنسل، والمسخرةُ لحمل الأثقال: فالويلُ لمن يؤذيها، أو يُجيعها، أو يُحَمِّلها ما لا تُطيق.

روى الدار قطني عن أبي هريرة: أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا ركبتم هذه الدوابَّ، فأعطوها حَقَّها من المنازل، ولا تكونوا عليها شياطينَ»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٠)، وأبو داود (٢٥٤٨)، وابن حبان (٥٤٥)، وصححه النووي في «رياض الصالحين» (٩٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) أخرجه الدارقطني في «الأفراد»؛ كما في «كنز العمال» (١١٢)، وهو ضعيف جداً؛ كما في «ضعيف الجامع» (٥٢٤).

وروى مسلم، والترمذيُّ عن أبي هريرة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: «إذا سافَرْتُم في الخِصْب، فأعطوا الإبلَ حَقَّها من الأرض، وإذا سافرتم في الجَدْب، فأسرعوا عليها، وبادروا بها نِقْيَها (مُخَّها)، وإذا عَرَّسْتُم (نزلتم ليلاً)، فاجتنبوا الطريقَ، فإنها طرقُ الدوابِّ، ومأوى الهَوامّ بالليلِ»(١).

ومن أشهرِ الأحاديث الدالةِ على وجوب الرفقِ بالحيوان ما رواه الشيخان عن أبي هريرة، ورواه أحمد، وابن ماجه عن سراقة، وابن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: «في كلِّ ذاتِ كَبِدٍ حرّاء أَجْرٌ»(٢)؛ أي: كلُّ حيوان تُطعمه وتَسقيه لك فيه أجرٌ.

وقد قصّ علينا رسولُ الله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة: «بينما رجلٌ يمشي، فاشتدَّ عليه العطشُ، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرجَ، فإذا هو بكلبٍ يلهثُ يأكلُ الثرى، فقال: لقد بلغَ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خُفَّه، ثم أمسك بفيه، ثم رقي، فسقى الكلبَ، فشكر اللهُ له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال ﷺ: «في كلِّ كبدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(٣).

أمّا إذا أردنا ذبحَ حيوان، أو اضطُرِرْنا لقتله دفعاً لضرره، فقد علَّمَنا النبيُّ الكريمُ ﷺ كيف نذبحه، أو نقتله؛ فقد روى مسلم، وأحمد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٦)، وأبو داود (٢٥٦٩) مختصراً، والترمذي (٢٨٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة، وأحمد (٢/ ٢٢٢)، (٢/ ١٧٥)، وابن ماجه (٣٦٨٦)، واللفظ للأخيرين.

(٣) سبق تخريجه في الحديث الذي قبله.

والترمذي، والنسائي، وغيرُهم عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى كتبَ الإحسانَ على كلّ شيء؛ فإذا قتلتم، فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذّبحة، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرتَه، ولْيُرِحْ ذَبيحته»[1]؛ أي: يريحها بالسقي، وإمرار السكين بسرعة وقوة.

ومن ظلم الحيوان والقسوة عليه ما يفعله بعضُ الجهلة ممن لا خُلُقَ ولا عقلَ لهم: في التحريش بينَ بعض البهائم؛ كمناطحة الكباش، أو مناقرةِ الطيور، أو مهارشةِ الكلاب: والإسلامُ يحرم ذلك، فقد روى أبو داود، والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن التَّحْريش بين البهائم[2].

ولا فائدة من وراء ذلك إلا الكسبُ الحرام ـ لأن المغالبةَ فيها قمار ـ، أو التسليةُ والتلذذُ بالنظر إلى الدماء السائلة.

روى الشيخان، وأحمد، وغيرهما عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لعنَ اللهُ مَنْ مَثَّلَ بالحيوان»[3].

وروى الطبراني عن عبدالله بن عباس، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل كُلّ ذي رُوح، إلا أن يؤذي[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، ومسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٦٢)، والترمذي (١٧٠٨)، وهو حديث ضعيف. انظر: «ضعيف أبي داود» (٥٥٢).

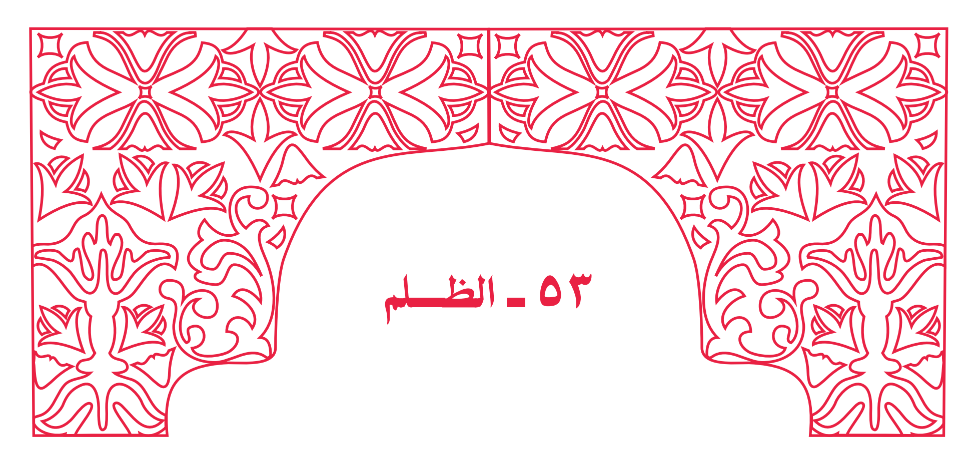
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٨)، والبخاري (٥١٩٦)، ومسلم (١٩٥٨).

(٤) أخرجه الطبراني (١٢٦٣٩)، وضعّفه الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٦٠).

فليتق الله مَنْ لا نصيبَ لهم في الرحمة بالإحسان إلى ما سخر الله لهم؛ حتى تشكرَ الله لهم كما شكر الكلبُ للذي سقاه؛ فإن الإحسان إلى الحيوان حسنة، وإن الحسنات يُذهبن السيئات، وإنه خير: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٨].

وكثيراً ما تقع بعض الحيوانات في أيدي الأطفال، فيؤذونها، أو أن الوالدين يُلهون أطفالهم بها، وهذا أيضاً ظلمٌ للحيوان، وتعويد للطفل على القسوة، وإن واجب وليِّ الطفل أن يعوِّدَ طفله على الرحمة، ليكونَ ممن يرحمُهم الرحمن.

❒ ❒ ❒



٥٣ ـ الظلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩].

الظلمُ مجاوزةُ الإنسان حدَّهُ، واستطالتُه على غيره جَوْراً، وهو من طبائع النفس، تُظهره القوة، ويُخفيه الضعف، والله ﷻ أعدَّ للظالمين يومَ القيامة ناراً تحيط بهم إحاطةَ السُّرادق ـ رواق الخيمة ـ بمن فيه، وإذا استغاثوا من شدة العطش والحر، أُغيثوا بماء أشدَّ حراً من مُذابِ المعدنِ يشوي الوجوه من حرِّه، بئس هذا الشرابُ الذي يُغاثون به، وساءت النار لهم منزلاً ومجتمعاً.

ينال الإنسان بظلمه ما دنا عنه وما نأى، وأولُ من يصيبه بظلمه نفسُه إن قَصَّر في أداء واجبها، أو قصر في أداء العمل الذي يعود عليه نفعُه دنيا وأخرى.

وقد يظلم أهلَه، فيسوسهم بالقسوة متوهماً أن القسوة مَدعاةٌ لاحترامهم له، أو يبخل عليهم، فلا ينفق عليهم نفقةَ أمثالهم، أو

لا يُحسن معاشرتهم، وقد ذكر لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب ﵁ كان ذات يوم مستلقياً على ظهره في بيته، وصبيانُه يلعبون حولَه، فدخل عليه أحدُ عماله، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ فقال: إذا دخلتُ، سكت الناطقُ. فقال له: اعتزل عملَنا، فإنك لا ترفُقُ بأهلك وولدك، فكيف ترفُق بأمة محمد ﷺ؟

ويظلم زوجته، فينظر إليها نظرةَ متاعِ بيته، وهي شريكةُ حياته، ومدبرة شؤونه، وأم أولاده، والحافظة لغيبته.

ويظلم أولاده، فلا يحسن تربيتهم، ولا يقوِّمُ معوجَّهم؛ فينشؤون عبيداً وإماء في ثياب أحرار.

ويظلم جيرانه، فلا يقوم بحق الجوار لهم، ولا يواسيهم في محنتهم، ولا يساعدهم في شؤونهم، ولا يفرح لفرحهم، ولا يحزن لحزنهم، ولقد أوصى الله بالجوار، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: ٣٦]. وأوصى رسولُ الله ﷺ به، فقال: «ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظَنَنت أنّه سيورثه»[(١)]. وقيل له: إن فلانةَ تصوم النهار، وتقومُ الليل، وهي سيئة الخُلُق تؤذي جيرانَها بلسانها،

---

(١) رواه الشيخان عن عائشة، وابن عمر. (المؤلف). [أخرجه البخاري (٥٦٦٨، ٥٦٦٩)، ومسلم (٢٦٢٤، ٢٦٢٥)].

فقال ﷺ: «لا خيرَ فيها، هي من أهل النار»[1].

ويظلم الناس، ويعتدي عليهم بلسانه ويده، ولا يعطف عليهم، ولا يساعدهم بفضل ماله.

ويظلم خَدَمه، فيكلفهم من العمل مالا يطيقون، وقد لا يوفيهم أجورَهم في وقتها، ولا يعطف على ضعيفهم، ولا يرحم صغيرهم، ولا يرأف بعاجزهم، ولا يعفو عن زلاتهم، ولا يحسن جزاء المحسن منهم.

وشرّ أنواع الظلم: ظلمُ الحاكم رَعِيَّته ومن وَلِيَ أمرَهم.

وإذا انتشر الظلمُ في أمّة، سُلبت الأمنَ على الأرواح والأموال والأعراض، وانتشرت فيها المفاسد وسوء الأخلاق، وفشت فيها العداوات والبغضاء، وأكلَ قويُّها الضعيف، وقلَّتْ فيها اليد العاملة، فتقل الثروةُ، ويتسع نطاق الجهل، وتذهب من الأمّة الشجاعةُ والحميّة، ويحل محلّها النفاقُ والملق، ويثمران الجاسوسيّة؛ فتسعى حاشية ذلك الظالم إليه بالأبرياء يبتغون الزلفى عنده بالإيقاع بالناس كذباً وبهتاناً، فتنفر القلوب منه، وتجتمع على بغضه والكيد له ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٩)، وابن حبان (٥٧٦٧)، والحاكم (٧٣٠٥)، وصححه. انظر: «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٨٦).

ويظلمُ القاضي بجنوحه عن الحق مع أحدَ الخصمين، أو تَسَرُّعِه بالحكم، أو عدم تبصُّره في بيِّنتي الخصمين، أو شهادة الشاهد، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٣٥]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

الظالم جانٍ على نفسِه وعلى أمته؛ فإذا بُليت به أمةٌ، ولم تأخذ على يده، رفع الله يدَه عن معونتها، وسلَّط عليها مَنْ يسعى في شقائها، ويحتل ديارها، ويسلبها أموالها، ويُهين كرامتها، وهذا مصداقٌ لقول النبي ﷺ الذي رواه أبو داود، والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إنَّ النّاسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخُذوا على يده، أوشكَ أن يعمّهم اللهُ بعقابٍ من عنده»[1].

الظالم خائف؛ فنفسُه به شقية، والرعيةُ منه في بلية، وعقابُ الله له بالمرصاد ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨]، وقال عمر بن الخطاب: «أشقى الولاة مَنْ شقيت به رَعِيَّتُه».

الظلمُ قاتلٌ للنفسيّات، مميتٌ لحريّات الأفكار، داعٍ لعدم الإحسان في الأعمال، وسيلةٌ لانتشار الرشوة والمحسوبية والخوف في البلاد، سببٌ لظهور الشفاعة بالباطل.

---

(١) سبق تخريجه في (ص٢٩٩).

أمّا العادل، فإنه سعيد، راضية عنه نفسُه، راضٍ عنه قومه، راضٍ عنه ربُّه، مستريحٌ بالُه، مطمئنٌّ ضميرُه؛ فهو إن حكم عدل، وإن ساس سلكَ سبيلَ الصالحين، ولم تأخذه في الله لومةُ اللائمين.

إن الله سبحانه وتعالى وعد العادلين بثمانية أشياء:

١ ـ بمحبته لهم؛ فهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة: ٤٢].

٢ ـ باقترابهم منه، وجلوسهم عن يمينه؛ فقد روى مسلم عن ابن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «إنّ المُقْسِطين عند الله على منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يَعْدِلون في حكمهم وأهليهم، وما وَلُوا»[(١)].

٣ ـ بإجابته دعاءهم؛ بدليل ما روى أحمدُ عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم: الصائمُ حين يُفطر، والإمام العادلُ، ودعوةُ المظلوم يرفعُها اللهُ فوقَ الغمام، ويفتح لها أبوابَ السماء، ويقولُ الربُّ: وعزّتي وجلالي! لأنصرنَّك ولو بعد حين»[(٢)].

٤ ـ برفع درجتهم على درجات العباد إذا كانوا أئمة؛ فقد روى الطبراني عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «يومٌ من إمامٍ عادلٍ أفضلُ من عبادة ستّين سنة، وحَدٌّ يُقام في الأرض بحقّه

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

(٢) سبق تخريجه في (ص٢٥٩).

أزكى من مطرِ أربعينَ صباحـــاً»[1].

٥ ـ بمعونته لهم، وتبصيرهم الطريقَ؛ كما روى الترمذيُّ، وابن ماجه عن ابن أبي أوفى: أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار، تخلَّى عنه، ولزمَهُ الشيطانُ»[2].

٦ ـ بشكر الناسِ لهم؛ لأن العادلَ يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ويساوي بين الناس جميعاً، وقد روى الطبراني عن ابن عباس: أن النبيَّ ﷺ قال: «من أرضى اللهَ في سخط الناسِ، رضي الله عنه، وأرضى عنه مَنْ أسخطَه في رضاه حتى يزينه، ويزين قوله وعمله في عينه»[3].

٧ ـ بإظلالهم بظلِّ العرش يوم القيامة؛ لأن العادل من السبعة الذين يُكرمون بظل العرش في ذلك اليوم؛ فقد روى الشيخان عن أبي هريرة، وغيرُهما عن أبي هريرة، وأبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «سبعةٌ يُظلهم اللهُ في ظلّه يومَ لا ظلّ إلا ظلّه: إمامٌ عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبُه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله، فاجتمعا على ذلك، وافترقا

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٩٣٢)، و«الأوسط» (٤٧٦٥)، وهو حديث منكر؛ كما في «ضعيف الترغيب» (١٤٠٣)، وقد أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، وابن حبان (٤٣٩٨) من حديث أبي هريرة بلفظ: «حَدٌّ يقام في الأرض خيرٌ للناس من أن يمطروا ثلاثين أو أربعين صباحاً».

(٢) أخرجه الترمذي (١٣٣٠)، وابن ماجه (٢٣١٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) سبق تخريجه في (ص٢٤).

عليه، ورجلٌ ذكرَ الله خاليًا، ففاضت عيناه، ورجلٌ دعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِب وجمال، فقال: إنّي أخافُ الله ربَّ العالمين، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلمَ شمالُه ما أنفقتْ يمينُه»[1].

٨ ـ بالجنة: ولا شك أن مَنْ أحبه الله، وقَرَّبَ مجلسَه، وأظلَّه بظلِّ عرشِه، وأعانه في جميع أحواله، وأرضى عنه خلقَه، تكون نهايتُه الجنةَ يرتع في نعيمها، وينعم في حظيرة قدسها.

❐ ❐ ❐

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١).



الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمدٍ عبدِالله ورسوله ومصطفاه، حيث منّ الله تعالى ووفقني لجمع هذا الكتاب، وطبعِه وظهورِه بهذا الشكل الجميل، والصورةِ المختصرة المتضمّنة من حديث الرسول ﷺ ما صح سنـدُه عن أئمـة الحديث؛ موضّحـة بعبارة مبسّطـة يفهمها القارىء والمستمع. نفع الله به، وكفاني شرّ الغرور، واللهَ أسألُ أن يحقّق أملَ كلّ مسلم يدعو إلى الإسلام، وأن يؤيّد كلّ من ينشر مبادئه السامية؛ إنّه سميع مجيب.

اللّهمَّ إنّك وعدتَ الذين جاهدوا فيك أن تهديهم سبيلَك؛ اللّهم فاكتبني فيمن جاهد فيك، واهدني الصراطَ المستقيم؛ صراطَ الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم، ولا الضالّين. آمين.





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

